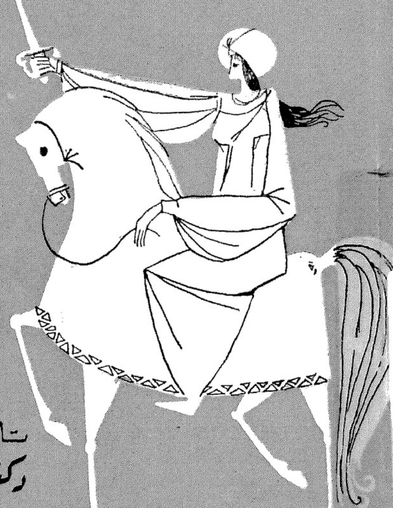
سيرة الأميرة ذات الهمّة

دراسة مقارنة



تأليف:
دكتورة نبيلة إبراهيم

سيرة الأميرة ذات الهمة

دراسة مقارنة

تأليف: دكتورة نبيلة إبراهيم

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

مقدمة

كان بحثي في الماجستير تحت اشراف أستاذتي الدكتورة سهير القلماوي هو ((روميات المتنبي)) . وفي بادىء الأمر تركزت دراستي حول هذا الموضوع ، واذ بي أتبين بعد ذلك أن الروميات ليست سوى حلقة واحدة من الحلقات الثقافية التي نشأت عن العلاقة الطويلة بين العرب والروم . وقد سجلت في رسالتي بعض مظاهر هذا النشاط الثقافي . ومن ثم فقد خرج البحث تحت عنوان ((روميات المتنبي ـ حلقة من الصلات الأدبية بين العرب والروم)) . وقد كنت عازمة بعد ذلك ، أن أستكمل الظواهر الأدبية التي نتجت عن الاتصال الوثيق بين الطرفين المتعاديين ، والتي أشرت اليها عبرا في رسالة الماجستير ، وأعني بذلك التراث الأدبي الشعبي العربي والرومي ، الذي يعد صدى للحروب العربية الرومية .

أما فيما يختص بالآداب الشعبية العربية فقد درست سيرة الأميرة ذات الهمة ، وحكاية عمر النعمان ـ احدى حكايات ألف ليلة وليلة ، دراسة تفصيلية . وأما فيما يختص بالآداب الشعبية البيزنطية ، فقد درست ملحمة ديجنيس وبعض الأغنيات الشعبية

دراسة تفصيلية كذلك . ((وطبيعى)) أن يكون هدف البحث فى آخر الأمر هو الدراسة المقارنة .

ولما لم تسعفنى المراجع الخاصة بالآداب البيزنطية فى مكتباتنا بمصر ، فقد استكملتها فى أثناء اقامتى فى ألمانيا ، حيث رشحت فى بعثة علمية . وهناك وجدت المادة متوافرة فى كل من الأدبين العربى والبيزنطى ، ففى قسم الدراسات البيزنطية بمدينة ميونيخ وهو من أكبر الأقسام التى تختص بهذه الدراسة فى أوربا عكفت على قراءة كل ما يتصل بهذا الموضوع .

ولست أدعى أن هذا البحث يعد أول بحث ظهر فى هـــذا الميدان ، فقد التفت العلماء الذين تخصصوا فى دراسة العـلاقة بين العرب والروم ، سواء من الناحية التاريخية أو من الناحيـــة الأدبية ، الى أثر هذه العلاقة على آدابهما الشـعبية . ونخص بالذكر من هؤلاء العلماء ، الأستاذ ماريوس كنار الذى خصـــص كثيرا من دراساته حول بعض الموضوعات العربية ، نخص بالذكر منها كتابه القيم ((تاريخ الدولة الحمدانية)) ، كما نخص بالذكر أبحاثه القيمة التى نشرها فى مجلة بيزنطيون . ثم هناك الأستاذ فازيلييف الذى كان يحاول فى دراساته التاريخية أن يبين صدى بعض الحوادث فى الأدب الشعبى البيزنطى . أما الأســـــتاذان جريجوار وجوسون ، فقد اهتما اهتماما بالغا بالآداب البيزنطيـــة كما أشارا على سبيل المقارنة الى الآداب العربية .

كل هذه الدراسات كانت بمثابة الخيط الواضح الذى استطعت أن أمسك به .وأمتد بهذه الدراسة وأضعها فى شكل كامل منظم .

وقد بدأت البحث بدراسة فى الأدب الشعبى بصـــفة عامة ، والأدب الشعبى البطولى بصفة خاصة ، كما أشرت الى الظروف التى تفجر منها الأدب الشعبى البطولى العربى .

ثم قسمت البحث بعد ذلك الى ثلاثة أبواب : البـاب الأول ويختص بالأدب الشعبى العربى ، والباب الثانى ويختص بالأدب الشعبى البيزنطى ، والباب الثالث ويختص بالمقارنات .

واذ أنوه بجهد الأساتذة الذين كان لهم الفضل الأول فى هـذا البحث فاذكر أولا أستاذتى الدكتورة سهير القلماوى ، والأستاذ الدكتور ((رودى باريت)) رئيس قسم اللغات الشرقية بجامعـة توبنجن بألمانيا الغربية .

فاليهما أتوجه بالشـكر ، والى سـائر العلماء الذين تعرفت عليهم من خلال أبحاثهم القيمة .

دكتورة نبيلة ابراهيم

مدخل

الأدب الشعبى ودوره فى الحياة الفكرية

اتجه الباحثون فى الأدب الشعبى منذ البداية الى تفهم طبيعة هذا الأدب ودراسة قضاياه البيئية والجنسية والنفسية ، فضلا على قضاياه ومشكلاته الفكرية والأدبية . وفى الحق لقـــد بذلت فى ذلك جهود شتى اثر جهود ، فأطراف الأدب الشعبى متنوعة وممتدة ، فضلا على سائر أنواع النتاج الشعبى ، ممـــا اقتضى الباحثين منذ البداية أن يحددوا ــ قدر المستطاع ــ الأنماط الأدبية الشعبية المختلفة ، وأن يفردوا كل نمط بمشخصاته الخاصة تمهيدا لفهم طبيعته وتفسير دلالته ، تماما كما صنع الباحثون فى دراستهم للأنماط أو الأنواع الأدبية الراقية (أو غير الشعبية) .حتى اذا ما تم لهم ذلك استطاعوا أن يلمسوا العناصر المشتركة التى تربط بين هذه الأنواع المختلفة فتجعل لها ــ فى مجموعها ــ دلالتهـــا الفكرية والحضارية .

وقبل أن نتعرض هنا بالشرح والتفسير لطبيعة تلك الانمـــاط الأدبية الشعبية بعامة والأنماط الأدبية الشعبية العربية بخاصة . نقدم عرضا سريعا لتلك الجهود التى بذلت فى هذا الســـبيل ، بخاصة تلك الجهود المبكرة التى لفتت الأنظار الى هذا النتاج الأدبى

الذى ظل مهملا الى أن قدر له أن يخرج الى الحياة ، وأن يظفر بنصيب وافر من عناية العلماء والدراسين ..

وترجع بنا هذه المجهودات فى التاريخ مائة وخمسين عاما ، حينما اهتم الاخوان « جرم » يعقوب ووليام بالسؤال عن مصدر القصص الشعبى وطريقة انتشاره ومعناه . فقد ظهر أول انتاج لهما عام ١٨١٢ فى كتابهما ، « الأطفال والقصص الخرافى » (١). وفى عام ١٨١٤ ظهر الجزء الثانى من هذا الكتاب . وما لبث الكتاب أن نفد وأعيد طبعه . والى اليوم مازال لهذا الكتاب من النضرة والحيوية ما كان له وقت ظهوره ، وما يزال تأثيره فى الموسيقى والشعر والفن التصويرى واضحا ، وكذلك فيما يستمد منه من أفكار (٢) ..

ولم يقف عمل الأخوين فى هذا الكتاب على جمع النصوص التى حاولا قدر المستطاع أن يجعلاها صورة من الأصل حتى تتضح شاعرية الشعب على طبيعتها ، وانما أضافا الى ذلك بيانا كافيا عن مصدر الأقاصيص الشعبية ، كما حاولا أن يبرهنا على صلة القربى أو التشابه بين الأقاصيص الجرمانية ، وغيرها من أقاصيص الشعوب الأخرى . ولأول مرة خرجا بنظريتهما عن مصدر القصص الشعبى ، فقررا أن الأدب الشعبى لم يتخذ له فى البداية وطنا بذاته ، ولم يستأثر به شعب معين من الشعوب ، امتد منه هذا الأدب الشعبى الى غيره من الشعوب ، وانما ذهبا الى أن صور

---

(١) Bruder Grimm : Kinder und Hausmärchen (Marburg — sechte Auflage — 1941).

(١) انظر : Friedrich von der Leyen : Das Märchen ; Quelle und Meyer, Heidelgerg 1958, S. 13.

التفكير الشعبى قد تمثلت — وتتمثل — فى جميع الأزمان وعند جميع الشعوب ..

وقد تلت هذه المحاولة ابحاث اخرى حاولت أن تفسر هذا النتاج الشعبى بطريقة أو بأخرى . ومن هذه الأبحاث ما هو علمى بحت ، كتلك الأبحاث التى قامت بها مدرسة فرويد فى السنوات الأخيرة . حينما حاولت أن تضع تفسيرا للقصص الشعبى من خلال شرحها للتجارب الجنسية . وكذلك المحاولة التى قامت بها مدرسة « يونج » لتفسير هذا القصص على اساس نظريتهم فى « اللا وعى الجماعى » . فالقصص الخرافى — فى رأى هذه المدرسة — مبعثه اللا وعى الذى هو مصدر الصور التى تظهر فى الأحلام ، غير أن القصص الخرافى يتسم بطابع جماعى (١) ..

ومن الأبحاث العلمية التى تتصل بالأدب الشعبى ما قام به الأستاذ « فرانز كراتشى » فى مقال له نشر فى مجلة « الأبحاث الشعبية » يبين فيه الفرق بين الباعث على الانتاج الشعبى والباعث على الانتاج الفنى . فالانتاج الفنى يتحكم فيه المنطق والتيارات الفكرية السائدة ، أما الانتاج الشعبى فهو انتاج تتحكم فيه « الآلية النفسية » . وهذه الآلية النفسية تشبه آليةالذاكرة التى تظهر فى الأحلام ، والتى ليس للمنطق سيطرة عليها . ومع ذلك فالأدب الشعبى أصدق تصويرا للشعب من الأدب الفنى . وهذا طبيعى ، فالآلية تبرز صفات الشعب وخلجاته فى صورة أكثر بساطة وصدقا من تلك الصورة التى تظهر فى الانتاج الفنى

---

(١) Von der Leyen : Op. cit., S. 35-36.

الراقى الذى يتحكم فيه المنطق ، والذى يمثل مراحل عليـــا من التفكير (١) ..

ومن الأبحاث التى ظهرت فى هذا المجال كذلك تلك الأبحـــاث التى أخذ أصحابها على عاتقهم عقد مقارنات بين الآداب الشعبية المختلفة ، ومحاولة تلمس أصل واحد لتلك الآداب . ففى عام١٨٥٨ نشر الأستاذ « تيودور بنفى » كتابه « بانتشاتانترا » الذى أعلن فيه أن القصص الشعبى جميعه ، فيما عدا الأسطورة التىتأصلت عند الاغريق ، يرجع الى أصل هندى ، وأن هذا القصص كان فى أصله حكايات بوذية تحكى لأغراض تعليمية ، ثم انتشر بعد ذلك اما عن طريق العرب فالبيزنطيين ومنهم الى أوربا ، واما عن طريق المغول وشرق أوربا (٢) ..

ثم ظهر بعد ذلك الباحثان « أ.ب.تايلور » و « أندرو لانج » بأبحاثهما عن الحضارات البدائية؛فقد توسعا فى هذه الأبحاث ، واتخذا من دراسة الأدب الشعبى وسيلة لتفهم هذه الحضارات ، حتى صارت معرضا لألوان مختلفة من الدراسات فى اللغةوالعادات والمعتقدات والثقافات . ثم أعقبهما الباحث الفرنسى « بديــه » بكتابه عن « الفابولا » الذى طلع فيه بنظرية تعدد أصول القصص الشعبى . وقد حاول أن يدعم نظريته بتفسير طبيعى اســـتمده من ملاحظة أن أنواع النبات المتشابهة تنمو فى ظروف جغرافيـــة وطبيعية متشابهة فى الجهات المتعددة من أنحاء العالم . فبنفس

(١) Zeitschrift für Völkerpsychologie und Sprachwissenschart (herausgegeben von Prof. Dr. M. Lazarus und Prof. Steinthal)

أنظر الجزء التاسع عشر ، والمقال للأستاذ Franz Krejce تحت عنوان : Das Charakteristische Merkmal der Volkspoesie. S. 116.

(٢) أنظر : Von der Leyen : op. cit., S. 35.

الطريقة تنمو الأنماط العقلية المتشابهة في ظروف روحية متشابهة في انحاء العالم المختلفة ..

ولم يحرم القصص الشعبي بعد ذلك ممن يوليه عنايته بتفسيره من وجهة نظر أدبية وتحديد مكانه من الفن . وهذا ما فعله « ماكس لوثى » في أبحاثه . ومن أهم ما يوضح افكاره كتابه « القصص الشعبي الأوربي » (١) . لقد بدأ « لوثى » يبحث عن الدافع والشكل اللذين هما كل شيء في القصص الشعبي ، لكن اهتمامه كان بالشكل أولا ، لأن السر الذي يقع وراء سحر القصص الشعبي لا يقع — كما يقول — في الدوافع وانما يتمثل في فنها الذي استخدمته ، اى انه يتمثل في شكلها (٢) . وقد كان مخالفا في رايه هذا الراى الأستاذ رنك الذي أعلن في بحث من ابحاثه ان الشيء الهام في الأنواع الشعبية المتعددة لا يتمثل في الشكل الذي يتخذه كل منها — ويقصد بذلك القصص الخرافي Marchen والقصص الشعبي Volkssage ثم الأسطورة Legend والحكاية المضحكة أو النكتة Schwank — وانما يتمثل في الداقع الذي يقع وراء هذه الأشكال . فلكل من هذه الأنواع دافعها النفسي عند القاص والسامع معا ، والدافع هو الأصل ، أما الشكل فيأتي في المرحلة الثانية . فالدافع وراء كل من القصص الشعبي والأسطورة والحكاية المضحكة أو النكتة هو ذلك الواقع الذي يعيش فيه الانسان ويحس بقسوته . فاما أن يعبر الشعب عن ارتباطه بالحياة العليا والقوى الالهية ، وحينئذ يخرج ذلك في شكل أسطورة ، واما أن يعيش الانسان في الواقع التراجيدي ويحس بقسوته ، وحينئذ يخرج ذلك إلى صورة القصص الشعبي

(١) Max Luthi : Das Europaische Volksmärchen ; (A. Francke Ag. Verlag — Bern 1947).

(٢) Ibid., S. 9.

الواقعى ؛ واما أن يعرض القاص الحياة الواقعة بصورة ساخرة تبعث على الضحك الذى هو وسيلة للخلاص من الواقع المفاجىء ، وحينئذ يظهر ذلك فى شكل نكتة . أما القصص الخرافى فمبعثه خيالية يعيش فيها هؤلاء الذين تصبو حياتهم الفقيرة نحو الأبهة والعيش الطيب ، نحو الراحة من العمل المضنى الذى لا ينتهى .

ولذلك تقوم الأشياء التى تعبر عن هذه الرغبة بدور كبير فى القصص الخرافى . ومثال ذلك المنضدة التى لا تفرغ من النقود ، والوسائل السحرية التى تحقق كل رغبة . ولهذا السبب كذلك يصدر القصص الشعبى حكمه عادلا على بعض الظواهر الاجتماعية .

فالملك القاسى يعاقب عقابا طبيعيا ، وقد يحل محله شاب وضيع . على أن الهدف الذى تصل اليه الحكاية الخرافية بالبطل ليس هو موضوع الحكاية فى الحقيقة وان كان هو غايتها ، وانما يتمثل الموضوع الحقيقى فى الطريق الذى يسلكه البطل حتى يصل الى النجاح النهائى . انه طريق يقوده الى استكشاف مصيره ، ثم تساعده الظروف وتساعده القوى الغريبة على تحقيقه . وهو لم يصل الى النتيجة المطلوبة الا لأنه يستحقها . فالشىء الطيب ـ ومثله الجميل ـ هو الفائز دائما ، والشىء الشرير ـ ومثله القبيح ـ هو الخاسر دائما . ان هذا البطل الذى تمتلىء نفسه بالجمال والصبر ، وبالاخلاص وطيبة القلب ، والذى يتسم بالشجاعة ، ثم بكل الصفات الأخرى الكاملة ، هذا البطل هو حبيب الشعب ، بل هو أحب شخصية فى القصة الخرافية (١) . .

---

(١) أنظر : Ranke : Betrachtung zum Wesen und zur Funktion des märchen. (Studium general; Springer- Verlag in Berlin- Gottingen — Heidelderg) Heft II 1958, S. 651.

هذه الدوافع المختلفة التى يراها الأستاذ « رنك » محـددة للأنواع الشعبية المختلفة يلخصها « يولس Jolles » فى دافع واحد سـماه « النشاط الروحى للشعب » (١) . فالروح الشعبى الذى يعيش فى عالم يحتاج الى تفسير ، يهتم — حين فراغه من العمل — بما يمكن أن يرضى تصوراتهازاء هذا الوجود . هـذا الانشغال الروحى هو الدافع وراء تلك الأنواع الأدبيةالشعبيةكلها وان تعددت أشكالها . ومن هنا كان «رنك» متفقا مع «ماركس لوثى» ولذلك فقد اهتم الأخير بتفسير شكل القصص الشعبى ومحتواه ، ودعاه ذلك الى عقد مقارنات طريفة بين كل من القصص الخرافى والقصص الشعبى ، بين الشخصيات فى كل منهما ، ثم بين صلة كل منهما بالحياة الأبدية المطلقة والحياة الزمنية المحدودة . فبينما نجد أشخاص القصص الخرافى أشباحا دون أجساد ، نجدالحكاية الشعبية تصور بطريقة واقعية أشخاصا حقيقيين ، وأشياءواقعية لها علاقاتها المتعددة النواحى بالعالم الزمنى والعـالم الأبدى . ويرتبط بذلك أن شخوص الحكاية الشعبية تبدو أكثر مرونة من شخوص الحكاية الخرافية ، اذ أن الشـخوص الأولى تعيش فى حياتنا ، فى حين لا تتلاءم الشخوص الأخرى الا مع عالم المغامرات الخيالية ..

وخلاصة القول أن الحكاية الخرافيـة تتبـع منهجا تجريدياً واسلوبا انعزاليا . فالمنهج التجريدى يتمثل فى تجرد البطـل من مشخصاته الانسانية ، والأسلوب الانعزالى يتمثل فى انعزاله عن الزمان والمكان ، وانعزاله الروحى عن أهله . فالبطل قد يهجـر زوجته أو حبيبته لمجرد القيام بمغامرة ، ثم يعود اليها بعد سنين

---

(٢) المرجع السابق ص ٦٦٠ .
Max. Suthi : Das Europaische Volks märchen : S. 16-12.

طويلة وكأن شيئا لم يحدث . وقد تنام الأميرة سنين طـــويلة ثم تستيقظ وهى على ما كانت عليه من حيوية وشباب . اماالحكاية الشعبية فلا تتبع هذا المنهج . وذلك لارتباطها بالحياة الواقعـة وبحدود الزمان والمكان . ومن هنا كانت شخوص القصص الخرافى دائما متشابهة ، ومن هنا كذلك نجد الحكاية الخرافية تسمح باعادة الموقف بنفس صورته مرة أو مرتين أو ثلاثا ، بل ربمـــا أعادته بألفاظه لأن الغرض هو ملء الفراغ بتلك الصورة المعينـــة . اما القصص الشعبى فهو وان أباح التكرار الا أن أسلوبه غير الانعزالى فى السرد يسمح باعادة الموقف لأكثر من سبب . فاما أن يضـطر القاص الى تكرار الحادثة لأن الحوادث تتشـابه فى جوهرها مع طول الفترة الزمنية التى يريد أن يروى أحداثها ، وأما أن يضطر الى اعادة حادثة فى اختصار لتذكير السامع بها ، واما أن يعيـد جوهر الحادثة فى ظروف أخرى تنشيطا للسامع (١) . .

هذا عرض سريع للأبحاث التى دارت حول الأدب الشـعبى ، أبرزنا منها بصفة خاصة الآراء التى تعرضت للحكاية الخرافيـــة والحكاية الشعبية ، لأن الحكاية الشعبية تمثل معظم مادة بحثنـا هذا ، ولأن أثر الحكاية الخرافية كبير فى الحكاية الشعبية . .

* * *

والآن نود أن نتحدث عن طبيعة الأدب الشعبى ، ونعنى كيفية تأليفه وكيفية انتشاره ونموه . واذا تحدثنا عن طبيعة هذا الأدب فلابد أن نتحدث عن شعبيته . ومعنى شـــعبيته أنه ينتمى الى الشعب وحده بما له من تراث وتقاليد وعادات . هذا الشـــعب الذى يتكون من أفراد تربط بينهم ربطا قويا صفة الجماعيـــة

(١) انظر المرجع السابق ص ٥٦

يستقبل تراثه بما فيه من عادات وتقاليد وأغنيات ورقصات وقصص ، فيتسلمه كتلة واحدة ، ويحافظ عليه ، ويعمل على اضافة الجديد اليه مما قد يكون صدى للأحداث المعاصرة . وقد يكون لهذا التراث الشعبى أصله الفردى كما قد يكون له أصله الجماعى منذ البداية ، ولكن ذلك الأصل الفردى قد تتعلق به الجماعات ، ونتيجة لذلك يصبح شعبيا ، وما يلبث اسم المؤلف الأصلى أن يذوى ويصبح المحرك الأول لهذا التأليف هو الشعب . ومنذ اللحظة التى يوضع عليه فيها خاتم التأليف الشعبى يصبح هذا التأليف مقدسا لدى الشعب بالرغم من أصله الفردى . ومما يضفى على هذا النوع من النتاج مزيدا من صفة الشعبية أن تداوله على مر العصور يتم عن طريق ذاكرة الانسان والكلمة المنطوقة أكثر من تداوله عن طريق الكلمات المكتوبة . وقد يظهر هذا النتاج الشعبى فى صورة أدبية كالقصص ، أو يظهر فى صيغة لغوية كالأمثال والألغاز أو فى صورة علمية نسبيا كالسحر والتنبؤ ، أو قد يأخذ شكلا حركيا كالرقص . .

وتنقسم مجموعة الشعب التى تعيش على هذا النحو الجماعى ، فتستقبل تراثها وتحافظ عليه وتنميه فى الوقت الذى تستقبل فيه أحداث حياتها المعاصرة ـ تنقسم من حيث اشتراكها فى عملية الأدب الشعبى والنمو به الى ثلاثة أقسام . فهناك مستمع ، وهناك قاص ايجابى ثم هناك قاص سلبى . فالمستمع يتكون منه الجمهرة العظمى من الشعب ، وهم أولئك الذين يرغبون كل الرغبة فى الاستماع لهذا القصص ، فيلتفون حول القاص فى لهفة منصتين اليه مشجعين له . ثم هناك القاص الايجابى الذى يتمتع بموهبة الحفظ ثم بموهبة حكاية القصة فى حيوية وتلذذ . ثم هناك القاص السلبى وهو الذى يمتلك الذاكرة القوية ولكنه لا يفكر فى أن يكون دوره تسلية الآخرين . ولكل من هؤلاء دوره الطبيعى فى

المحافظة على التراث . فالمستمع الراغب هو الذى يدفع القاص لأن يحفظ وأن يكون ممتعا فى سرده للقصة والقاص الايجابى هو الذى يقوم بدوره الايجابى فى النقل والحكاية ، أما القاص السلبى فله دوره هو الآخر ، اذ منه يتخذ القاص الايجابى مساعدا له . فهو يذكره وهو يبدى رأيه (١)..

الشيء الآخر الذى يتصل بطبيعة هذا الأدب الشعبى – اذا استثنينا الحكاية المضحكة – تصويره لفكرة البطولة . وطبيعى أنه لابد لكل عمل فنى أدبى من بطل تتركز حوله الحركة والفكرة ، ولكن العمل الأدبى لا يتطلب دائما ذلك النوع من البطولة التى تتمثل فى المغامرة ومصادفة العقبات التى تحول دون الوصول الى الهدف ، وانما هو الأداة التى يمكن بها تشخيص الفكرة وتحديدها. أما البطل الشعبى فمهمته الكشف عن الطريق المؤدى الى النجاح وان كان وعرا . فى هذا الطريق تعترضه العقبات وتصادفه القوى الشريرة ، ولكنه – من جهة أخرى – تعاونه قوى خيرة على تحطيم تلك العقبات . فهو وحده ، وان كان يمثل القوة الانسانية الفذة ، لا يستطيع – وهو الانسان – أن يتخطى العقبات الا بمساعدة قوى أكبر تريد له الخير . ومثل هذا البطل يظهر بصور متعددة فى القصص الشعبى فى مجموعه . فهو شخص واقعى فى الحكاية الشعبية ، وهو مغامر خيالى فى الحكاية الخرافية والأسطورة .

وبعد هذا نتساءل : ما مصدر هذا الاحساس الشعبى بضرورة خلق تلك الصورة بوجه عام ونعنى صورة البطل ؟ لاشك أن المصدر الأول والأخير لفكرة البطولة يرجع الى اعجاب الشعب بفكرة البطل.

---

(١) أنظر : The Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend ; Funk and Wangnalls Company, New York — Vol. 1. p. 399.

فالحياة بجوانبها المختلفة لم تصل الى ما وصلت اليه الا بفضل عناصر بطولية تغلبت على الشر ، وتغلبت على عناصر الضعف والنقص حتى شارفت الكمال . ومن هنا كانت الأساطير مليئة بعناصر البطولة ، بطولة الآلهة الذين أخذوا يتصارعون حتى استقر الكون على ما هو عليه . ومن هنا كذلك نشأت فكرة الانسان الالهي ـ كما يقول « فريزر » ـ ذلك الذي يشارك الطبيعة روحها ، والذي يستطيع بما له من صفات بطولية وروحية أن يطوع الطبيعة وفق رغبته أو يشاركها قوتها . ان كيان هذا الانسان يتصل اتصالا وثيقا بايقاع الحياة وانسجامها حتى ان لمسة من يده أو ايماءة من راسه كفيلة بأن تحدث الخوارق . (١)

ومن هنا كذلك ظهر الانسان البطل الذي أراد بما له من صفات خارقة للعادة أن يستكشف سر هذا الكون ، سر حياة الانسان وموته ، ذلك اللغز الذي حير الانسان منذ قديم الزمان ومازال يحيره . عندئذ لم يجد ذلك البطل بدا من القيام برحلة شاقة عله يصل الى جواب شاف يقنعه . وقد صادف في طريقه حشدا من العقبات فذللها وتخطاها بجهد جهيد ، وكثيرا ما كانت الأرواح الطيبة تساعده في كفاحه هذا . وأخيرا وصل الى القوة الخفية التي يمكنها أن تجيب عن سؤاله ، لكن جوابها لم يشفه ما بنفسه ، بل زاده حيرة ، فرجع أخيرا من رحلته بلا شيء . هذا البطل هو بعينه « جلجامش » بطل الملحمة البابلية . (٢)

---

(١) انظر : J.G. Frazer : The Golden Bough ; London 1890, Vol. 1, p. 12.

(٢) أنظر هذه الملحمة Georg Buchhardt : Gilgamesch; Insel Bücherei Nr. 203.

ولقد صار الانسان فيما بعد أكثر واقعية فى تفكيره ؛ فأصبحت الحياة الدنيا تشغله عن الحياة الأخرى . على أن هذه الحياة الدنيا لها بدورها مشكلاتها التى يعجز الانسان عن حلها . ففى الحياة أغنياء وفقراء وفى الحياة ملوك وصعاليك ، وفى الحياة مصائر متفاوتة . ومن هنا أخذ رجل الشعب سيىء الحظ يسلى نفسه بقصص خرافية تحقق له بعض أحلامه ، فتصور الفقير وقد أصبح ملكا بفضل بطولته الفائقة ، وتصوره وقد أصبح ثريا يسبح فى بحر من المال ، ثم تصوره سعيدا تأتيه المقادير بما يداعب طموحه ..

ثم ان الحياة شغلت الشعب من جهة أخرى ، فقد وجد رجل الشعب أخاه الانسان فى صراع دائم مع أخيه الانسان ، اما دفاعا عن حق بقائه ، واما طمعا فيما لدى غيره . وجد القبائل يغير بعضها على بعض طمعا فيما لدى الآخرين من خير ، كما وجد الملوك يجدون فى التوسع وحيازة المزيد حتى يطير صيتهم فى الآفاق . ومن هنا تصور الشعب بطله مخلوقا غير عادى ، فأخذ يصنع حوله الأساطير ، وأخذ يصور حياته من يوم ولادته الى يوم وفاته تصويرا فيه من الخيال الشىء الكثير ، ثم أخذ كذلك يصنع حول شخصه الأناشيد والأغانى . وما لبث كل ذلك أن تجمع وكون قصصا وملاحم . وربما كان شخص هذا البطل غريبا عن هذا الشعب ؛ لم يعش حياته بين أبنائه ، ولم ير هذا الشعب عملا من أعماله ، ولكنه يكفى أن يكون قد سمع عن غرابة أعماله الشىء الكثير حتى يمجده كما لو كان قد عاش بين أبنائه . ومن هنا نشأت الأساطير والملاحم حول شخصية الاسكندر وشرلمان فى جهات كثيرة من العالم . ومن هنا كذلك عاش شعر البطولة والقصص البطولى بين جميع شعوب الأرض على وجه التقريب ، بل من هنا اختص الاغريق القدماء — فى تصنيفهم للبشر — هؤلاء الذين يعيشون

من اجل العمل والشرف ، بمكانة ممتـــازة . وعدوا هؤلاء الذين سماهم هوميروس بالأبطال جيلا خاصا يبحث عن الشرف ويستحق الشرف (١) ..

ولما كثر الانتاج الشعبى الذى يصور البطولة كثـــرت حوله الدراسات . وبعض هذه الدراسات يبحث فى ماهيـــــة العصر البطولى : فى طبيعته والدوافع الباعثة على نشأته (٢) . والبعض الآخر يدرس هذا العصر لا بوصفه حالة اجتماعية وظاهرة أدبيـــة فحسب وانما يدرسه بوصفه المرحلة الأولى الأساسية فى قصـــة التطور الأدبى (٣) ..

ولما كان هذا الأدب البطولى ظاهرة عامة عند جميع الشـــعوب فقد ظهرت حوله الدراسات المقارنة ، وانتهت تلك الدراسات الى أن هناك سمات عامة تطبع هذا الأدب بوجه عام . وأول سمة من سمات هذا الأدب أنه يتجه اتجاها موضوعيا . فالشاعر أو القاص يرتبط تفكيره بسيرة ابطال الرجال وأعمالهم العظيمة . حقيقة ان القاص يضيف الكثير من خياله ، لكنه انما يفعل ذلك خدمة لهـــذا الغرض . ثم ان هذا الأدب له طابع **درامى** . فهو يخلو من العنصر النقدى والتعليقى . ثم أن الراوى يحافظ على حيوية القصـــــة وموضوعيتها حتى أن جمهور المستمعين يستطيعون أن يرســـموا الحوادث فى مخيلتهم كما لو كانوا يرونها ممثلة أمامهم على المسرح .

---

(١) انظر : C.M. Bowra : Heroic Poetry; Macmillan, London 1952, p. 1.

(٢) انظر على سبيل المثال : Bowra فى كتابه السابق ، وكذلك Munro Chadwick فى كتابه : The Heroic Age; Cambridge 1921.

(٣) انظر فى ذلك : Chadwick فى كتابه The Growth of Literature باجزائه الثلاثة

ومن سمات هذا الأدب كذلك **الواقعية** . فالمؤلف يأخـــذ على عاتقه أن يلبس ما يحكيه ثوب الحقيقة . وقد تبدو بعض الأحداث التى يسردها غريبة ، ولهذا فانه يحاول أن يضفى عليهـــا طابع الصدق حتى تبدو موافقة لما يقع فى الحياة (١) ..

وطبيعى أن القصة وهى تحكى حياة البطل لا تنسى ان تصـور ضرورات تلك الحياة . فهى تحكى عن المعركة التى يخوضها ،وعن ســيفه وعن خيـــله وعن حيـــله المختلفـــة ، ثم عن صورة الاحتفـال المتعـددة التى تصطحب أعمــاله البطوليــة . هذه الأشياء يسردها القصص والشعر البطولى بصفة عامة ، سواءأكان شرقيا أم غربيا . انها أشياء ضرورية لا يمكن أن تستغنى عنهـــا القصة ، ولا يمكن أن يهملها القاص . وقد أطلق « بورا » علىهذه العملية المتكررة من جانب القاص ((**آلية السرد**)) (٢) ..

ولما كان هذا الفن الشعبى قد صنع ليروى ويسمع لا ليقرأ، فلا عجب أن يتفق أسلوبه كذلك فى السمات العامة ، كالتـكرار وذكر التشبيهات الكثيرة وطريقة تناول الموضوع . فمـــا دامت الحركة تتجدد حول البطل فلابد أن تتجدد بشىء من الاثارة حتى ينشط معها خيال السامع وانتباهه . فاما أن يقوم البطل عندئذ بمغامرات غريبة يقابل فيها الأهوال ، واما أن يحط طير لينقل نبأ تبدأ على أثره الحركة ، وأما أن يحلم أحد أفراد القصة حلما يفسره له الآخرون ثم لا تلبث حوادث هذا الحلم أن تتحقق . والقـــاص مغرم بالاكثار من عنصر الأحلام فى القصة ، اذ أن الأحلام تعرض حوادث غير مألوفة فى الحياة العادية ، وهى تخلق احساسابالمصير الذى سيلقاه البطل أو الأبطال ..

---

(١) Bowra : I bid., pp. 30-31.

(٢) Bowra : I bid., p. 150.

هذه هى المميزات العامة لأدب البطولة الشعبى ممثلا فى الشعر والقصص البطولى الذى ظهر عند جميع الشعوب على وجه التقريب ..

ولقد كان لهذا الأدب البطولى عصر ازدهار واضمحلال . فبدأ ظهوره منذ العصور القديمة حينما ألف هوميروس ملحمتيه فى البطولة . الالياذة والأودسة ؛ ثم كان عصر ازدهاره فى العصور الوسطى حينما اخذ كل شعب يدون تراثه مسجلا لبطولة أفراده. وكان أشهر ما ظهر من ذلك ملحمة « بيولف Bewolf » الانجليزية ؛ وملحمة « نيبلنجنليد Nieblungenlied » الألمانية. كما ظهر تراث كبير للشرق الأقصى لا يهمنا الآن ذكره ..

وفى هذه العصور كذلك كانت الدولة العربية والدولة البيزنطية ـ وهما الدولتان اللتان كانتا تجلسان على عرش التاريخ فى ذلك الوقت ـ كانتا تسجلان تراثهما وبطولة أبطالهما فى أدبهما البطولى ..

***

ما تراث العرب من الآداب الشعبية بوجه عام والأدب البطولى بوجه خاص ؟ ليست ثروة العرب من هذا التراث بالقليلة ، فلهم من الأنواع الشعبية ـ وأعنى بذلك القصص الخرافى والقصص الشعبى والقصص والشعر البطولى ـ لهم من ذلك ثروة طائلة ..

واذا ذكرنا ثروة العرب من القصص الخرافى فاننا نقصد بذلك « ألف ليلة وليلة » . ومنذ زمن طويل كتبت الأبحاث الضافية عن هذا القصص (١) ، عن مصدره وعن فنيته وعن فضل العرب

---

(١) يقرأ فى ذلك :الفصول الأولى من كتاب الأستاذة الدكتورة « سهير القلماوى » عن ألف ليلة وليلة ، فقد أوردت فيه كل ما قيل بهذا الصدد ..

فى هذا المجال الخيالى الرائع . وليست مهمتنا هنا أن نعـــرض هذه الأبحاث وما تضمنت من آراء ، وانما يكفى أن نورد رأى كاتب محدث متخصص فى دراسة الآداب الشعبية العالمية بشأن مقدرة العرب فى هذا المجال الأدبى ، وبشأن الدور الذى ســـجله لهم هذا القصص . يقول الكاتب بعد عرض سريع لمحتوى هذاالقصص: « كلما توغل الانسان فى قراءة ألف ليلة وليلة كان أكثر تنسمالعبير الروح العربى . فالروح العربى فى جملته يأسرنا ويجعلنانستسلم له ويرغمنا على الا تقنـــع بغيره » (١) . وبعـــد أن يسلم الـكاتب بالأصل الهندى لهذا القصص يبين كيف كان أثر العرب كبيرا فى هذا القصص الى درجة اختفى معها الروح الدينى الهندى اطلاقا وحل محله الروح الاسلامى . يقول الكاتب* : « لقد كان العـــرب أصدقاء للقصص الشعبى أكثر منهم مبتكرين له . فهم لم يكونوا خالقين له بالمعنى الذى نجده عند الهنود ، وانما كانوا فى مقابل ذلك مستقبلين للأدب الشعبى بطريقة تثير الدهشة ، فمقـــدرتهم على الملاحظة وعلى التصوير جعلت منهم رواة للقصص الشـــعبى لا مثيل لهم . هذه حقيقة لا جدال فيها . فتصـــــوير قوة الملوك والوزراء وتصوير البهاء والروعة والغنى والعرش ثم تصوير معارك الحروب وجمال النساء والأعياد والمناســــبات كل ذلك يتسم بسمات محددة . القصص الهندى يحكى ويبالغ ، أما القصـــص العربى فيرسم ويصور . وكأنما يشبه القصص الهنـــــدى مكانا مزدحما يخلو من الضوء والهواء ، نكاد نختنق فى زحمة هـــــذه الأشياء المختلفة ، فى حين يعرض القصص العربى كمـــا لو كان

---

(١) Friedrick von den Leyen : Das Märchen ; S. 154-5.

ازاهير حية ، يقف بعضها فى خفة الى جانب بعض . حقا لقد صعد العرب فى فنهم القصصى الى ذروة فريدة » (١) ..

هذا رأى واحد من الباحثين اقتصرنا عليه لأنه ـ مع تسليمه بالأصل الهندى لقصص ألف ليلة وليلة ـ لم يغمط العرب حقهم فى هذا الفن ..

فاذا تركنا القصص الخرافى الى القصص الشعبى وجدنا للعرب محصولا وافرا لا يمارى احد فى أصالته العربية . ويكفى أن نطلع على أسماء القصص الشعبية التى ترد فى ثنايا الكتب حتى ندرك وفرة هذا المحصول ، فكتاب الفهرست يفرد لذلك صفحات تحت عنوان : « أخبار المسامرين والمخرفين وأسماء الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات » (٢) . وقد حقق المستشرقون بعض هذا القصص . من ذلك ما صنعه الأستاذ «هانزفير» فى كتابه « الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة » (٣)، وما صنعه الأستاذ « ليتمان » فى نقله لبعض التراث الشعبى العربى الحديث من أفواه الشعب ، وذلك فى أثناء رحلاته فى الشرق الأدنى كما يصرح هو بذلك (٤). لقد نشر هذا القصص بعد

---

(١) Von den Leyen : Loc. cit.

(٢) ابن النديم : الفهرست ـ ط الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ ـ ص ٤٢٢ ..

(٣) Bibliotheca Islamica ; (Herausgegeben von Helmut Ritter).

أنظر الجزء الثامن عشر ، نشره الأستاذ « هانزفير » تحت عنوان : الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة »

(Franz Sterner Verlag. G. M.B. M. Wiesbaden, 1956).

(٤) Enno Litmann : Arabische Beduinenerzählungen ; Müller und Kiepenheur, Verlag 1957, S. 46.

ترجمته الى الألمانية معلقا عليه في دراسة قصيرة مبينا فيها كيف ان المقدرة الخلاقة عند العرب قد تضاءلت وان كان وجودها مايزال يسجل ظاهرة القصص الشعبى بوضوح عندهم ، فى حين تكاد تلك الظاهرة تختفى لدى كثير من الأمم . لقد تحلل التاريخ على السنة الشعب كما يقول الكاتب ، بعد أن فقد رهبته القديمة ، ومع ذلك فان أثره وأثر الحياة البدوية هما العامل المباشر فى تأليف هذا القصص (١) ..

وكما أغرى القصص الخرافى المتشابه الباحثين بدراسته دراسة مقارنة ، كذلك كان التشابه بين بعض القصص الشعبى العربى وبعض القصص الأوربى حافزا على ظهور دراسة مقارنة فى هذا المجال . هذا القصص الشعبى غالبا ما يكون أساسه الواقع . وكتاب الأغانى ملىء بهذا القصص . ويهمنا الآن أن نذكر قصتين مصدرهما الواقع ، كان لغرابتهما أن تداولتا على الألسن وانتشرتا عن طريق العرب الذين رحلوا الى أسبانيا . ومن هناك كان لهما تأثيرهما فى بعض القصص الأوربى فى العصر الوسيط .

والقصة الأولى هى قصة عروة بن حزام مع حبيبته عفراء . وخطوط القصة الرئيسية تتلخص فميا يأتى : حب عروة لابنة عمه عفراء . رفض أمها على الأغلب لزواجه منها نظرا لفقره . وعد عمه له بأن يزوجه منها اذا قدم لها مهرا معينا . رحيل عروة للحصول على المال . رجوعه فرحا بما حصل عليه من ثروة . زواج عفراء فى غيابه ورحيلها الى الشام مع زوجها . رحيل عروة وراءها واخفاء شخصيته عن زوجها . استعانته بخادمة عفراء على تعريفها بوجوده باعطائها خاتمه كيما تضعه فى وعاء اللبن الذى تقدمه

(١) Enno Littmann: Arabische Märchen; (aus mündlicher überlieferung; gesammelt und übertragen — Insel Verlag 1957) S. 420-421.

لعفراء . اجتماع الحبيبين وتكشف الحقيقة للزوج . خروج عروة هائما على وجهه ووفاته بسبب حزنه . وصول الأخبار الى عفراء ووفاتها بعده بأيام (١) ..

وقد أشار الاستاذ « سنجر » الى أن هذه القصة تعد مصدرا لقصة فرنسية نشأت فى العصور الوسطى هى قصة Floire et Blanchefleur ، اذ لاحظ أن الخطوط الكبرى الأساسية فى هذه القصة انها هى خطوط قصة عروة وعفراء . ويتضح هذا بخاصة فى بعض الملامح المعينة من استعمال الخاتم وسيلة لتعرف الحبيبين احدهما على الآخر . وأما المكان الذى لعبت فيه القصة الفرنسية دورها فهو اسبانيا وبابليون بدلا من البادية والشام (٢) ..

اما القصة الثانية فهى قصة لبنى وقيس بن ذريح. وتتلخص حوادثها الرئيسية فيما يأتى : حب قيس للبنى وزواجه منها . تطليقه لها تحت ضغط والديه. ازدياد حبه لها بعد ذلك وندمه على فعلته . عزمه على الزواج مرة أخرى من فتاة جميلة يتبين له فيما بعد أنها تدعى لبنى كذلك . اثارة الاسم لذكرياته مما يكدر حياته مع زوجته الثانية . غضب أهل الزوجة ومحاولتهم الكيد له لولا أنه يموت متأثرا بحزنه . وصول الخبر الى لبنى ووفاتها من بعده (٣) ..

---

(١) أنظر القصة فى الأغانى جـ ٢٠ ص ١٥٢ (ط القاهرة ١٢٨٥ هـ) ..

(٢) Singer : Arabische und Europaische Poesie im Mittelalter ; (والمقال منشور فى مجلة Abhandlung der Preussische Akademie der Wissenschaften — Jahrgang 1918, Philosophische Historische Klasse Berlin) Insel Verlag — S. 4-6.

(٣) أنظر القصة فى الأغانى جـ ١٨ ص ١٢٤ (ط القاهرة ١٢٨٥ هـ) ..

هذه القصة كان لها تأثيرها فى قصة « تريستان وايزولدة » كما يقول الأستاذ « سنجر » اذ أن حوادث القصة الثانية ليست الا تكرارا لحوادث القصة الأولى . ويمكن اجمال حوادث قصة تريستان وايزولدة فيما يلى : نشأة الحب العنيف بين تريستان وايزولدة . اضطرارهما للانفصال أحدهما عن الآخر . سفر تريستان الى انجلترا . صداقته لابن الملك الذى عرفه باخته وتدعى ايزولدة كذلك . اثارة الاسم لذكرياته عند سماعه له . رغبة الأخ فى تزويجه من أخته . زواجه منها وجفوته لها منذ يوم العرس . تهديد الأخ له . زفاف ايزولدة الأولى الى الملك وعلم تريستان بذلك . مقابلته لها سرا وافتضاح أمره . محاولة الملك قتله . سهر ايزولدة على جراحه . وفاته ووفاتها بجانبه (١) ..

***

واذا كانت ظاهرتا القصص الخرافى والقصص الشعبى لا ترتبطان بحوادث فاصلة فى كيان المجتمع فان القصص البطولى يرتبط وجوده بهذه الحوادث كل الارتباط . ولذلك فقد ظهرت للعرب ثروة طائلة من قصص البطولة مبعثها ظهور الاسلام . وظهور الاسلام يعد أحد الحوادث العالمية الكبرى التى فجرت عصر البطولة وأدب البطولة (٢) ..

---

(١) Singer : Ibid., S. 9-10.

(٢) يرى الأستاذ « شادفك » فى كتابه « عصر البطولة The Heroic Age » أن الحركات التاريخية الكبرى التى فجرت أدب البطولة تنحصر فى أربع حركات : حركة ظهور الاسلام وانتشاره ، وحركة انتشار المسيحية التى كانت سببا قويا فى احياء التراث الملحمى الوثنى فى طابع مسيحى جديد ، ومن أمثلة ذلك ملحمة « بيولف Beowolf » ، ثم حركة « الويلز » ومن أشهر ملاحمهم ملحمة الملك آرثر ، ثم حركة الغاليين ، وهم سكان فرنسا قديما ، وقد كانت لهم ثروة كبيرة من أدب البطولة ضاع أغلبه .

(أنظر هذا الكتاب ص ٢٩ ، ١٠٦ ، ٤٢٧) .

لقد كان الباعث الأول على ظهور أدب البطولة العربى اذن هو الاسلام . اما البواعث الأخرى فقد تفرعت أو تشعبت عن ذلك . لقد صارع الاسلام الوثنية وصارع المسيحية زمنا طويلا . وظهر فى اثناء هذا الصراع أبطال مسلمون لولا أن التـــاريخ ســـجل أسماءهم لحسبهم الانسان من الشخصيات الخيالية التى نكثـــر فى القصص الخرافية والأساطير . ويكفى ان نقـرأ فى كتـــاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ بضع صفحات حتى نطلع على بعض صور البطولة الاسلامية ضد المسيحية (١) . يحكى أسامة قصـــة تحت عنوان : « صور من فروسية العرب » يقــــول : كان فى أصحابنا من بنى كنانة رجل اسود يقال له على بن فرج ، طلعت عليه حية فتخبثت وتناثرت أصابعه وانتنت رجله ، فقـــــال له الجرائحى : ما لرجلك الا القطع والا تلفت . فحصل عنده منشارا وجعل ينشر ساقه حتى يغلبه فيض الدم ويغشى عليه . فاذا هو أفاق عاد الى نشرها حتى قطعها من نصف ساقه . وكان رحمـــة الله من أجلد الرجال وأقواهم ، فكان يركب فى سرجه بركاب واحد وفى الجانب الآخر سيرتكون فيه ركبته . ويحضر القتال ويطاعن الافرنج وهو على تلك الحال . وكنت أراه رحمه الله لا يســـتطيع رجل أن يشابكه ولا يقابضه (٢) .. »

---

(١) كتاب الاعتبار يعد أحد المراجع الفريدة فى نوعها التى تصور علاقة الاسلام بالمسيحية فى فترة تاريخية معينة ، اذ أنه يتضمن مذكرات بطل عربى عـــاش فترة الصراع الاسلامى المسيحى بين ٤٨٨ هـ وهى السنة التى ولد أسامة و ٥٨٤ هـ وهى السنة التى توفى فيها . وأسامة يمثل أوج الفروسية العربية كما يقول الأســتاذ فيليب حتى . أنظر له :

An Arab Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades. Columbia Univ. Press 1929, pp. 3-16.

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، مطبعة جامعة برنستون ١٩٣٠ ، ص ١٤٦ ..

ولم ينس اسامة أن يحكى عن دور النساء فى القتـال ، ذلك الدور الذى لم يكن يقل عن دور الرجال فى شىء . قال : «يحكى عن فارس إنه أراد الهروب من معركة ، واذا هو كذلك واذ بانسان قد دخل الدار وعليه زردية وخوذة ومعه سيف وترس . فلمـا رآه أيقن بالموت . فوضع الخوذة فاذا هى أم ابن عمه ليث الدولة يحيى ، فقالت له : أى شىء تريد تعمل ؟ قال : آخذ ما قـدرت عليه وانزل من الحصن بحبل واعيش فى الدنيا . قالت : بئس ما تفعل . تخلى بنات عمك وأهلك للخلاجين وتروح ؟ أى عيش يكون عيشك اذا افتضحت فى أهلك وانهـزمت عنهم ؟ أخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم ، فعل الله بك وفعل . منعته رحمها الله من الهرب فكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك » (١) .

ويحكى أسامة كذلك عن شجاعة المرأة فيقـول : « كل ذلك — (أى القتال) — وأمة عجوز يقال لها بريكة ، مملوكة لرجل كردى من أصحابنا يقال له على بن محبوب ، واقفة بين الخيل على شط النهر فى يدها شربة تستقى بها وتسقى الناس . وأكثر أصحابنا الذين كانوا على الشرف ، لمـا رأوا الافرنج مقبلين فى ذلك الجمع اندفعوا نحو المدينة وتلك الشيطانة واقفة لا يروعهـا ذلك الأمر العظيم » (٢) ..

وفى أثناء هذا الصراع الاسلامى المسيحى الطويل ظهر نظـام جماعى كان له دور كبير فى هذه الحروب . ونتيجة لذلك كان أثره واضحا فى القصص ، بل لا نبالغ اذا قلنا أنه كان مركز انطـلاق القصص البطولى . فقد حدث أن كان الفتيـان والرجال يجتمع بعضهم ببعض مطالبين بحقهم فى الجهاد .. الجهـاد فى سبيل

---

(١) الاعتبار ص ١٢٥ ..

(٢) الاعتبار ص ١٢٢ ..

الله ونصرة دينه . وكان هؤلاء يجتمعون فى طوائف على الحـدود دفاعا عن الاسلام ، فيكونون رابطة فيما بينهم ويعينون لهم رئيسا يأتمرون بأوامره بعيدا عن الحاكم الرئيسى . وقد سمى المـكان الذى كانوا يجتمعون فيه بالرباط(١). وقد كان أهم الأربطة ثلاثة : الأول فى منطقة الأردن . وكانت مهمة المرابطين هناك محـاولة الأتراك الوثنيين الذين كانوا يسكنون آسيا الصغرى . والثـانى كان فى منطقة سوريا والجزيرة لمحاربة البيزنطيين . والثـالث كان فى اسبانيا لمحاربة المسيحيين الغربيين (٢) . وقد اسـتلزم الدفاع الدينى الذى ارتكز عليه هذا الجهاد أن يكـون الرباط مركز قوة للحياة الدينية الى حد أن سماه البعض اديرة المسلمين على سبيل المجاز . فالمحاربون هناك قد وهبوا أنفسهم واموالهم فى سبيل الله وهجروا بلادهم واستقروا هناك رغبة فى رضـاء الله وطمعا فى ثوابه (٣) ..

وقد كان لدى البيزنطيين ما يماثل تلك الأربطة وكانت اربطتهم تقع فى البلدان القريبة من البحر أو فى الجزر ، وكان يسـكنها الرهبان عادة . ويتساءل المؤرخون ــ فيما يختص بهؤلاء الرهبان ــ عما اذا كانوا قد قاموا بدور فى الحروب ضد العرب . على أنه

---

(١) انظر : Franz Taeschner : Das Futuwwa — Rittertum des Islamischen Mittelalters ; (Beitraze Kur Arabistik, Semitistik und Islamwissenschaft. Herausgegeben von Richard Hartmann und Helmuth Scheel.) S. 347.

والاستاذ « تشنر » قد خصص كل أبحاثه لدراسة الفتوة عند العرب .

وانظر كذلك : المسالك والممالك لابن حوقل (ط ٢ ليدن سنة ١٩٣٨) ج ١ ص ٧٢، ٨١ ..

(٢) Taeschner : Das Futuwwa ; FS 347.

(٣) انظر مادة رباط فى دائرة المعارف الاسلامية : Encyclopaedie des Islam ; Band 8, S. 1242.

اذا كانت المصادر قد عجزت عن أن تمدهم بالجواب القاطع فان القصص الشعبى الذى كان القتال الاسلامى المسيحى محوره قد رسم صورة واضحة للدور الذى قام به كل من الطرفين .وسوف يتضح ذلك فى سياق البحث ..

لقد كانت هذه الأربطة تقوم بدور كبير فى الحروب .ولانبالغ اذا قلنا أن دورها كان يفوق دور جيش الدولة الرئيسى الذى كان يأتمر بأمر الخليفة . ومن أجل ذلك ، وبعد أن فرض هذا النظام نفسه على الدولة ، صرفت الحكومة جزءا كبيرا من عنايتها الى هذه الأربطة وزودتها بأجهزة تعين على استكشاف الخطر ، كاقتراب سفن العدو أو أسر بعض المسلمين (١) ..

هذه العوامل التى ذكرناها هى التى فجرت أدب البطولة عند العرب . فاذا علمنا أن تراث العرب من الأخبار المتواترة سواءتلك التى سجلتها الكتب أو تلك التى ظلت تتداولها الألسن شفاها ـ اذا علمنا أن هذا التراث كان يعيش بين أفراد الشعب كنزا ثمينا يحتفظون به ويحفظونه ، استطعنا أن ندرك أن العوامل كلها كانت حافزا للعرب على تسجيل تراثهم التاريخى والشعبى فى قصصهم البطولى . صحيح أن العرب لم يقوموا بمحاولة تسجيل تراثهم دفعة واحدة فى ملحمة واحدة ، ولكن لاشك أن الشعب قدسجل تراثه الأدبى البطولى فى أزمان متطاولة . وكان هذا الأدب يمرفى مرحلة بعد أخرى من النمو والتطور . ولقد قامت محاولات كثيرة هامة لدراسة هذا الأدب ، لكن هذه المحاولات تناولت بالدراسةكل قصة من قصص هذا الأدب على حدة دون اهتمام بتبين الصلات التى تربط قصص هذا الأدب فى وحدة فنية وشعورية متكاملة .

---

(١) Encyclopaedie des Islam ; Band 8, S. 1243.

لقد ادرك الدكتور « باريت » قيام صلة متينة بين قصص الأدب الشعبى العربى بعد أن تمت دراسة الكثير من هذه القصص فقال : « ان بعض المشكلات التى يكتنفها الغموض فى بعض القصص قد تجد حلا واضحا لها فى البعض الآخر . واهم من هذا كله آن دراسة مادة الأدب الشعبى فى مجموعه ستقربنا من الهدف الذى لا يعد بحثنا هذا الا عملا ممهدا للوصول اليه — هذا الهدف هوأن نكشف عن روح الحياة الاسلامية العربية ، وأن نحاول تفهمها » (١) ..

فمثل هذه الدراسة المتكاملة هامة ومجدية ، اذ أن الأضواء ستلقى على مساحة شاسعة من الأدب الشعبى العربى فى مجموعه . ومن هنا تتضح لنا صورته واصل نشأته ومغزاه . وحينئذ تظهر لنا محاولات العرب لتسجيل تراثهم وأحداث حياتهم وقد أحرزت أكبر قدر من النجاح . واذا تمت تلك الدراسة المتكاملة كانت عاملا يستطيع الصمود فى وجه تلك الحملة التى وجهها الأستاذ « ليتمان » ضد العرب من أنهم « لا يمتلكون ملحمة وطنية ، لأن اللون الذاتى الذى هو طابع شعر هذا القصص (ويعنى القصص الشعبى البطولى) — ذلك الشعر الذى يعد بداية أو مقدمة لعرض ملحمى — كان كثيرا ما يجعل هذا الشعر محتفظا بمظهر غنائى » (٢) ..

***

---

(١) Rudi Paret : Sirat Saif ibn Dhi Jazan ; (Orient Buchhandlung Heinz Lafair 1924) S. 93.

(٢) Inno Litmann : Tausendundeine Nacht inder arabischen Literature ; (Philosophie und Geschichte, Tülbingen 1923, S. 25.

وبعد هذه الجولة السريعة فى النتاج الشعبى بصفة عامة وفى القصص البطولى بصفة خاصة نتجه الى دراسة موضوع محـــدد من موضوعات الأدب الشعبى البطولى عنـد العرب وهو موضوع الصراع الاسلامى المسيحى فىالشرق الى ماقبل الحروب الصليبية لقد كان هـذا القصص معرضا عاما التقت فيـه عناصر كثيرة كما ذكرنا : التقت فيـه أخبار العـرب الخاصة بهم وأحداث حياتهم الكبرى ، والتقى فيـه الخيال بالواقع ، بل ربما اثر فيه القصص الخرافى كقصص الف ليلة وليلة ، وان كان هذا التأثير سطحيا . كل ذلك امتزج فيـه ، فاذا بالقصة ــ رغم هـذه العناصر الكثيرة المختلفة ــ بنية فنية متماسكة تستهدف هدفا مشتركا هو تصوير الفروسية العربية فى صراعها ضد المسيحية ..

واذا أردنا أن نرتب هذا القصص ترتيبا تاريخيا حسب الأزمنة التى الف فيها وجدنا ذلك من الصعوبة بمكان . فالفـروض التى تتصل بتأريخ هذا الأدب كثيرة ، ولذلك نمضى فى دراستنا لهـذا القصص حسب الحوادث التاريخية التى صورها لا حسب تاريخ ظهور القصص ذاتها . وهـــذا لا يعنى أن القصـة التى تعرضت لحوادث متقدمة فى التاريخ قـد رويت فى زمن متقـدم ، وأن القصة التى تعرضت لحوادث متأخرة قد رويت في زمن متأخر ، فربما استهوت خيال الشاعر حادثة قديمة العهد فأراد أن ينشىء قصته حولها . ومن أجل ذلك سنهتم بالقصص التى ندرسها من وجهة النظر الموضوعية ، وان كنا لن نهمل التعرض ما اســتطعنا لمشـكلاتها التاريخية ..

الباب الأول

سيرة الأميرة ذات الهمّة

الفصل الأول

ملخص السيرة

افى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ذاع صيت الحارث الكلابى بوصفه زعيما لأسرة بنى كلاب ، كما ذاع صيت مروان بن الهيثم بوصفه زعيما لأسرة بنى سليم . ولما مات الحارث فرح العرب بموته لأنه كثيرا ما كان يزعجها بغاراته . أما زوجته التى كانت على وشك ولادة طفلها ، فقد قررت أن تهرب خوفا من أن ينتقم أعداء زوجها منها او من طفلها . فخرجت تحت جنح الليل مصطحبة معها خادمها سلام الذى كانت تثق فى اخلاصه وأمانته . ولكن ما ان خلا بهما الطريق حتى أراد بها الخادم سوءا فدافعت المراةعن نفسها دفاعا ادى الى ولادة طفلها والى وفاتها فى الوقت نفسه . وقبل أن تلفظ انفاسها الأخيرة ، طلبت من خادمها أن يرعى طفلها وأن يعلق فى صدره تميمة أعطتها اياه . وأما الخادم فقد ولى وحده هاربا حينما راى الأم مضرجة فى دمائها وبجانبها طفلها يصرخ ..

وفى هذا الوقت خرج الأمير دارم يطلب الفرجة لنفسه من هم يقلقه . وقاده الطريق الى المراة المضرجة فى دمائها وبجانبها طفلها يصرخ، فأشفق على الطفل وأخذه ليربيه عوضا عن ابنه الذي كان

قد توفي منـــذ زمن قريب ، واطلق عليه اسم ابنه وهو جندبة .
وسرعان ما شب جندبة عن الطوق وظهرت عليه امارات البطولة
التى ورثها عن ابيه ، الأمر الذى أثار القلق فى نفس الأمير درام ،
اذ خشى أن يبزه . فلم يستطع بعد ذلك أن يكتمه العـــداء . ولما
اتسعت هوة الخلاف بينهما ، اطلع الأمير دارم جندبة على حقيقة
نســبه ، تلك التى كان قد عرفها من قبل عن طـريق التميمة التى
وجدها معلقة بصدر جندبة وهو طفل . وسعد جندبة لسماع هذا
الخبر ، وهب من فوره ليرحل الى قومه بنى كلاب حتى يقف بينهم
بطلا محاربا بين صفوفهم . وكانت مهمة جندبة تنحصر فى الدفاع
عن قبيلته ضد القبائل المعادية لها وبخاصة قبيلة بنى سليم التى
كانت تسعى الى تصدر الزعامة بين القبائل العربية بدلا من أسرة
بنى كلاب . ولكن الأيام لم تمهل جندبة فى تحقيق آماله فى عالم
البطولة ، فتوفى تاركا أخاه عطافا ليقوم بدوره فى زعامة قبيلته .
ولم يمض على وفاة جندبة وقت طويل حتى ولدت له زوجته ولدا
سمى الصحصاح. وفى الوقت نفسه ولدت لعطاف ابنة سماها ليلى.
وتربى الصحصاح وليلى فى بيت واحد. فلما كبرا وقد احب كل منهما
الآخر. تقدم الصحصاح الى عمه عطاف طالبا منه أن يزوجه ابنته. ولكن
عطافا الذى كان يكن الكره للصحصاح ، وضع العقبات فى سبيل
اتمام هذا الزواج ، فلم يكن يتحتم على الصحصاح أن يقدم مهرا
بالفا فحسب، وانما تحتم عليه كذلك أن يحضر له مزنة فرسة أخيه
جندبة المشهورة والتى كان الغطريف الجبار أخذها منه عنوة بعـد
أن قتل جندبة غدرا . ولم يضعف هذا من عزم الصحصاح ، فقرر
القيام بمغامرات بطولية فى سبيل تحقيق تلك التبعات الشاقة .
فخلص مزنة وغنم أموالا طائلة . ولم يتسبب فى تأخيره عن الرجوع
الى ليلى ســوى ما كان يفرضه عليه الواجب من القيام بأعمـال

انســانية ، فمن ذلك ما بلغه ــ في أثناء مغامراته ــ من أن مروة ابنة الخليفة يحدق بها الخطر من جراء هجوم الأعراب عليها وهى فىطريقها الى بيتها بعــد تأدية فريضة الحج . وسرعان ما نسى الصحصاح اغراضه الشــخصية وأسرع الى انقــاذ مروة . فلما نصحه عبده نجاح بألا يقدم على ذلك خوفا عليه قال له : « لقــد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف واغاثة الملهوف ولابد أن القى روحى على هذه الكتيبة وأكشف ان شاء الله هذه المصيبة» (١) . فلما ألح العبد نجاح فى قوله أنبه الصحصاح وقالله : «ياابن اللئام ما يقعد عن نصرة الحريم الا كل لئيم ثم صاح من أم رأسه : يا أنذال البادية والطاغية العادية ، أقســم بمن جعل البيت الحرام حمى للناس ، وأمنا من الباس ، وأوضح منهجه وأفرض حجه ، لئن لم تخلو عن الحــريم وما معهم من المــال لأجعلن رقابكم بلا معاصم ، وأجسامكم بلا جماجم » . ثم خلص مروة من مأزقها واصطحبها الى بيت والدها حتى لا تتعرض لخطــر آخر . وشــكر الخليفة للصحصاح مروءته وطلب منه أن يفصح عن رغبته . ولما لم يكن للصحصاح من رغبة أخرى سوى أن يجعل الخليفة الزعامة لبنى كلاب على ســائر القبائل الأخرى ، فقــد حقق له الخليفة هــذه الرغبة عن طيب خاطر (٢) .

ثم استعد الصحصاح للرحيل الى ليلى محملا بالهدايا من قبل الخليفة . ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى استوقفه الخليفــة وطلب منه أن يصطحب أخاه مسلمة بن عبد الملك قائد الجيش العربى ، فى معاركه ضد الروم . ونفذ الصحصاح ما أمر به واســـتطاع

---

(١) سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب (ط . عبد الحميد حنفي) جـ ٢ ص ٣٢ .

(٢) السيرة جـ ٢ ص ٣٢ ، ٣٣

بمصاحبة مسلمة أن يقضي على جيش الروم بقيادة مقـــلاعوس ،
وامانوس عند ديار بكر . وسعد الخليفة بهذه الانبـاء ، الأمر الذى
دفعه الى أن يأمر مسلمة والصحصاح باسـتئناف السـير الى
القسطنطينية والعمل على اسقاطها فى أيدى المسلمين . ولـكن
المدينة الحصينة لم تسقط بل وقفت صامدة فى اصرار . ولما طال
زمن حصار المسلمين لها ، ابتنى المسلمون مدينة مواجهة لهـا
واطلقوا عليها اسم المستجدة . ولما بلغ الضيق من الروم مبلغـه
نتيجة هذا الحصار ، فقد قرروا أن يستخدموا الحيلة التى ربمـا
ارغمت المسلمين على الرجوع . فقد اقترح احد أبطالهم وكان داهية
أن يوضع فى صندوق مقفل تحمـله قافلة من الروم تتزيى بزى
الاعراب ، وتسير به حتى تصل الى جيش المسلمين . وهناك تدعى
القافلة أنها عثرت على هذا الرجل المسكين تعذبه جموع الرهبـان
لأنه يعترف بدين محمد . فاختطفته سرا ووضعته فى هذا الصندوق
حتى لا يكتشف أمره (١) . وتمت الحيلة على المسلمين . ولما ركنوا
الى الرجل الداهية ، أعمل هو ورجاله القتل فى جيش المسلمين .
ومع ذلك فقد ظل الجيش الاسلامى مستقرا فى مدينة المستجدة
حتى وقع الملك ليون مع الخليفة اتفاقية الهدنة بوقف القتال ..

فى هذه الأثناء كان الصحصاح قد تزوج بليلى وأنجب منهـا
ولدين . وقبل ولادتهما رأى فى منامه أنه سيرزق بولدين أحدهما
وراء الآخر ، وأن الابن الأكبر سوف يوقع الظلم بأخيه الأصغر .
فلما ولد له الولدان سمم الأكبر وفقا للنبوءة ظالما والآخر مظلوما .
وتحققت النبوءة بالفعل ، ووقع الابن الأصغر تحت وطأة ظلم أخيه
حتى اضطر مظلوم أن يلجأ الى قبيلته لتحكم بينه وبين أخيـه .

---

(١) جـ ٤ ص ٣٤ ، ٣٥

وحكمت القبيلة بأن تكون الزعامة قسما بين الابنين وبين أبنائهما من بعدهما ان كانا ذكرين (١) .

وولد لظالم ولد سماه الحارث . أما مظلوم فقد رزق بابنة سماها فاطمة . ولما خشى مظلوم من شماتة اخيه الذى ناصرته الظروف فى ظلمه ، قرر أن يخفى ابنته لدى مرضعة تقوم بتربيتها. وسرعان ما كبرت فاطمة وظهرت عليها امارات البطولة النادرة الى درجة أن اطلق الناس عليها لقب ذات الهمة . ثم مرت الأحداث(٢) وبلغ الى علم ذات الهمة حقيقة نسبها . فعزمت على أن تنتقم من عمها ظالم الذى كان سببا فى ابعادها عن قبيلتها . فلما شاء ابن عمها الحارث بن ظالم أن يتزوج بها ، اذ كان يحبها حقا ، وجدت ذات الهمة ذلك فرصة سانحة لكى تنتقم منه ومن أبيه معا. فأعلنت رفضها الزواج من ابن عمها ، بل انها أعلنت أنها لن تتزوج قط حتى لا يطمع فيها رجل آخر . ولكن الحارث الذى كان قد اشتد به الوجد ، استطاع بمعاونة أفراد قبيلته أن يعقد قرانه على ذات الهمة . ومع ذلك فقد عزمت ذات الهمة الا تهيىء له فرصة الدخول بها . فاضطر الحارث ازاء هذا الاصرار أن يدبر خدعة تمكنه من الدخول بها ، فقد تمكن من أن يسقيها البنج وأن يدخل بها بعد أن أفقدها وعيها . على أن هذا لم يقلع ذات الهمة عن عزمها وهو رفض عشرة ابن عمها . وعلى الرغم من أنها كانت قد حملت منه ، الا أن هذا لم يتمثل لها عائقا فى سبيل هجره . فانتظرت حتى ولدت ابنها عبد الوهاب واستعدت لأن تنزح به الى منطقة الثغور حيث كان الجهاد على أشده بين العرب والروم . على أن ابن عمها لم يتركها ترحل دون أن يصوب اليها آخر سهم من سهامه ؛ فقد

---

(١) جـ ص ٧ ، ١١

(٢) السيرة : الجزء السادس

أشاع أن الولد الذى ولدته ذات الهمة لا ينتسب اليه ، واستند فى ذلك الى أن لون الطفل كان أسود مخالفا فى ذلك لون أمه ولون ابيه . عندئذ أرجأت ذات الهمة سفرها حتى تدفع عن نفسها هذه التهمة . وقد تكبدت ذات الهمة فى سبيل ذلك أقسى المشقات ، اذ لعبت النوازع البشرية فى ذلك دورا كبيرا ؛ فمن راغب فى الزواج منها ويود لو طلقت ولذلك فهو يسعى فى تبرئتها . وآخر يقبل الرشوة من الحارث ويسعى الى ادانتها ومع ذلك فقد انتصر الحق عن طريق هؤلاء الذين اشتهروا بالفراسة والعرافة . وبهذا أعلنت براءة ذات الهمة واخذت تستعد لاستقبال مرحلة جديدة فى حياتها تتسم بالكفاح الخالص فى سبيل نصرة الدين الاسلامى والشعب العربى . وقد اختارت ذات الهمة منطقة الثغور لكى تكون موطنا لها لأنها المنطقة التى يتحدد فيها موقف الدين الاسلامى والشعب العربى . فاما أن تنتصر الدولة الاسلامية على الروم ويكون ذلك تأكيدا لكيانها ودينها ، واما أن يحدث العكس فيتعرض حينئذ الدين الاسلامى والدولة الاسلامية الى الانهيار . ومن ثم فقد انتقلت ذات الهمة على رأس الجيش العربى المتطوع والممثل فى قبيلة بنى كلاب الى منطقة الثغور حيث اتخذت من ملطية عاصمة لها .

وفى هذه الأثناء انتقلت الخلافة من بنى امية الى بنى العباس ولما تولى المنصور الحكم سعى بنو سليم يكيدون لبنى كلاب . ومنحهم المنصور اذنا صاغية ؛ فأرسل الى بنى كلاب كتابا يأمرهم فيه بالخضوع لسلطانه . وغضب بنو كلاب من الرسالة وقال أحد شيوخهم وهو ظالم للنجاب : « يا شيخ ما الذى كان بيننا وبين المنصور حتى انه عزلنا عن الملك ، وانما كان أبونا محبا لبنى أمية . ولقد هلك الجميع وصاروا فى القبور . فارجع الى صاحبك وقل له عرب البر لا يدخلون تحت طاعتك . ومن جاء الينا كانت سيوفنا

اليه أقرب من كلامه . » (١) وقد كان هــذا الرد خليقا بأن يخلق ازمة بين الحاكم وجيش الشعب لولا تدخل ذات الهمة بلباقتها وكياستها . فقــد قالت لعمها على التو : « يا عماه لقد بالغت في الخطأ ، لما أن كان الامر لبنى أمية كنت فى حقهم مليح ، ولما أن رجع الأمر لأهله عدلت عن الصحيح . والصواب أن تنهض بقومك وتسير اليه (أى الى الخليفة) وتعتذر فيما جرى منــك ، وتعرض نفسك عليه وعلى خدمته لأن لك في ذلك الشرف . » (٢)

وبهذا مهدت ذات الهمــة لعــلاقة طيبــة بين قبيلتهــــا وبين خلفاء بنى العباس . كما أنها تمكنت من توحيد صفوف جيشــها بعد أن قتل عمها ظالم وابنه الحارث في المعارك العربية والرومية ، وقد كان هذان يمثلان القوة المعارضة لها ولجيشها ، الى درجــة انهما انضما ــ كيدا لذات الهمة ــ الى العرب المتنصرة الذين كانوا يعملون لغير صالح الدولة الاسلامية (٣) . وهكذا استعدت ذات الهمة لتأدية رسالتها الكبرى وهى القضاء المبرم على القوة المتربصة بالدولة على حدودها الغربية .

وربما كان تحقيق هذا الأمر يسيرا على ذات الهمة وجيوشها ، لو أن جيوش الأمة الاسلامية كلها ، المتطوعة منها والتابعة للدولة ، كانت متكاتفة متحدة . ولــكن الأمر لم يكن يخلو من نفاق وحقــد كفيلين بأن يوقعا الانقسام بين صفوف المسلمين . وأما النفاق فكان يمثله عقبة السليمى . وتحكى السيرة ان أمه رأت رؤيا غريبة قبل ولادته . فلجأت الى الحكماء لكى يفسروا لها الرؤيا : فقالوا لها : « يأتيكى ولد شرانى يلقى الفتن بين الناس من النساء والرجال .

(١) سيرة الاميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب : ج ٦ ص ٥٥ .
(٢) نفس المرجع . نفس الصفحة .
(٣) السيرة ج ٧ ص ٥٦

ويكون سفاك الدماء كثير الحيل والزنا مفسدا في الدين عاصيا لرب العالمين . » (١)

لقد كان عقبة قاضيا مسلما ، اى انه كان متفقها فى أمور الدين ومع ذلك فقد كان يعمل على هدم الدين الاسلامى وكيان الآمة الاسلامية عن طريق التواطىء مع اعدائها . ولم يكن يفضح أمره سوى قبيلة بنى كلاب . ومع ذلك فان الخلفاء كثيرا ما كانوا يتشككون فى ادعاءاتها ويرون انها من قبيل الافتراء ، حيث أن القاضى كان من ناحية يبدو تقيا ورعا للغاية ، ومن ناحية أخرى كان ينتسب الى قبيلة بنى سليم التى كان الخلفاء يرعون مصالحها خوفا من نفوذها . ولكن ذلك لم يضعف من عزم بنى كلاب فى محاربة عقبة. وقد كانت محاربته تقف جنبا الى جنب مع محاربة الروم أعداء الدولة . ولولا الرؤيا التى رآها عبد الوهاب والتى تحدد موعد مقتل عقبة بيد الأبطال ، لتخلصت أسرة بنى كلاب منه منذ زمن . فقد أخبر النبى عبد الوهاب فى رؤياه بأن صلب عقبة سيتم على باب الذهب،أحد أبواب مدينة القسطنطينية وذلك بعد أن يتم النصر للمسلمين . « فلما سمع الأمير عبد الوهاب ذلك أصبح وأعاد المنام على جميع الناس ، وأوصى كل من وقع به (أى بعقبة) لا يقتله حتى يصح المنام عن النبى (ص) ، لانه قال عليه السلام : من رآنى فقد رآنى حقا ، فان الشيطان لا يتمثل بى . » (٢)

وقد كانت هذه البشرى أكبر دافع لجيش بنى كلاب على المجالدة والصبر على القتال . فاذا أضفنا الى ذلك تخلص الجيش من ظالم وابنه الحارث ، ومغنمه الكبير بانضمام البطل محمد

---

(١) جـ ٧ ص ٨

(٢) السيرة جـ ٢٦ ص ٤٠

البطال الى صفوفه ، يمكننا أن نقول أن الظروف أصبحت مهيئة للجيش الفدائي لخوض معركة النصر .

وقصة انضمام محمد البطال الى صفوف المحاربين قصة غريبة فقد ولد البطال كسولا وجبانا للغاية . « كان يفزع من الماء اذا سرى ومن الثور اذا هر ، وكلما زقزق الفار فى الدار يهرب فى ثياب أمه .. ومن جملة كسله انه اذا كان نصفه فى الظل والنصف الآخر فى الشمس وهو نائم ، يكسل أن يزحف من الشمس الى الظل . » (١)

ولما ضاق أبوه به ذرعا كتبه فى ديوان المجاهدين . ولكن البطال كان يهرب بعيدا حتى لا يسمع دوى المدافع وصهيل الخيل . واستمر البطال على هذا الحال حتى حدثت المعجزة التى غيرت مجرى حياته . فبينما كان البطال جالسا وحده على ربوة بعيدا عن القتال ، هوى سيف من السماء واندفع بقوة فى باطن الأرض . وأصيب البطال بفزع شديد حتى كاد يغمى عليه . فلما حاول أن يجتذب السيف ، وجده قد اندفع فى بطن ثعبان مهول حتى قضى عليه . عندئذ وقف البطال متحيرا برهة وبعدها أفاق لنفسه وهتف قائلا : « الله أكبر ، بان الحق وظهر ، وزال والله الخوف والحذر فلا مفر من الموت ولا مهرب من الفوت .. ثم انه فى ذلك الوقت هاجت به السريرة الخفية التى أودعها فيه رب البرية وعصفت فى رأسه نخوة العرب ، ونزل من على تلك الرابية وجذب الحسام وحمل فى أوائل القوم . » (٢)

ولم يشأ البطال أن يحارب فى صفوف قبيلته بنى سليم ،

---

(١) السيرة جـ ٨ ص ٤٥
(٢) السيرة جـ ٨ ص ٢

وأنما حارب في صفوف بني كلاب، اذ رآهم اكثر استبسالا في سبيل الدفاع عن الدين الاسلامي والأمة الاسلامية .

على أن البطال لم يبرز في القتال كما برزت فيه ذات الهمة وابنها عبد الوهاب ، وانما كان متفننا في أساليب الحيل . وقد عبر عن ذلك فقال : « أنا ما صناعتي الحرب والطعن والضرب وانما صناعتي في الحيل والخداع في حصن أو قلعة » (١) .

وقد ساعد البطال في حيله عاملان ، معرفته بلغة الروم أى اللغة اليونانية ثم مقدرته البارعة على التنكر في اشكال عدة ، بحيث أنه لم يكن من السهل على الروم — برغم حرصهم البالغ منه — أن يكتشفوا امره . فاضطروا الى تعليق صورته في الكنائس والاديرة حتى تسهل معرفته وهو متنكر . وقد وصفه احد رجال الروم فقال عنه : « هذا البلاء النازل ، هذا الموت العاجل ، هذا البلاء الكامل ، هذا مفتت الأكباد الذى تذل من حيله ومكره الأسود ، هذا الثعبان الأغبر ، هذا الموت الأحمر الذى في جميع الكنائس مصور » (٢) .

وليس في وسعنا أن نعدد حيل البطال ، ويكفي أن نقول انه يعد المحرك الأول لحوادث السيرة . فقد يتسلل داخل بلاد الروم متخفيا ويمكث بها زمنا يتيح له فرصة التعرف على من يكون عالما بخطط الحرب ، ثم يصطنع معه كافة الحيل حتى يستمد منه بعض المعلومات وينقلها بدوره الى العرب ، فيتمكنون من رسم خططهم بناء على ذلك. وقد يسعى الى تضليل الروم حتى تتم خطة

---

(١) السيرة جـ ١٠ ص ٤٥ .
(٢) السيرة جـ ٤٥ ص ٣٦

جيشه بنجاح . فاذا تعذر على المسلمين فتح بلد حصين ، أسرع البطال وتفنن فى حيلة حتى يعمل على اسقاط البلد . وهذا ما حدث فى واقعة عمورية. فقد وقف المسلمون أمام أسوارها المنيعة عاجزين عن دخولها . عندئذ ادرك البطال أن السيف وحده لن يمكن المسلمين من النصر ، ولابد من الاستعانة بالحيلة .. وفيما هو يعمل فكره ، أبصر اناسا يركبون الحمير المحملة بالخمور ـ ووجهتهم ابواب المدينة . ولم يشك البطال فى أن هذه الخمور مرسلة الى الملك . فأسرع صوبهم ، وأخبرهم باللغة اليونانية ان أبواب المدينة مغلقة لأن المسلمين يبغون دخولها. ثم ادعى انه رسول مرسل من قبل الملك حتى يهديهم الى الطريق الذى يوصلهم إلى داخل المدينة . ولم يشك الرجال فى صدق البطال فاتبعوه . فلما خلا بهم الطريق، هم البطال بقتلهم وارتدى ثياب أحدهم، ثم امتطى صهوة حمار وأسرع حتى اقترب من احد أبواب المدينة . وطلب من الحارس أن يفتح له لأنه جاء يحمل خمرا للملك من قبل صديقه فلان .. ولما كان الحارس قد أخبر بذلك ، فتح له بابا سريا نفذ منه البطال الى داخل المدينة . وقد كان هذا كافيا لأن يتعرف البطال على حيلة تمكن جيش المسلمين من دخول المدينة ..

وبهذا نستطيع أن نقول ان القوة اكتملت لجيش بنى كلاب ، فالقيادة السليمة والقوة تمثلت فى ذات الهمة ، والبطولة النادرة تمثلت فى ابنها عبد الوهاب ، ثم ان المقدرة على اصطناع الحيلة بلغت قمتها عند البطال . فاذا أضفنا الى هذا استبسال جميع أفراد الجيش وتفانيهم فى أداء واجبهم ، أدركنا كيف أن عوامل النجاح كانت مهيئة لجيش الشعب العربى، الذى ترك دياره واستقر فى منطقة الدفاع عن الاسلام والأمة الاسلامية .

ولم يكن يعنى انشغال المحاربين بالحروب العربية الرومية ، ابتعادهم عما يجرى داخل البلاد من حوادث . بل ان الأحوال

الداخلية غير المستقرة كانت تشغل الجانب الأكبر من تفكيرهم .
فتهديد العدو لحدود البلاد بصفة مستمرة كثيرا ما كان يقدم
الفرص الذهبية للعناصر الفاسدة لكي تعبث في البلاد فسادا. ومن
بين هذه العناصر من كان يجهر بالعداء للدولة .فيتزعم جيشا يحاربها
به. وقد تبلغ قوةهذهالعناصر المعاديةشأوابعيدا الىحد أنتستعينبه
الدولة البيزنطية وتتخذ منه وسيلة لتحقيق اغراضها . على أن
خطورة هذه العناصر لم تصل الى درجة خطورة العناصر الأخرى،
تلك التي كانت تعمل في الخفاء وتدير حركة التجسس لحساب
الدولة البيزنطية ونعنى بذلك عقبة السليمى وعصابته . وقد رأى
جيش بنى كلاب ان يحارب الطائفتين على حد السواء . فاذا تعاون
معهم الخليفة كانوا أكبر عون له ، والا فهم يستقلون برأيهم ، وان
دفع ذلك الخليفة لأن يقف منهم موقفا معاديا .

والحق أن ضعف الخلفاء من ناحية ، وانعكافهم على ملذاتهم
من ناحية أخرى ، كانا يحولان دون توحيد صفوف الأمة الاسلامية
حكومة وشعبا . وكلما كان الحاكم ضعيفا أو عاكفا على ملذاته ،
كثرت حوادث الثوار الطامعين في الحكم ، وسعى اليه عقبةبالوقيعة
ببنى كلاب . وقد كان الخليفة الأمين الذى حكى لنا التاريخ عن
استهتاره وتبذله ، نموذجا للحاكم الذى يعين على ضياع الحقوكلمة
الصدق . وقد بلغ الهوس بالخليفة الأمين الى درجة انه اتهم
هرون الرشيد فى أنه ينازعه حبه لامرأته الجميلة . ومن ثم فقد
دب الخلاف بينهما غير عابئين بما يحدث فى بلادهما فى الداخل
والخارج . فلما تولى الرشيد الحكم استغل عقبة فرصة دهاء
الفضل بن الربيع ، واتفق معه على أن يعملا على ايغار صدر الخليفة
من بنى كلاب وكل من تربطهم بهم علاقة طيبة . وقد نجحا فى
مؤامراتهما وعزم الخليفة هارون الرشيد علىالقضاء على بنىكلاب.
.. ولما بلغ ذلك مسمع بني كلاب ، هم البطال بأن يقابل الدسيسة

بدسيسة مثلها تطلع الرشيد على حقيقة الأمر . ففى ذلك الوقت التقى عبد الوهاب بولد له هو البطل سيف الحنيفية الذى ظل مختفيا عنه منذ ولادته حتى التقى به وهو بطل مرموق . وأماسبب هذا الاختفاء فهو أن عبد الوهاب كان قد تزوج بجارية رومية أعلنت اسلامها هى ميرونة ، وحملت منه ميرونة وأسرت فى بلاد الروم بعد ذلك . ومنذ ذلك الحين اختفت عن زوجها عبد الوهاب . وعبثا حاول أن يعرف أخبارها ، الى درجة أنه لم يكن يساوره أدنى شك فى أنها قد قضت نحبها. أما ميرونه فقد ظلت فى الأسر مدة طويلة ولدت فى أثنائها ابنها الذى أخذ منها على الفور ليتربى فى حضن النصرانية ، واطلق عليه اسم سيف النصرانية . وكبر سيف وظل يحارب فى صفوف الروم الى أن كشفت له الرؤيا عن حقيقة نسبه. فغادر بلاد الروم بحثا عن أبيه عبد الوهاب . فلما عثر عليه ارتمى بين أحضانه وأعلن اسلامه بين يديه ، وسمى منذ ذلك الحين « سيف الحنيفية » . وبذلك كسب الاسلام درعا جديدا لايقل بطولة عن أبيه . ورأى عبد الوهاب ذلك فرصة سانحة لكسر شوكة الروم .. فطلب من ابنه أن يظل متظاهرا بالولاء الى الروم وكان بطلا معروفا لديهم ، وأن يعمل خفية على نصرة الاسلام . فدبر الاثنان خطة لخطف ملك الروم وبعض قواده حتى يحصلوا على دية كبيرة مقابل اطلاق سراحهم . ونجحت الخطة وأسر ملك الروم وقواده. وفى هذا الوقت علم البطال أن الخليفة قد دبر مؤامرته مع الفضل بن الربيع وعقبة للقضاء على جيش بنى كلاب فأسرع ودبر مؤامرته لخطف الخليفة وعقبة . ووضع كل منهما فى خباء مجاور للخباء الذى وضع فيه الملك الرومى . وأتم خطته بأن هيأ لعقبة مقابلة الملك الرومى ، ثم أخرج الخليفة من خبائه ليستمع الى حديث عقبة مع الملك الرومى . فاذا به يقسم له بالمسيح أنه لن يمكث فى بلاد الاسلام بعد اليوم ، وأنه لن تقر له عين حتى

يرى جيش الاسلام مدحورا .. فلما ايقن الخليفة من نفاق عقبة ، قبلت دية الملك واطلق سراحه . اما عقبة فقد سيق الى هرون الرشيد لمحاسبته .

ولم يسدل هذا الحادث الستار على علاقة الرشيد بعقبة ؛ فقد استخدم الأخير كل وسائل المداهنة والمراوغة لكى يسترد ثقة الخليفة فيه . كما انه لم يتردد على الروم زمنا حتى عادت علاقته بالخليفة الى مجراها الطبيعى وأخذ الخليفة يصغى لبعض نصائحه ..

ثم كانت نكبة البرامكة التى تمت على يد عقبة كذلك ، حينما اكتشف علاقتهم الوطيدة ببنى كلاب . قال عقبة للرشيد ذات يوم: « اعلم يامولاى ان البرامكة جملتهم أربعة آلاف ، وقد بايعوا الظافر ابن الرضا بخراسان وعولوا أن يسلموا اليه قصرك وأن يزوجوه بأهلك لانه شكى الى جعفر أن عنده من السيدة زبيدة هوى عظيم ، وقد أجابه الى ذلك . وجعفر ضامر على انه يقلعك من الخلافة وقد نوى لمولانا كل آفة (١) » وكان عقبة قد دس لجعفر البرمكى خطابا يكشف عن هذه المؤامرة المزعومة . واستطاع الرشيد أن يطلع على هذا الخطاب ، ولم يكن لديه أدنى شك فى حقيقة هذه المؤامرة ، وقرر فى الحال أن ينزل النكبة بالبرامكة .

وحزن بنو كلاب على البرامكة كما حزن الشعب عليهم . واستطاع البطال أن يكشف للرشيد سر الرسالة المدسوسة . ولكن من الذى دسها لجعفر ؟ أهو عقبة أم غيره ؟ لم يستطع الرشيد أن يقطع برأى . .. وعلى كل لقد سبق السيف العذل ، وانتهى عهد البرامكة الذهبى ولم يعد الرشيد راغبا فى اثارة هذا الأمر مرة أخرى .

ورأى عقبة أن يغير من خططه . فترك حيله المكشوفة ولجأ

(١) السيرة جـ ١٢ ص ٣٦

الى حيل اخرى من شأنها ان توقع الشقاق بين ابطال بنى كلاب من ناحية ، وبينهم وبين الرشيد من ناحية أخرى .

فقد حدث ان أسر البطال ابنة ملك الروم وتدعى نورى . ورغب البطال فى الزواج منها اذ كانت على حظ وافر من الجمال . ولكن عبد الوهاب الذى اغرم بها بمجرد أن وقع بصره عليها ، تمنى ان يفوز بها . وعلم عقبة بهذا الأمر فحرص على توسيع هوة الشقاق بين البطلين الصديقين . بل انه حاول أن يجعل الخليفة طرفا فى النزاع حتى يبلغ الخصام اشده بين الثلاثة . فقد مهد عقبةالفرصة للخليفة لكى يبصر نورى. وما انوقعبصره عليهاحتىرغب فىالزواج منها وطلب من عقبة أن يتوسط له فى هذا الأمر . عندئذ رحل عقبة الى نورى وأخذ يبغض لها كلا من عبد الوهاب والبطال زاعما انهما أدنى منها منزلة . فلما اعربت له عن يأسها اذ لا مفر أن يفوز بها احدهما ، اخبرها بأنه فى وسعه أن يزوجها بالخليفة هرون الرشيد ان هى وافقت على فعل ما يطلبه منها . ثم طلب منها أن تكتب ثلاثة خطابات بخط يدها . الأول تكتبه الى الخليفة هرون الرشيد تشرح له فيه حرص كل من عبد الوهاب والبطال على الزواج منها ، وكيف انهما سبا الخليفة حينما علما أن الخليفة يشاركهما حبا . وأما الخطاب الثانى فترسله الى عبد الوهاب تكشف له فيه عن كره البطال له وعزمه على محاربته من أجلها . وأما الثالث فتكتبه الى البطال تزعم فيه أن عبد الوهاب الذى يدعى صداقته ، قد عزم على التنكيل به لأنه دائم التودد لها ويرغب فى الزواج منها . ثم اخذ عقبة الخطابات الثلاثة وسلم كلا على حدة بطريقة خفية الى صاحب الخطاب . وهكذا دب الخلاف بين الأطراف الثلاثة المعنية ونسوا بذلك المصلحة العامة . ثم انحصر الخلاف بعد ذلك بينالبطال وعبد الوهاب حينما أسر الرشيد . وهنا تدخلت ذات الهمة لكى تحسم الخلاف بينهما حتى لاتتعرض المصلحة العامة للخطر . وقد

شاءت أن تنصف البطال من ابنها عبد الوهاب لأن البطال هو الذى قام بأسر نورى . ولكن عبد الوهاب احتد معها احتدادا دفع بذات الهمة الى أن تشهر فى وجهه السيف . وعندئذ خاطبها عبد الوهاب بشعره وقال :

ادلهمـــــة انى نصـــــحتك فارجعى
والا فقــد حان الفــراق مــدى الدهــر
حلفت ببيت الله والركن والصـــــفا
وموقف ابراهيم والحـــج والحجـــر
لئن لم تعـــودى عن قتـــالى وموقفى
ولا تطمعى فى أخـــذ من هى كالبـــدر
وفى كبـــدى منها غـــرام ولوعـــة
وان فـؤادى من هـــواها عـلى جمـر
وخاطبنى البطـــال من أجـل حبهـا
بأقبح لفـظ بالفـــواحش والنـــكر
ولابد لى من قتـــله وهـــو راغـــم
وأتركه وقفـــا عـلى معظـــم الأمـــر
فان ترجعى عنى تعـــودى بفـــرحة
وتنجين من سيفى ومن طارق الدهــر (١)

على أن المعركة أسفرت عن رضوخ عبد الوهاب لرغبةأمه وندمه مجـاريها .

---

(١) السيرة ج ١٩ ص ٣٢ ، ٣٣

أما الرشيد ، الذى اطلق أسره بعد ذلك ، فقد عز عليه أن يقف ابطال بنى كلاب منه موقف الند للند ، وأن يحولوا بينه وبين رغباته . ولذلك فقد عزم على ان يفرق بين ابطال بنى كلاب ، بان يرسل كلا منهم الى مكان ناء . أما عبد الوهاب فقد أسروا وارسل الى ارض العراق . وأما البطال فقد دبر الخليفة خطة لاختطافه مع ابن عبد الوهاب الذى يدعى ظالما ثم وضع كل منهما فى صندوق احكم قفله وسلمهما الى قافلة بعد أن منحها مبلغا من المال ، وطلب منها أن تحمل الصندوقين الى الجزر النائية ، كما حذرها من فتح أحد الصندوقين الا عند وصولها الى تلك الجزر . وفى الطريق تقابل لصوص مع هذه القافلة وسلبوا منها الصندوقين توهما منهم بأنهما يحتويان على كنز كبير . ولكنهم فوجئوا بآدميين يتوسلان اليهما أن يحملوهما الى مكان مأهول . غير أن اللصوص شاءت أن تفرق بينهما ، فتركوا ظالما فى أرض يحكمها ملك يسمى عبد الودود كما تركوا البطال فى أرض البرابرة المجاورة لبلاد عبد الودود وكان يحكمها ملك يدعى الأزور . ولم يكن الملكان يعيشان حياة وئام . وانما كانت الحرب تدب بينهما بين الحين والآخر . وفى احدى المعارك اشترك ظالم والبطال فى القتال ، كل يحارب فى صف الملك الذى يعيش فى أرضه . ولكنهما التقيا بعد ذلك وحاربا معا فى صف الملك عبد الودود ، اذ كان الملك الأزور قاسيا عنيفا .

وفى هذا الوقت ، كان هشام المؤيد يحكم فى الأندلس ، وكان يخشى على ملكه من الملك عبد الودود ، ولذلك فقد عزم على محاربته وأسر البطال وظالم فى بلاط الملك هشام . وهناك أطلع البطلان الملك على حقيقتهما وقصا عليه قصتهما . فقبل أن يطلق سراحهما بعد أن يشتركا معه فى القتال ضد الافرنج . فلما تم النصر لهشام، طلبا منه الرجوع الى ملطية . فجهز المؤيد لهما السفن كما خصهما بجيش لحراستهما . فسارت السفن فى رحلة طويلة عبر

سواحل مصر حتى وصلت الى الشام . وهناك اجتمع شمل الأبطال مرة اخرى ، وسعدت بهم ذات الهمة بخاصة وان ابنها عبدالوهاب كان قد اطلق سراحه كذلك .

وكانت رحى الحرب تدور فى ذلك الوقت بين العرب والروم ، وسعد الخليفة الرشيد بوصول الأبطال ، لأن غيابهم كشف له عن عجز جيش المسلمين فى صد غارات الروم . ولما تم النصر لجيش المسلمين ، زاد تقدير الرشيد للأبطال وبالغ فى التودد اليهم ..

ثم توفى الرشيد تاركا الحكم لابنه الأمين وللمأمون من بعده . ولكن الخلاف دب بين الأخوين لعزم الأمين على جعل الخلافة من بعد لابنه لا لأخيه. ومن ثم فقد انقسم الشعب الى حزبين : حزب يناصر الأمين ، والآخر يناصر المأمون . اما اسرة بنى كلاب فقد وقفت فى النزاع موقفا سلبيا لأنها كانت تسعى دائما لأن تكون فى وفاق مع الحاكم حتى يتسنى لها تحقيق مآربها . ولذلك فقد غضب عبد الوهاب من ابنه ظالم حينما انضم الى الحزب المناصر للمأمون . فكتب اليه وقال : « اما بعد فأنت تعلم ان الله تبارك وتعالى فرض عليك طاعة ولى الأمر وطاعة الوالدين ولين الجانب وترك الجفا . والذى آمرك به ان تعتزل انت واخيك سيف الحنيفية وابو الهزاهز عن عسكر المأمون ، واعلم ان ما شد عزمه على مخالفة اخيه الا انتم ومن معكم من الفرسان والشجعان السودان . ولو كان الرشيد وهب الخلافة للمأمون ، لما كان يسعنى فى الله مخالفته . وما يليق بنا ان نتخلى عن الأمين ، فيقع علي التوبيخ من المسلمين » .. ثم ختم رسالته بالأبيات الآتية :

أن كنت ياولدى قبلت نصيحتى | وسمعتها ورأيت ذاك صوابا
ورجعت عن حرب الأمين فلاتكن | فى صحبة المأمون تبغ حرابا
ولئن جهلت لما أقول فانه | يعفيك حزنا ما عليه عتابا
ولئن أطعت أباك عشت مسلما | من كل نائبة ونلت ثوابا
ان الأمين هو الخليفة هكذا | فعل الرشيد فلا تكن مرتابا
ولئن أبيت فاننى لك قاتل | فى موقف الهيجا بلا كذابا(١)

على أن الثورة ضد الأمين لم تنته الا بقتله ، وتولى المأمون الخلافة . ولم يكن المأمون يحمل بطبيعة الحال أية ضغينة لأسرة بنى كلاب لأنهم لم يقفوا منه — اذا استثنينا ظالما وسيف الحنيفية — موقفا عدائيا . ولكن حدث بعد ذلك ما أوغر صدر الخليفة ضد أسرة بنى كلاب . فقد ثار ثائر ضد الروم فى عهد ملكهم ميخائيل يدعى كوشانوش . وكان هذا الثائر يعيش مستقلا عن الروم فى قلعة حصينة ويجمع حوله عصابة قوية من الخارجين على ملك الروم . ولما رأى ميخائيل أنه لا قبل له بمحاربة كوشانوش والعرب فى آن واحد ، فقد سعى الى مهادنة العرب بل ومصالحتهم . وأدركت ذات الهمة ببعد نظرها أن الخطر الذى يتهددهم من قبل الثائر كوشانوش لا يقل عن الخطر الذى يتهدد الروم منه . ولذلك فقد رأت أن الحكمة تقتضى الاتفاق مع الروم حتى تكسر شوكة هذا الثائر ، فلما طلب ملك الروم منها — بوصفها زعيمة لجيش بنى كلاب — أن يسلم لها عمورية فى مقابل مساعدته ضد الثائر ، رحبت ذات الهمة بطلبه لأن هذا سيمكنها من الاستيلاء على بلد حصين وعلى القضاء على كوشانوش فى آن واحد . فلما علم

---

(١) السيرة جـ ٣٠ ص ٤٩ ، ٥٠ — نقلنا الأبيات كما هى فى السيرة

المأمون بذلك أرسل يتهددها هى وجيشها لأنه كان يعارض مهادنه الروم كل المعارضة . بل انه كان يرى — مخالفا فى دلك راى ذات الهمة — أن الانضمام الى صف الثائر ضد الامبراطور الرومى يقدم فرصة سانحة للعرب للقضاء على البيزنطيين . ولما لم تقبل ذات الهمة وجهة نظر الخليفة أرسل لها انذارا نهائيا . فردت عليه ذات الهمة وشرحت له وجهة نظرها تفصيلا ثم ختمته بقولها : « ودعنا فى ملطية فى وجوه الكفرة لا لك ولا عليك ، ولا تلح علينا فيخرج الأمر من يديك ويدينا »(١) . ونفذت ذات الهمه خطتها ، ونجحت فى القضاء على الثائر وتسلمت عمورية فى مقابل ذلك . ثم ما لبثت أن استأنفت غاراتها على بلاد الروم .

وهنا شعر المأمون بخطورة بنى كلاب عليه ، ولم يجد مفرا من أن يضع حدا لسطوتهم وكان عقبة يتتبع انباء هذا الخلاف أولا بأول . فلما أيقن أن الخلاف بلغ أشده ، أخذ طريقه الى بلاط المأمون محكماً حيله . على أن خصومة المأمون لبنى كلاب لم تدم بعد ذلك طويلا ، اذ لم يكن يخفى عليه حيل عقبة ، وأنه شاء الاصطياد فى ماء عكر . ولذلك فقد عدل المأمون عن موقفه من بنى كلاب ، وأبدى لعقبة عداء لا رجعة فيه ...

ولما رأى عقبة أن العلاقة بينه وبين المأمون قد ساءت الى هذا الحد ، دبر مع الروم مؤامرة لأسر المأمون . وتمت المؤامرة بنجاح ، الأمر الذى شجع عقبة لان يرسل لأحد أفراد عصابته بحثه على أسر أبطال بنى كلاب . ولكن الرسالة — لسوء حظه — وقعت فى يد البطال . فأسرع ليخبر اخوانه بالمكيدة التى تدبر لهم ثم خف لنجدة الخليفة . ولكنه أدركه وهو يعانى من جرح قاتل

(١) السيرة ج ٦ ص ٥٤ ، ٥٥

أوشك أن يفضي عليه . ولما ساءت صحة المأمون بايع المعتصم بالله . « ودلت بيعته بنص المأمون عليه دون اولاده لرؤيا راى فيها النبي صلى الله عليه وسلم يامره بذلك . وكان ابوه قد أخرجه من الخلافة وعهد الى الامين والمأمون والمؤتمن . فساق الله سبحانه وتعالى اليه الخلافة . وجعل الخلافة اليه والخلفاء من أولاده (١) » . وكان أبو اسحق المعتصم ابن هارون الرشيد ، ولم يكن في بني العباس له نظير في شدة بأسه وقوة مراسه وحزمه ، ورايه وحكمه وعلمه . وقد وهبه الله قوة زائدة حتى كان يقال له اسد بني العباس(٢) » .

وفي عصر المعتصم تكشفت للمسلمين أمور مساعدتهم على تحقيق آمالهم . فقد ظهر في جيش الروم فارس بطل خشى المسلمون أمره . وظهر بعد ذلك أنه ولد البطال من زوجته نوري ، وكان قد فقد منذ زمن وهو طفل صغير في أثناء المعارك الاسلامية المسيحية . وكان أول من أدرك هذه الحقيقة نوري نفسها . قالت يوما لزوجها : « يا أبا محمد ، بحق من هداني الى دين الاسلام وعرفني الحلال من الحرام ، هذا مذبحون ولدي ، فاكشف عن حاله فان لي فيه ثلاث علامات . وكان مذبحون هذا ولد الأمير أبو محمد البطال ، وحديثه عجيب . وقد ذكرنا ان نوري أسرت في جزيرة قراقونا وأنه لما عرض عليها التنصر وامتنعت ، أمر بذبح ولدها . فأخذ الغلمان من يدها ، ونزلوا به الى ساحل البحر . « فنظرت اليه جارية من بنات البطارقة من ارباب الأموال وأصحاب الأحوال وهو يضحك . فنادت على

(١) السيرة ج ٤٠ ص ٤٢

(٢) السيرة ج ٤١ ص ٣٦

الغلمان بالرومى : لا تقتلوا هذا الطفل المليح الصورة(١)» . وهكذا تربى مذبحون الذى أطلق عليه هذا الاسم لأنه أمر بذبحه، فى حضن هذه الراهبة حتى شب عن الطوق وأصبح فارسا من الفرسان البارزين سعد بن الروم حينا ، وسعد به العرب فى معاركهم الحاسمة .

وفى عهد المعتصم أكدت النبوءة النصر للمسلمين ، كما حددت ميعاده . فقد ظهر النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الوهاب فى رؤيه وشكى له عبد الوهاب من خداع المنافقين وعلى راسهم عقبة وقال له : « يا رسول الله عقبة قد أضرنى . فهل ذلك الوعد الذى وعدتنى به قد اقترب ؟ فقال : أتى أمر الله فلا تستعجلوه . فقال له عبد الوهاب : « يا رسول الله خلق الانسان من عجل ، فمتى يكون ذلك ، فقال : اذا وصلت الروم الى الاسكندرية ، وأخذت العلوية وفتح الله على أيديكم عمورية ، وظهر مطرون وصلب شومدرس الملعون ، وقد قرب العهد فيما بينكم(٢) » .

ثم أخذت هذه الحوادث تتحقق تدريجيا . فقد اقترب الروم من الاسكندرية ، إذ شاءوا أن يضربوا العرب فى منطقة أخرى غير منطقة الثغور . أما العلوية فهى زينب ابنة ابراهيم العلوى وكانت فارسة محاربة أسرت فى بلاد الروم زمنا طويلا ، لاقت فيه شتى انواع العذاب حتى صرخت ونادت : وامعتصماه . ولما بلغ هذا المعتصم هب لنجدتها وانقذها . كما تم بعد ذلك فتح عمورية بفضل حيل البطال ومهارة المحاربين . ولم يبق بعد ذلك سوى أن يتقدم المعتصم الى أبواب القسطنطينية والى باب الذهب بعينه حيث

---

(١) السيرة ج ٤٣ ص ٢٧

(٢) السيرة ج ٤٤ ص ٢٣

يتم صلب عقبة وفقا للنبوءة . وفى هذا الوقت ظهر النبى صلى الله عليه وسلم للمعتصم فى رؤياه . وقد حكى المعتصم هذه الرؤيا لأسرة بنى كلاب وقال: «رأيت كأن أنوارا نزلت من السماء .. واذا بشخص قد أقبل والضياء عليه تلمع ..فقال أنا محمد المصطفى . فعندذلك مددت يدى اليه وصافحته وقبلت يديه وقلت له : ياسيدى يا رسول الله أما تدعو الله تعالى أن ينصرنا على هؤلاء الكفار؟ فقال لى يا أبا اسحق ، اعلم ان الوقت قد اقترب وهو الذى أوعدت به الأمير عبد الوهاب. وفى غداة غد تنصروا على هؤلاء الكفار كما نصرنى الله تعالى يوم الاحزاب ... وانى رأيت الاميرة ذات الهمة وقد أقبلت الى رسول الله (ص) وقبلت يده . فقال لها يافاطمة ابشرى بالجنة العليا وتكونى فى جوار ابنتى فاطمة الزهراء، وهى الساعة فى انتظارك يا أم المجاهدين » (١) .

ولم تنزعج الأميرة لسماع هذه النبوءة، فقد سبق أن رات ما يشبه هذه الرؤيا من قبل ، ولكنها ازدادت استبشارا لأنها سوف تسعد بلقاء ربها بصحبة فاطمة الزهراء. أما عقبة فقد أحكم أسره هذه المرة استعدادا لصلبه . فلما وصل المعتصم بجيوش بنى كلاب الى باب الذهب، استعد الجميع مبتهجين بمشاهدة عقبة وهو يصلب. عندئذ تقدم المعتصم اليه وقال له : « يا قاضى كيف ترى قول النبى (ص) للامير عبد الوهاب حيث وعده بصلبك . هل صح قوله فى الرؤيا أم لا؟» وفى اللحظة التى تم فيها صلب عقبة هتف المسلمون فى صوت واحد : « قل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » (٢) .

وبهذا تم النصر النهائى للمسلمين. فقد صلب عقبة وقضى على العدو الخارجى فى آن واحد . وفى الوقت نفسه قضى الأبطال على

---

(١) السيرة ج٧٠ ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) السيرة ج ٧٠ ص ٧٦ .

حاملى لواء التمرد ضد الحكومة الاسلامية سواء كانوا أتراكا ، أم من اتباع مزدك أم من الاحباش أم من اليهود .

وتوفى المعتصم وتولى الواثق من بعده أمور الخلافة . فلما سمع بهذه السيرة امر بتعيين الأبطال المسلمين حكاما بالمناطق التى تم فتحها على يدهم . ولما كانت ذات الهمة وعبد الوهاب والبطال قد توفوا، فقد حكم أولادهم فى تلك البقاع ،هؤلاء الذين شاركوهم القتال والكفاح زمنا طويلا ..

الفصل الثانى
السيرة والتاريخ

أ ـ اين ومتى الفت السيرة ؟

اذا كان من العسير أن نحددالزمن الذىنشأ فيه أىنتاج أدبى شعبى ، بخاصة المدون منه ، والمكان الذى نشأ فيه أول الأمر،لأن عملية الرواية كفيلة بأن تنقل النتاج الأدبى من مكان لآخر ، وأن تتطور به عبر الأجيال ، فان هذا لن يحول بيننا وبين القاء الضوء على هذا الموضوع • وعلى الرغم من أننا لن نصل فى ذلك الى حقيقة علمية مؤكدة ، الا أننا نود أن نبدأ بحثنا فى السيرة بمناقشة هذا الموضوع تمهيدا لدراسة الموضوعات الأخرى التى تترتب عليه .

ونود أن نشير أولا الى ان بحثنا فى هذا الموضوع ينصب على السيرة فى صيغتها الأخيرة ، أى تلك التى وصلت الينا مدونة • ذلك أن النتاج الأدبى الشعبى المكتمللم ينشأ منذ البداية مكتملا. وانما تعد الصورة المكتملة لهذا النتاج المرحلة الأخيرة التى تطور اليها عن طريق الروايةالشفوية • فمن المحتملأن السيرة جمعت بين أخبار كانت تروى فى زمن الجاهليةوالعصر الاسلامى وعصر بنىأمية وعصر بنى العباس ، وأن القاص استغل تلك المادة المروية فى خلق حكاية

مكتملة تمثل أحوال الدولة الاسلامية فى فترة زمنية محددة . وعلى ذلك يمكننا أن نتساءل عن الزمن الذى اتخذت فيه السيرة شكلها المكتمل ؟ وهنا نرجح أن السيرة كانت تروى مكتملة بعد عصر المعتصم ويحملنا على هذا الترجيح سببان . أولهما أن الراوى كثيرا ما يشير الى أن السيرة كانت تروى للواثق بالله بناء على طلبه ، وان الواثق بالله كان يستوقف الراوى فى بعض الأحيان ليسأله عن أمر من الأمور ، ومثال ذلك ما يذكره الراوى من أن الواثق بالله استوقفه حينما أخذ يروى عن شخصية من شخصيات السيرة هى شخصية الهدلوس بن مناطح التيوس . فقد سأله الواثق : « كيف مناطح التيوس ؟ فقلت يا أمير المؤمنين قد سألت رجلا شديد البأس من أصحاب الهدلوس عن ذلك فقال لى أنه كان رجلا شديد البأس ، صعب المراس ، قوى الأساس ، وكانت رأسه تدور عليه فى بعض الأوقات فلا تهدأ عليه حتى تعبر التيوس الكبار ، فيناطحهم حتى يهربوا من بين يديه فتهدأ رأسه » . (١)

هذا النص وغيره من النصوص ربما يحمل القارىء على الاقتناع بأن السيرة انما كانت تروى للواثق بالله . وربما كان ذلك من قبيل تأكيد قيمة السيرة ، حيث انها كانت تروى للخلفاء . أما السبب الثانى الذى ربما حملنا على قبول افتراض ان السيرة اتخذت شكلها المكتمل فى الزمن التالى لعصر المعتصم ، هو ان حوادث السيرة قد انتهت حقا بنهاية حكم المعتصم بالله . وأما الجزء الأخير الذى يمتد بالحوادث بعد ذلك ، فيحكى أن الواثق بالله حينما سمع بأخبار السيرة حتى وفاة المعتصم بالله ، هب من فوره ليتوج بطولة أبيه ، فاستأنف معاركه مع الروم ، هذا الجزء نعده مقحما على السيرة لأن النصر النهائى ، قد تحقق فعلا على يد المعتصم بالله كما تحكى السيرة ، ولأن اسلوب هذا الجزء ، من ناحية أخرى بعيد

---

(١) السيرة : ج ١٤ ص ٥٧

عن الأسلوب الواقعي الذى التزمته السيرة فى كل اجزائها الى حد كبير .

ففى هذا الجزء يحكى الراوى عن الأبطال حكاية شبيهة بحكايات ألف ليلة وليلة الخرافية . فقد حبس الأبطال داخل كهف لم يعرفوا لهم فيه مخرجا . ثم عثروا على طلسم استطاعوا ان يفكوا رموزه . وقد تبين أن الطلسم وضع فى هذا المكان منذ زمن لينقذ من يحبس فى الكهف من الهلاك ، اذ كان يشير الى وسيلة يستدعى بها الجن الذين يلبون رغبة المأسورين فى لحظة . فما أن استدعى الأبطال الجن وطلبوا منهم أن يحملوهم الى أهلهم ، تحققت رغبتهم، ووجدوا انفسهم بين ذويهم وهناك ماتوا بينهم (١) .

على ان هناك شيء آخر يدفعنا الى افتراض أن السيرة كانت تروى كاملة فى العصر التالى لعصر المعتصم ، هو أن السيرة حرصت على تبلغ الذروة ببطولة الأبطال فى عصر المعتصم لأنه من وجهة نظر الراوى كان يمثل الخليفة البطل ، الذى حرص أكثر من غيره من الخلفاء على أن يكلل كفاح الأبطال بالنصر ، فبذل معهم جهدا بالغا حتى حقق معهم هدفهم ، بل هدف الدولة الاسلامية كلها .

وليس معنى هذا أن رواية السيرة قد انتهت بانتهاء عصر الواثق ، وانما ظلت تروى بعد ذلك قرونا ، فقد حكى السموءل ابن يحى المغربى ، اليهودى الذى اعتنق الاسلام عام ٥٥٨ هـ ، فى مذكراته ، أنه كان يستمع الى رواية سيرة الأميرة ذات الهمة(٢).

واذا كانت الرواية الشفوية من شأنها أنها تعرض النص المنقول الى الاضافة والحذف وربما الى التغيير ، فاننا نتوقع أن تكون

---

(١) السيرة جـ ٧٠ ص ١٣٢ وما بعدها .

(٢) Martin Schreiner : Samau'al B. Yahya-al-Maghribi und seine Schrift (Monatsschrift für geschichte und Wissenschaft des Judentums) Jahrgang 42, Berlin 1898, S. 127.

السيرة قد تعرضت لاضافات عبر الأجيال. فكثيرا ماتحكى السيرة عن العرب الذين تركوا الاسلام واعلنوا ولاءهم للدين المسيحى مناصرين فى ذلك عقبة ، فكانوا بذلك شوكة فى ظهر المسلمين الأبطال . وربما كان ذلك اشارة الى قبيلة بنى حبيب التى تركت ديارها عام ٣٣٠ هـ ، واعلنت ارتدادها عن الاسلام وولاءها للبيزنطيين (١) .

كما ان بعض حوادث السيرة تشير الى الحروب الصليبية . فهى تحكي عن ميلاس ملك الافرنج الذى اراد أن يحرر أورشليم من يد العرب . ولذلك فقد اتفق مع القيصر أرومانوس على أن يسمح لجيوشه بأن تمر خلال أرضه (٢) . واذا كانت الحروب الصليبية قد بدأت في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، فاننا نتوقع أن تكون حادثة ميلاس صدى للحروب الصليبية ، أى أنها صدى للحوادث التى عاشتها السيرة في أثناء روايتها .

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى الحديث عن المكان الذى يمكن أن يعد منشأ السيرة ، فربما اسعفتنا فى ذلك القرائن الملموسة . فالسيرة كماهو واضح قد نشأت لتمجيد أسرة بنى كلاب، واعلاء شأنها في الجهاد

---

(١) يقول ابن حوقل : « ولم تزل - أى الجزيرة - على ما ذكرته منذ اول الاسلام معروفة بكثرة الثمار ورخص الاسعار الى سنة ثلاثين ثلاثمائة ، فأكب عليها بنوحمد ان بضروب الظلم والعدوان ودقائق الجور والغشم ، وتجديد كلف لم يعرفوها ، ورسم نوئب ما عهدوها ، الى المطالبة ببيع الضياع والمسقف من العقار ، حتى حمل ذلك بنى حبيب الى أن خرجوا بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم فى نحو عشرة آلاف فارس عتيق وسلاح شاك ، فتنصروا بأجمعهم ، وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحس لهم النظر فى انزالهم على كرائم الضياع ... ثم لحق بهم كثير من المتخلفين عنهم وانتمى اليهم من لم يك منهم فشنوا الغارات فى بلاد الاسلام »

(كتاب صورة الارض لابن حوقل . ج ١ ص ٢١١ ط . ليدن ١٩٣٨) .

(٢) السيرة جـ ٦١ ص ١٦ .

الذي تحملته الدولة الاسلامية ضد الروم . واذا كانت قبيلة بني كلاب قد استوطنت في مناطق الثغور لتقوم بدورها في هذا الجهاد كما تذكر دائرة المعارف ذلك ، وكما يذكر القلقشندي ذلك في كتابه «صبح الأعشى» (١) فاننا نتوقع بعد ذلك أن يكون الموطن الأول للسيرة هو منطقه الثغور أي بلاد الشام .

وليس غريبا أن تنشأ في منطقة الثغور ملحمة عربية تشيد بكفاح الابطال في الحروب العربية البيزنطية ، وهي المنطقة التي عرفت صورا من البطولة في احقاب متتاليه حكى عنها المؤرخون بايجاز وأسهبت في وصفها الكتب التي تتخذ طابع التراجم الذاتية مثل كتاب « الاعتبار » لاسامة بن منقذ . والحق أن من يقرأ الاعتبار وما فيه من حكايات بطولية تحكي بوصفها حقائق عاشها الكاتب، يدرك حينئذ ان السيرة لم تغرب كثيرا في وصف نماذج ابطالها . ولا يسعنا سوى أن نحيل القارىء على قراءة كتاب الاعتبار الذي يعد في الحقيقة تصويرا واقعيا لعلاقة المسلمين بالنصارى في شتى مظاهرها الحربية والسلمية معا .

واذا شئنا ان ندعم رأينا من حيث أن السيرة قد نشأت اول الأمر في منطقة الثغور اننا نستند الى القرائن اللغوية في السيرة

(١) يقول القلقشندي : « ومن بني عامر صعصعة بنو كلاب ، وهم بنو كلاب بن عامر بن صعصعة ، وكان لهم في الاسلام دولة باليمامة ، وكانت ديارهم حمى ضرية وهي حمى كليب وحمى الربذه في جهات المدينة النبوية ، وفدك والعوالي . ثم انتقلوا بعد ذلك الى الشام ، فكان لهم في الجزيرة الفراتية صيت وملكوا حلب ونواحيها وكثيرا من مدن الشام » . ثم يذكر القلقشندي بعد ذلك انهم ينتسبون الى عبد الوهاب بن بخت المذكور في سيرة البطال ، وأنهم كانت لهم غارات عظيمة على بلاد الروم ، وان بنات الروم وأبناءهم كانوا يباعون من سباياهم » .

(القلقشندي : صبح الاعشى . المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٣ . جـ ١ ص ٣٤٠ .

نفسها . فكثيرا ما تصادفنا الفاظ تختص بلغة الشـــام العاميـــة ومثال ذلك كلمتا « ايش » و « أيشم » أى اشأم . ثم تعبـــــير « شحط برجليه فى الأرض » (١) . والشحاطه في لغة الشام هى حذاء البيت . ومثال ذلك كذلك « ما هذا راى مليح » (٢) . هـــذا فضلا عن أن السيرة تستخدم بعض الالفاظ والعبارات الاغريقية التى كان يسمعها المحاربون ويفهمون معناها . ومثال ذلك عبارة « كيرياليسون » (٣) التى كان يرددها المحاربون الروم حينمايدخاون معركة ضد العرب . والعبارة العربية تحريف للعبارة الاغريقيـــة « كريااليســـون » ومعناها : يارب رحمتك . وبالمثل فان السيرة ـ تحكى ان الأبطال كانوا يهتفون بعبارة « لوريك! » (٤)اذا دخلوا المعركة. ويذكر جريجوار أن هذه العبارة أرمينية ، وكان يهتفبها المحاربون وقت الشدة ومعناها : « اللهم احفظنا » (٥) . والى جانب هذا فان السيرة تستخدم بعض الأسماء الاغريقية لبعض الأمكنة والبقاع وتحاول أن تفسر معناها . ومثال ذلك قلعة « دبابيك »(٦) اى برج الشيطان كما تذكر السيرة . وربما كانت دبابيك تحريفا لكلمة ديابولوس التى تعنى الشيطان. وكذلك «دير كريكانوس» (٧) وتذكر السيرة ان معناه دير النذور،وبالمثل قصر طانيا (٨) أىنصف الدنيا . وكل هذا ان دل على شيء فانما يدل على أنالسيرة نشأت فى المكان الذى كانت تشيع فيه تلك الألفاظ والعبارات ، سواء العربية منها أم الاغريقية. أي انهانشأت فىمنطقةالثغور،موطن بنى كلاب الذي استقروا فيه بعد هجرتهم من قلب الجزيرة العربية .

---

(١) السيرة ج ١٦ ص ٥١ . (٢) السيرة ج ١٧ ص ٣١ .
(٣) السيرة ج ٤٢ ص ٨ . (٤) السيرة ج ٣٩ ص ٤ .
(٥) جريجوار : مجلة بيزنطيون ١٩٣٥، ص ٦٦٥. (٦) السيرة ج ٣١ ص ٤١ .
(٧) المرجع السابق نفس الصفحة . (٨) المرجع السابق نفس الصفحة .

ب ـ الاساس التاريخى للسيرة :

اذا كانت اللغة الأدبية من شأنها ان تعيد تشكيل الشخوص التاريخية بحيث تجعلها تقترب كل الاقتراب من نفسية القارىء ، فان سيرة الاميرة ذات الهمة قد اعادت تشكيل الشخوص التى روى عنها التاريخ اخبارا موجزة للغاية بحيث جعلتها تعيش مع الشعب بوصفها أروع نماذج للبطولة . ولذلك فقد عاشت شخصية عنترة والظاهر بيبرس والبطال ، فى ضمير الشعب وما تزال تعيش فى ضميره حتى اليوم .

ومعظم شخوص سيرة الأميرة ذات الهمة ـ اذا استثنينا شخصيتى ذات الهمة وعقبة اللتين لم نستطع ان نستدل على اصلهما التاريخى ـ تاريخية . فالطبرى يحكى أن « عبد الوهاب بن بخت غزا مع البطال عام ١١٣هـ . فانهزم الناس عن البطال وانكشفوا فجعل عبد الوهاب يكر فرسه وهو يقول : ما رأيت فرسا أجبن منك ، وسفك الله دمى ان لم اسفك دمك . ثم ألقى بيضته على رأسه وصاح انا عبد الوهاب بن بخت أمن الجنة تفرون ؟ » (١) .

كما يحكى الطبرى أن عمرو بن عبيد الله ويحيى الأرمنى كانا بطلى عصرهما . وقد كان الشعب يحبهما الى درجة ان موتهما عام ٢٤٩ هـ أحدث شغبا واضطرابا بين الشعب ، فتدفق الناس من كل صوب متجهين الى بلاد الـــروم طالبين بثأرهما . ولم يحقق المسلمون ـ فيما يقول الطبرى ـ بعد موتهما أية انتصارات ظافرة(٢) . واذا كان يحيى الأرمنى وعمرو بن عبد الله قد توفيا عام ٢٤٩ هـ. كما أن عبد الوهاب توفى عام ١١٣ هـ (٣) والسيد البطال توفى

(١) الطبرى جـ ٣ ص ١٥٥٩ .   (٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٥٠٩ .

(٣) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٥٥٩ ـ ١٥٦٠ .

عام ١٢٢ هـ (١) ، فاننا نلاحظ اختلاف الأزمنة التى عاش فيها الأبطال ، فى الوقت الذى تجمع السيرة بينهم وتجعلهم يعيشون حوادث واحدة . وسبب هذا أن السيرة حينما شاءت أن تمجد قبيلة بنى كلاب وتفخر بها على سائر القبائل بخاصة قبيلة بنى سليم ، جمعت بين بطل بنى كلاب وهو عبد الوهاب وبطل بنى سليم وهو عمرو بن عبيد الله . ولما كان السيد البطال بطلا صديقا لعبد الوهاب ، فقد جعلته السير يناصر قبيلة بنى كلاب ضد قبيلة بنى سليم ، الأمر الذى يرفع من شأن قبيلة بنى كلاب ويبرزها على قبيلة بن سليم .

على أنه ينبغى علينا أن نتساءل عما اذا كانت العلاقة العدائية بين بنى كلاب وبنى سليم ترتكز على أصل تاريخى . سبق أن ذكرنا ـ نقلا عن دائرة المعارف الاسلامية وعن القلقشندى ـ أن قبيلة بنى كلاب التى تنتسب الى قيس كانت تسكن فى قلب الجزيرة العربية ، وأنها نزحت فيما بعد الى الشام وأرض الجزيرة. ويضيف القلقشندى أن هذه القبيلة كثيرا ما شنت الغارات على الحدود الرومية ، وانهم ينتسبون الى عبد الوهاب بن بخت الذى سجلت بطولته فى سيرة البطال .

هذا فيما يختص بقبيلة بنى كلاب وعلاقتها بالروم . أما فيما يختص بقبيلة بنى سليم ، فتذكر دائرة المعارف الاسلامية أن جزءا من هذه القبيلة كان يسكن أرض الجزيرة . ولا يذكر المؤرخون بعد ذلك شيئا عن الدور الذى قامت به قبيلة بنى سليم فى المعارك العربية البيزنطية . على أنه من المتوقع ، بما أنها كانت تسكن أرض

---

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ١٧١٦ . ونلاحظ أن الاسم الكامل لعبد الوهاب وهو عبد الوهاب بن بخت قد ورد فى كل من تاريخ الطبرى وصبح الأعشى . أما السيرة فلم تذكر الاسم كاملا واكتفت باسم عبد الوهاب . أما اسم يحيى الأرمنى فقد ورد اسمه فى السيرة عبرا ومثال ذلك ج ٢٤ ص ٧ و ٨ من السيرة .

الجزيرة ، أنها أسهمت فى هذه المعارك بخاصة وأن عمرو بن عبيد الله كان ينتسب اليهم . وقد كان عمرو هذا أمير ملطية عاصمة الثغور كما يذكر المسعودى وكما تذكر السيرة ذلك كثيرا .

على أن هذا لا يفسر العداء المستحكم بين القبيلتين كما تصوره السيرة . كما أن المؤرخين لا يذكرون شيئا واضحا عن هذه العلاقة العدائية . ونحن نرجح ان سبب هذا العداء - وان لم يشر اليه المؤرخون - يرجع الى الغيرة المستحكمة فى نفوس القبيلتين ، حيث انهما ترجعان الى أصل واحد وهو قيس . وتذكر دائرة المعارف الاسلامية أن بنى سليم تعد أكبر فرع لقبيلة قيس وأنهم كانوا يسيطرون على الطريق بين مكة والمدينة ، الأمر الذى كان يدفع الخلفاء بخاصة فى زمن بنى أمية ، الى استرضائهم . وقد استمرت علاقة بنى سليم بالخلفاء العباسيين بين مد وجزر ، حتى كان عصر الواثق بالله ، فنجدهم يبسطون نفوذهم فى المدينة ويهددون سكانها . وكل هذا يؤكد قوة نفوذ قبيلة بنى سليم فى كل من العصرين الأموى والعباسى . وليس بعيدا أن تنفس قبيلة بنى كلاب على قبيلة بنى سليم سلطانها وقوتها . وقد عاش هذا الحسد فى قلوب أفراد بنى كلاب حتى نجدهم يسجلون مجدهم ويؤكدون وجودهم فى خضم الحوادث التى عاشتها الدولة الاسلامية ، الداخلية منها والخارجية . ولعل هذا يفسر لنا نزوع السيرة الى الحط من شأن بنى سليم . بل أنها نسبت اليهم النفاق الذى كان ينخر فى عظام الدولة ويعمل على انهيارها ، متمثلا فى شخصية عقبة السليمى .

فاذا انتقلنا الى الحوادث التى تعرضها السيرة ، فاننا نجدها تتبع كلها أو جلها من أحداث التاريخ . فالسيرة تبتدىء بعصر عبد الملك بن مروان وتنتهى بعصر الواثق بالله . وقد مرت الدولة الاسلامية فى تلك الحقبة من الزمن بحوادث داخلية خطيرة . وكل هذه الحوادث عرضتها السيرة فى اسهاب ، ولونها خيال الراوى

بحيث أصبحت تأخذ طابعا قصصيا جذابا • فانتقال الخلافة من الدولة الأموية الى العباسية ، ونكبة البرامكة والصراع بين الأمين والمأمون ، كل هذا تحكيه السيرة فى عرض أقرب ما يكون الى التاريخ كما أنها تحاول الربط بينه وبين حوادث السيرة الرئيسية التى تتلخص فى موقف بنى كلاب من حوادث عصرهم .

أما الحوادث التى صادفت هوى عند القاص ، فلونها بخياله وان احتفظ بجوهرها فهى تلك التى تتصل بالثورات التى حدثت سواء عند العرب أم عند الروم • وقد كانت هذه الثورات مادة خصبة للقصاص بحيث أنها تركت أثرا واضحا فى سيرة الأميرة ذات الهمة وفى الملاحم البيزنطية التى سنتعرض لها وشيكا . ويهمنا أن نشير الى أهم تلك الثورات لكى نرى الى أى حد كان صداها فى الحكايات الشعبية •

فى عهد ميشيل الثانى (٨٢٠ ــ ٨٢٩ م) ثار ثائر يدعى توماس الصقلبى استطاع أن يجذب حوله الذين اضطهدوا فى الحملة التى شنت ضد عباد الصور (١) . ولم تكن العوامل الدينية وحدها هى التى جعلت توماس قويا . لأننا نجد فى تاريخ ثورته أثرا من حركة

---

(١) فى عهد الأسرة الأيسورية قامت حملة ضد عباد الصور المبالغين فى عبادتها أريد بها تحطيم الصور وصرف الناس عن عبادتها . وكان زعيم هذه الحملة ليو الأيسورى • ويقال ان ليو الأيسورى فعل هذا لأغراض سياسية ، شاء من ورائها أن يتقرب للمسلمين • وقيل أنه قام بها متأثرا بالحركة التى قام بها يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ حينما كتب الى حنظلة بن صفوان والى مصر أن يكسر الأصنام والتماثيل • فكسرت كلها ومحيت من ديار مصر • (أنظر روح الحضارة العربية ترجمة لدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٧٦) ويذكر فيليب حتى فى كتابه تاريخ سوريا ص ٤٤٦ ان ليو هذا كان جنديا فى سوريا ينتمى الى أسرة وضيعة فى مرعش • وكان يعرف أمور الخلافة جيدا . وكان يجيد العربية كما يجيد اليونانية . وحينما قام بحركته هذه وصفه مؤرخ بيزنطى بأنه ذو عقلية عربية •

اجتماعية . فان سكان آسيا الصغرى المجهدين بالضرس المستضعفين امام جور الطغيان الرومى وتحكم الحكام والموظفين قد رأوا فى توماس محررا ، فدخلوا فى حزبه أملا فى تحسين مستقبلهم »(١) . و « أما ناحية هذه الثورة السياسية فمهمة لأننا نلاحظ حلفا حقيقيا كاملا بين توماس والعرب . فلم يكن وجود الفرق العربية فى جيش توماس اتفاقا . ولم يكن دخولهم فيه رغبة فى السلب والغنيمة، وانما كان المأمون فى ذلك متبعا خطة دقيقة التحديد عدائية للروم » (٢) . .

وهكذا تحالف الخليفة المأمون مع توماس الثائر فهددا الدولة البيزنطية زمنا طويلا . ولكن الدولة البيزنطية عبأت كل جهودها للقضاء على توماس وأنصاره . فلما انهزم توماس عام ٨٢٥ م انهزم المأمون فى شخصه .

أما عن أثر هذه الحركة فى السيرة ، فقد سبق أن أشرنا الى قصة الثائر كوشانوش ضد الدولة البيزنطية ، وأن امبراطور الروم طلب من ذات الهمة معاضدتها ضد الثائر فى مقابل أن يتنازل لها عن عمورية . فقبلت الأميرة عرض الامبراطور لعلمها أن خطورة الثائر على الدولة الاسلامية لا تقل عن خطورته على الدولة البيزنطية هذا فضلا عن انها ستغنم عمورية . كما أن تصرفها هذا لا يعنى سوى مصالحة الدولة البيزنطية الى حين . فلما عارضها المأمون فى موقفها لأنه كان يود أن يستغل فرصة هذا الثائر فيتحالف معه مكونا قوة كبيرة تحارب الدولة البيزنطية ، لم تقتنع الأميرة ذات الهمة بذلك ، وهددها المأمون بدوره فردت

---

(٢) فازيلييف : العرب والروم . ص ٢٩ . (ترجمة الدكتورين فؤاد حسنين، وعبد الهادى شعيرة ـ دار الفكر العربى) .

(٣) المرجع السابق ص ٣٠

عليه قائلة : « ودعنا فى ملطية فى وجوه الكفرة لا لك ولا علينا فيخرج الأمر من يديك ويدينا » .

ويمكننا أن نعد هذا الحادث فى السيرة صدى للموقف الذى وقفه المأمون من ثورة توماس . وكأن السيرة ترد على هذا الحادث بأنه ما كان ينبغى على المأمون أن يؤازر هذا الثائر وأن يدخل فى معركة غير مأمونة العاقبة ، وكان أولى له أن يستغل هذا الموقف فيكسب شيئا مؤكدا من ورائه كما فعلت ذات الهمة .

أما الثورة الثانية التى قامت ضد الدولة البيزنطية وكان أثرها واضحا فى القصص الشعبى فهى ثورة قرباص . وكما كان الدافع وراء ثورة توماس الاضطهاد الدينى ، كذلك كان الدافع وراء ثورة قرباص هو الاضطهاد الدينى وان اختلفت ظروف الاضطهادين . فقد « كانت السياسة الأرثوذكسية الخالصة التى تتبعها الدولة لا تحتمل بقاء مذاهب دينية متعددة فى الدولة . وكان هناك جماعة من الخارجين على الأرثوذكسية هم البوليصيون وكانوا يعيشون فى أمن على حدود العرب يؤدون للامبراطورية الرومية أجل الخدمات . على أن الحكومة قررت قرارا قاسيا هو ارجاعهم الى الأرثوذكسية بالقوة ، الأمر الذى دفع البوليصيون الى الفرار الى ما وراء الحدود حيث تلقاهم العرب فرحين . ومن بين هؤلاء قرباص الذى هرب الى عمرو بن عبيد الله أمير ملطية(١) » ويذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٤٢ هـ أن الروم « خرجت من ناحية شمشاط بعد خروج على بن يحيى الأرمينى من الصائفة حتى قاربوا أمد ثم خرجوا من الثغور الجذرية فانتهبوا عدة قرى وأسروا نحوا من عشرة آلاف انسان وكان دخولهم من ناحية

(١) فازلييف : العرب والروم ص ٢٠٣ الى ٢٠٥ .

ابريق قرية قرياقس ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم فخرج قرياقس وعمرو بن عبيد الله الأقطع وقوم من المتطوعة فى أثرهم فلم يلحقوا منهم أحدا » (١) .

ومن الطبيعى ان تترك مثل هذه الحـادثة أثرا فى القصص البطولى فى منطقة الثغور ولذلك فسوف ندرك أثرها الواضح فى الملاحم البيزنطية . اما بالنسبة للسيرة فقد كان القاص يجـد فى مثل هذه الحوادث مادة ممتعة وفيرة يلونها وفق هواه . ولهـذا فانها تبتعد فى تفصيلاتها عن الحقائق التاريخية على عكس الحوادث العربية الصرف التى يعيشها المستمع عن قرب . ولنترك السيرة تحكى لنا عن صدى هذا الحادث . تقول السيرة : « وبلغ خبره (أى خبر كوشانوش الذى كان يحكم مستقلا عن الملك الرومى فى قلعة) الى الملك ميخائيل فهم أن يسير اليه بعساكره فقال له البترك : أيها الملك ان أنت فعلت ذلك أخرقت حشمة ملكك لأن هذا قد صار عندهم معظم .. هذا وكوشانوش كان يصيد السباع فى الفلوات حتى فرت من تلك الأرض ، وكان يمضى خلفها الفرسخ والفرسخين حتى يصطادها ، وكان هائل المنظر عظيم الهيكل كأنه الجمل وقومه أزيد من ثلاثمائة الف فارس . ثم أقبل على قومه وقال لهم : خذوا الأهبة لقتال الروم وفتح القسطنطينية حتى تصير لنا المملكة . وبعد ذلك تصير الروم كلها من تحت أيديكم وتملـكوا البلاد شرقا وغربا وبعدا وقربا .. ووصل الخبر الى الملك ميخائيل ... وسمع أن كوشانوش قد طلبه فى ثلاثمائة ألف .. وأنه فتح القلعة وحده وفيها الفين بطريق معظم فى عينيه وقال هذا أشد على من المسلمين .. هذا وأن البطال هو وغلمانه قد اختلطوا مع

---

(١) الطبرى : ج ٣ ص ١٤٣٤ .

عساكر كوشانوش من النهار وقالوا هذا الملك أحب الينا من غيره لأنه قد وعده المسيح أن يملك الأرض ... » (١) .

ثم تظل السيرة تحكى لنا عن المعركة التى دارت بين هـذا الخارجى وبين ميخائيل ، تلك المعركة التى أسفرت عن أسر الملك ميخائيل وبعض أبطال العرب . فيما عداه الأميرة والبطال. ولهذا فقد انتهزت الأميرة ذات الهمة فرصة خلو بلاد الروم من حاكم يحكمها . اذ كان كوشانوش قد أوغل بجيشه بعيدا يطلب الانتصار تلو الانتصار ، فدخلت الأميرة بجيوشها الى القسطنطينية ، الأمر الذى دفع كوشانوش لأن يرجع اليها فى سرعة. وانهزم كوشانوش وأطلق سراح الملك الرومى ميخائيل الذى رجع الى بلاده واسترد ملكه .

ولا يسعنا سوى أن نفترض ان مثل هذه الحوادث فى السيرة ليست سوى صدى لثورة توماس او قرباص أو غيرهما .

فاذا انتقلنا الى ذكر أثر الثورات العربية على القصص الشعبى فاننا نلاحظ أن السيرة كثيرا ما تشير الى ثورات يقوم بها خارجون من الفرس على الدولة الاسلامية . فمن ذلك ماتذكره السيرة عن ثورة ذى النجدتين اسماعيل بن هزامرد ضد المعتصم(٢) . وما تذكره كذلك عن ثورة رجل يدعى هرمس .. فتحكى أنه « كان فى أرض البصرة حصنا منيعا يقال له الحمام وكان قديما من عهد الأول وكان خرابا فتبناه رجل يسمى هرمس وكان مجوسيا يعبد النار وكان شجاعا مناعا ومعه اربعمائة رجل كأنهم السباع وقد قطع الطريق وخان السبيل وأخذ القوافل وملك البلاد . فاتصلت أخباره الى الخليفة فأرسل ينهاه عن ذلك » . أما

(١) جـ ٣١ ص ٤٨ الى ٦٠ .

(٢) جـ ٤٧ ص ٣٠ .

عقبـة فانه قال : « ما يتم ما أريد الا بهـرمس . فسير اليه عشرة آلاف دينار وغيره ودخل على المعتصم وقال له : اشتهيت أن أزور أمير المؤمنين على بن ابى طالب . فقال له الخليفة المعتصم اصبر حتى يرحلوا الى ملطية وارجع سافر . فقال له يا أمير المؤمنين لا يمكنني ذلك لأننى رايت الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه فى النوم وهو يتشوق الى ويقول لى يا قاضى ما صرت تشتاق الى زيارتى . فقال له المعتصم افعل ما بدا لك .. ولـكن قل لى متى تعود . فقـال في غـداة غد أروح .. ثم انه أوصى المعتصم بكتمان سره .. وسار (أى عقبة) يقطع الأرض الى أن وصل الى البصرة وعرج منها طالب حصن الامام ونزل على هرمس المجوسى..
فقال له عقبة يا هرمس اعلم اننى كما يقال ويقولون عنى أعدائى بأننى نصرانى وذلك بأنى اختبرت جميع الأديان فما أعجبنى منها الا دين النصرانية لأن لى فيه منافع ومسرة . ومهمـا أردت من المـال فان الروم كلهم خلفى ومن تحت حكمى وهم فى عدد الرمال والحصى وأموالهم لى مباحة .. ولقد كان الملك أرمانوس قد قال لى أريد منك رجلا شجاعا صنديدا مناعا فكتبت اليه أقول، ما أعرف بهذه الصفة الا رجلا يقال له هرمس المجوسى وله عند الخليفة اقطاع مقدار عشرون قرية فى الديوان . فكتب الى يقول : يأتى الى وأنا أعطيه مدينة من مداين الروم كبيرة حولها ضياع بعـدد أيام السنة وهى الروضة الـكبرى وأقدمه على عسكرى » (١) .

فاذا شئنا أن نربط بين هذه الحوادث والوقائع التاريخية التى ترتبط بها ، فاننا نقف قليلا أمام ثورتين كان لهما ابلغ الأثر فى البلاد الاسلامية من ناحية وفى الحروب العربية البيزنطية من ناحية أخرى .

---

(١) ج ٤٩ من ص ٣ الى ٥ .

فقد نجم عن الصراع بين الأمين والمأمون ثورة نصر بن شبث العقيلى أحد انصار الأمين . ويروى فازلييف أخبار نصر بن شبث نقلا عن المؤرخين البيزنطيين أهمهم ميشيل السورى فيقول : « ولو ان نصرا كان طاغية فانه كان يحب المسيحيين ويفرض جزية قاسية على كل من يترك منهم دينـــه . وكان يقول : ليس لى عندكم الا الجزية وكل فرد منكم بعد ذلك حر فى اختيار عقيدته . وهكذا عاد الكثيرون من المساجد الى الكنائس » (١) .

ويضيف فايل فى كتابه « تاريخ الخلفــاء » الى قول ميشيل حوادث اخرى فيقول : « ولمـا علم نصر الثائر أن المأمون ، ملك الطائيين تهيأ للقدوم الى بغداد دعى كاتبه وهو مسيحى متعـلم وأملى عليه خطابا للبطريق امانويل كما لو كان يريد التحالف مع الروم . فلما علم الامبراطور ميشيل بذلك ، بعث رسله فوصلوا الى كيسوم فوجدوا نصرا خرج الى سروج ، وبلغه الخبر وهو بها فجمع انصاره وأعلمهم الخبر وفخر بقدوم رسول الروم . فحنق الأنصار وقالوا : أتريد أن تغضب الله وترتد ؟ حتى ملأوا نفســه حقدا بمثل هذا الكلام فأرسل من قتل رســـول الروم » (٢) . ثم يقول : « وكان الثعبانان نصر والعباسى (وهو حليف لنصر) يسودان فى كل المنطقة الغربية ويذيقون الناس العذاب . وكانوا يتحاضون على الشراب ويتنافسون فى القوة على احتماله » (٣) .

وكان على المـأمون أن يواجه ثورة أخرى غير ثورة نصر وهى ثورة بابك الخرمى التى اندلعت فى أذربيجان عام ٨١٦م . « وكان الثوار اتباع مذهب شيوعى هو الخرميــة وعلى رأســـهم بابك الفارسى . وكانوا يسكنون خاصــــة الاقليم الجبلى الواقــع بين

---

(١) فازيلييف : ص ٨٣ .
(٢) فازيلييف : ص ٨٧ .
(٣) المرجع السابق ــ نفس الصفحة .

أذربيجان والديلم الى همذان والدينور . وكان كثير من قبائل هذه الناحية اعتنق آراء بابك وثاروا معه على المأمون . وتميزت هـذه الثورة بحدتها وتعصب الفريقين المتحاربين . وقد طالت عشرين سنة ولم تنته الا بعد موت المـأمون . وانهزمت فى أثنـاء ذلك جيوش الخليفة مرات وأباد بابك الجيش الذى بعثه الخليفة فى ٨٢٩ ــ ٨٣٠ كله مـــع قواده .. وقـــد قورنت خططه بخطط هانيبال » (١) .

ولم تنته الثورتان فى عصر المأمون وانما امتـــدتا حتى عصر المعتصم بالله . ففى شتاء عام ٨٣٣ م أرســـل المعتصم أمير بغداد اسحق بن ابراهيم فأهلك ستين الف فارسى فى همدان وهـرب الخرمية الآخرون الى الروم مع رجل يسمى نصر ويسميه الروم تيوفوب » (٢).

ويقال ان نصراً هذا هو نصر بن شبث . وكان لهذا الأخير ولد يسمى منصورا خلد اسمه فى الملحمة البيزنطية كما سنرى ذلك فيمـا بعـد .

ولعل كل هذا يؤكد لنا أن ماترويه السيرة من أخبار الثورات التى قامت فى كل من الدولة البيزنطية والدولة الاسلامية انمـا يرتكز على أساس واقعى .

ونضيف الى هذا أن السيرة لم تغفل عن ذكر أهم المعـــارك الحربية التى دارت بين العرب والروم مثل حملة مسلمة بن عبد الملك التى اشترك فيها الصحصاح جد الأميرة ذات الهمة (٣) .

---

(١) المرجع السابق ص٨٨ وانظر الطبرى جـ٣ ص١٠١٥ .
(٢) فازيلييف : ص ١١٣ .
(٣) انظر ملخص السيرة .

وقد ذكرت السيرة أن حصار العرب للقسطنطينية دام سنين طويلة حتى اضطر العرب الى بناء مدينة مواجهة للقسطنطينية أطلقوا عليها اسم المستجدة . وبالمثل فان كتب التاريخ تحكى لنا كثيرا عن هذه المعركة التى دامت سبع سنوات انتهت بفشل العرب فى فتح المدينة الحصينة (١) .

وبالمثل فقد اسهبت السيرة فى وصف معركة عمورية . وكانت حادثة المرأة التى أسرها الروم وكانت «وامعتصماه»(٢) موضوعاً مثيرا استغله القاص فى وصف معركة عمورية ، وربط به تحركات المعتصم فى هذه المعركة حتى فرغ من الاستيلاء على عمورية . تقول السيرة : « ثم أن المعتصم أدار وجهه الى بلاد الروم وقال لبيك لبيك أيتها الداعية لبيك لبيك أيتها المنادية ، ناديتى على أذن صاغية وعين على خلاصك باكية ، ولابد لى ما ارمى الروم من أجلك بداهية ثم هتف بشعره :

---

(١) فى عهد سليمان بن عبد الملك كان الحصار الثالث للقسطنطينية . وكان قد اخترع حديث مؤداه ان مدينة القسطنطينية ستفتح على يد خليفة يسمى باسم نبى وكان الغرض من هذا الحديث حث المسلمين على الجهاد . وبتأثير هذا الحديث تدفق الناس للاشتراك فى معركة حصار القسطنطينية يقودهم مسلمة بن عبد الملك . ويقال ان السيد البطال كان رئيسا لمعسكراته . انظر

M.A. Cheira : La lutte entre Arabes et Byzantines aux VII et VIII siècles. (Société de Publication) P. 180-182.

« وفى ذلك الوقت كان « ليون » الجندى البيزنطى يطمع فى الوصول الى الملك وقالت له الروم . ان صرفت عنا المسلمين ملكناك . فاستوثق منهم . فأتى مسلمة فقال له : ان الروم قد علموا انك لا تصدقهم القتال وانك تطاولهم ما دام الطعام عندك . فلو احرقته اعطوا الطاعة بأيديهم . فأمر فأحرق . فقوى الروم وصاب المسلمون حتى كادوا يهلكون . وبهذا أصبح ليون محاربا وقد صنع خديعة لو كانت امرأة لعيبت بها » . تاريخ ابن الاثير ط . ليدن جـ ٥ ص ١٨ .

(٢) ابن الاثير جـ ٦ ص ٣٣٩

لا رعاني خـــالقي ان لم أكن ... حافظـــا رعيتي منـــاديا
ولا أكون تحت ظل خيمـــة ... حتى أرى بعيني المنـــاديا
قـــد أوجب الله على أنني ... أجيب للداعي اذا دعانيـــا
وأكفل الأيتـــام عن آبائهـــا ... وارحم الأرامل البواكيـــا (١)

فلما فتح المعتصم عمورية ووصل الى زينب الأسيرة ، قال لها: « يا زينب . فقالت له لبيك .. فقال لها ارفعي صوتك ونادي وامعتصماه .. فعند ذلك رفعت صوتها ثم نادت وامعتصماه !.. فأجابها المعتصم وقال لها : لبيك لبيك .. ها انذا قـــد سمعت نداءك وبادرت الى خلاصك من أعدائك » (٢) .

وبهذا نستطيع أن نقول أن الصلة بين حوادث السيرة ووقائع التاريخ قوية . ولـكن هل معنى هذا أن السيرة تحكي لنا تاريخا ؟ هنا يتحتم علينا أن نفرق بين التاريخ العلمي والتاريخ الشعبي . أما التاريخ العلمي فيقوم على أساسين : أولا التـــدوين وثانيا تسلسل الحوادث تسلسلا موضوعيا زمنيا . فاذا افتقدت عملية التاريخ أساسا من هذين الأساسين ، فانه لا يعد تاريخا علميا . أما التاريخ الشعبي فيعتمد أولا على الرواية الشفوية . كمـــا أنه لايحرص على تتابع الحوادث تتابعا زمنيا . فقد يكتفي الشـــعب برواية حادثة ينتزعها من بين ثنايا التاريخ ويظل يرويها لأنها تهمه. وليس من الضروري أن تكون هذه الحادثة مهمة من الناحيـــة التاريخية ، وانما يكفي أن تكون الحادثة مستجيبة لرغبة جماعية، تعيش في نفوس الشعب زمنا طويلا .

---

(١) السيرة جـ ٥٥ ص ٤١ .

(٢) السيرة جـ ٥٦ ص ٣٤ .

ومن ثم فان سيرة الأميرة ذات الهمة تعد تاريخا شعبيا ، لأنها اعتمدت على الرواية الشفوية الى أن دونت ، ولأنها انتزعت بعض الحوادث المثيرة من بين الحوادث التاريخية المتتابعة واهتمت بها دون غيرها . ومن الطبيعي أن تربط السيرة هذه الحوادث التاريخية بنسيج قصتها ، وأن تعتمد في روايتها على رأى الشعب في هذه الحوادث . ويمكننا أن نتبين هذا في وضوح اذا عرضنا لحادثة تاريخية مهمة هي حادثة نكبة البرامكة لكي ندرك الفرق بين ما رواه التاريخ العلمي بصدد هذه الحادثة وما روته السيرة .

يقول الطبري في حوادث سنة ١٨٧ : « فما كان فيها من ذلك قتل الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد وايقاعه بالبرامكة . أما سبب غضبه عليه فانه مختلف فيه . فمن ذلك ما ذكر عن بختيشوع بن جبريل عن أبيه انه قال : انى لقاعد في مجلس الرشيد اذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا اذن . فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم ، فرد عليه ردا ضعيفا . فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير . قال ثم أقبل على الرشيد فقال يا جبريل يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا اذنك .. فقلت لا ولا يطمع في ذلك . قال فما بالنا يدخل علينا بلا اذن .. » (١) ... ...

وذكر أبو محمد اليزيدي وكان فيما قبل من أعلم الناس بأخبار القوم . قال : من قال ان الرشيد قتل جعفر بن يحى بن عبد الله بن حسن فلا تصدقه . وذلك أن الرشيد دفع يحى الى جعفر فحبسه . ثم عاد به ليلة من الليالى فسأله عن شيء من أمره فأجابه الى أن قال : اتق الله في أمرى ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمد صلى الله عليه وسلم فوالله ما أحدثت حدثا ولا أويت

---

(١) الطبري جـ ٣ ص ٦٦٧ .

محدثا . فرق عليه وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله .
قال وكيف اذهب ولا آمن ان أوخذ بعد قليل ، فأرد اليك أو الى
غيرك . فوجه معه من أواه الى مأمنه . وبلغ الخبر الفضل بن
الربيع من عين كانت له عليه من خواص خدمه . فعلا الأمر فوجده
حقا وانكشف عنده ودخل على الرشيد فأخبره . فرآه أنه لا يعبأ
بخبره وقال له : انت وهذا لا أم لك . فلعل ذلك عن أمري . فانكسر
الفضل . وجاءه جعفر فدعا بالغذاء فأكلا ، وجعل يلقمه ويحادثه
الى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن
عبد الله ؟ قال بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال .
قال : بحياتي . فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهنا وأصحهم
فكرا . فهجس فى نفسه أنه قد علم بشيء من أمره . فقال :
لا وحياتك ياسيدى ، أطلقته وعلمت انه لا حياة به ولا مكروه
عنده . قال نعم ، مافعلت ماعدوت ما كان فى نفسى .. فلما خرج
اتبعه بصره حتى كاد ان يتوارى من وجهه ثم قال : قتلنى الله
بسيف الهدى على عمل الضلالة ان لم اقتلك . فكان من امره
ما كان » (١) .

وهكذا يأتى الطبرى بمختلف الآراء التى قيل انها كانت سببا فى نكبة البرامكة ، دون أن يتحمس لراى من الآراء لأن التاريخ العلمى لا يقبل القطع برأى فيها ..

وأما ماتذكره السيرة بصدد هذه الحادثة فيختلف تماما عما يرد فى كتب التاريخ لأن السيرة تحرص كما ذكرنا على أن تربط الحادثة بنسيج حوادثها من ناحية ، وان تعرضها من وجهة نظر الشعب من ناحية أخرى . وفيما يلى نص السيرة فى هذه الحادثة :

---

(١) تاريخ الطبرى : جـ ٣ من ص ٦٦٧ الى ٦٧٠

يقول الراوى : « وأما ما كان من الامام الرشيد ، فانه لما سار ووصل الى ملطية ونزل عليها أمر بعمارتها . فجمعوا الصناع من سائر البقاع وشرعوا فى البناء . وبعد ذلك سار الخليفة الى بغداد ودخل فيها وجلس على كرسى خلافته . وكان عقبة حاضرا فىذلك المجلس . ونظر الى جعفر بين يدى الرشيد ، وكل واحد يتكلم على قدر مايشتهى ويريد ومن جملتهم الوزير جعفر بن يحيى البرمكى، وقد تكلم فى حق الأمير (يعنى الأمير عبد الوهاب ولد ذات الهمة، وتحرص السيرة دائما على أن تلقبه بلقب الأمير) بما يليق بأخلاقه الكريمة . فصعب ذلك على الملعون عقبة ولم يستطع أن يسمع المدح فى حق الأمراء . فنهض من وقته من مجلس الخليفة وقصد الى داره ، وقد صح عنده تعصب جعفر للأمراء لأنه رآه يشكر لهم الاحسان ويرد غيبتهم عند السلطان . فقال : وحق المسيح والحواريين لابد ان أعمل على هلاك البرامكة أجمعين» (١) ثم اتفق مع الفضل بن الربيع على أن يكتب خطابا بخط جعفر البرمكى ويدسه له فى عمامته عن طريق أقرب خادم له . وفىهذا الخطاب يسب جعفر الرشيد ويتهمه بأبشع التهم . وقبل الخادم أن يفعل هذا فى مقابل مساعدة عقبة له على اتمام زواجه ممن يحبها . ثم ذهب عقبة الى الرشيد وأخبره ان جعفر البرمكى يحقد عليه ويعمل على ابعاده عن كرسى الخلافة ، وعلى الرشيد أن يطلع على الرسالة التى يخبئها جعفر فى عمامته حتى يتأكد من صدق قوله .. وفتش جعفر وعثر على الرسالة . فلم يكن هناك مفر من أن ينزل الرشيد النكبة بالبرامكة .

ولم تكتف السيرة بربط حادثة البرامكة بجوهر السيرة ، وانما اسهبت فى وصف نكبتهم وصدى هذه النكبة عند الشعب . ومن

---

(١) السيرة جـ ١٢ ص ٣٥ .

خلال هذا السرد الطويل نتبين كيف كان الشعب يحب البرامكة لكرمهم وحسن معاملتهم الى درجة أن صورت السيرة جعفر وليا نبيء بالـكارثة قبل أن تحدث . فقد « خرج يوما من بعض الأيام يبتغى الصيد فنظر أمامه الى ظبية فتبعها وانفرد عن موكبه . فلما اقتنصها سمع هاتفا يقول هذه الأبيات :

أتطلب صيدا والمنايا تطلبك ... اما بليل أو نهار تعطبك
بجسر بغداد بجامعه يصلبك ... وليس فى الناس حبيبا يقربك(١)

بل ان ولاية جعر أكدت وجودها بعد وفاته . فقد اعتاد رجل أن يعيش على مايتصدق به جعفر عليه . فلما مات جعفر جلس الرجل عند قبره يبكيه حتى غالبه النوم . فراى جعفر فى رؤياه وامره أن يرحل الى البصرة . فيذهب الى حانوت معين وصفه له ، ويقول لصاحب هذا الحانوت : بأمارة الفـــول اعطنى ثلاثة آلاف دينار وفوجيء الرجل عندما وجد صـاحب الحانوت يقـــدم له ثلاثة آلاف دينار على الفور ، وطلب منه أن يفسر له هذا الأمر الغريب . فأخبره صاحب الحانوت بأنه كان رجلا فقـــيرا يبيع الفول . وفى ذات يوم خرج ليبيع الفول فسقط المطر عليه واغرق فوله . ورآه جعفر وعلم انه فقير يسترزق من بيع هذا الفول . فغمره بعطفه وأغدق عليه بمال مكنه من فتح هذا الحانوت الذى يدر عليه ثروة طائلة (٢) .

والشعب مغرم باختراع الحكايات التى تعلل بعض المناسبات التاريخية ، مثل مناسبة بناء مدينة بغداد . فقـد كان المنصور يبحث عن مكان يبتنى فيه المدينة التى شاء بناءها . فأخذ يسير

(١) السيرة : جـ ١٢ ص ٣٠
(٢) السيرة : جـ ١٢ ص ٣٩

حتى وصل الى نهر دجلة ، فاعجبه المكان . ثم رأى ديرا يسكنه راهب . فاستدعاه وسأله عن اسمه . فأخبره أن اسمه باغ ؛ كما أن الأرض التى يسكنها تسمى داد . كما أخبره الراهب بأنه قد قرأ فى الكتب ان هذا المكان ستشيد فيه مدينة كبيرة . عندئذ شرع المنصور فى بناء المدينة وسماها بغداد ، على اسم الراهب والأرض(١) .

ومن هنا ندرك أن الفرق جوهرى بين التاريخ العلمى والتاريخ الشعبى . ومع هذا فالتاريخ الشعبى يعتمد أولا على حوادث التاريخ . وليس أدل على ذلك من أن السيرة تركزت حول حادثة هجرة بنى كلاب الى منطقة الثغور ،والدور الذى لعبوه فىالحروب العربية البيزنطية . ولولا اشارة القلقشندى لهذه الحادثة لحسبناها خيالا صرفا .

---

(١) السيرة : جـ ٦ ص ٤١

الفصل الثالث

السيرة بوصفها .. عملاً روائياً مكتملاً

على الرغم من الصلة الوثيقة بين السيرة والتاريخ ، فان السيرة لا تهدف الى حكاية حوادث حقبة من التاريخ من وجهة نظر الشعب فحسب ، وانما تهدف كذلك الى الجمع بين أشتات هذه الحوادث فى شكل رواية شعبية طويلة . ومن ثم فانه ينبغى علينا أن نرى الى أى حد تعد السيرة مستوفية لخصائص العمل الروائى . ولكى نفعل هذا يتحتم علينا أن نبحث الموضوعات الآتية :

أولا : شخصيات السيرة .
ثانيا : السيرة بوصفها عملا أدبيا وفنيا .
ثالثا : السيرة بوصفها فنا شعبيا .

أولا ـ شخصيات السيرة

الأميرة ذات الهمة :

هى فاطمة بنت مظلوم بن الصحصاح بن جندبة بن الحارث الكلابى . وقد لقبت فيما بعد بلقب الأميرة ذات الهمة ، وتاريخ

حياة الأميرة ذات الهمة يرسم الخطوط العريضة التى غالبا ما تتمثل فى حياة كل بطل شعبى ، سواء كان ذلك فى الأسطورة أو الحكاية الخرافية أو الحكاية الشعبية . فحياة البطل تبدأ بظهور امارات غريبة عقب ولادته أو قبلها. وقد تكون هذه الأمارات نبوءة تشير الى بطولته المستقبلة . وقد تبتهج الطبيعة بولادة الطفل ، فتظهر فى الكون ظواهر غير عادية . وقد تبدو امارات البطولة واضحة على الطفل اثر ولادته . أما الاميرة ذات الهمة فقد ولدت و « كانها البدر قوية السواعد والأطراف ، هائلة الأكتاف » .

ثم يحدث بعد ذلك أن يكون الطفل — لسبب ما — غير مرغوب فيه ، فيبعد عن أهله ، فقد تطلع نبوءة الأهل على خطورة الطفل المستقبلة . وقد يبعد الطفل لسبب اجتماعى يكون وليد البيئة التى ينشأ فيها الطفل ، كما حدث للأميرة ذات الهمة . فقد اتفق الأخوان ظالم ومظلوم قبل ولادة طفليهما على أن تكون الامارة من بعدهما للولد الذكر . فان ولد لهما ولدان تكون الامارة مناصفة بينهما . وربما بدا لأول وهلة أن الحياة قد انصفت الأخ الظالم وهو يدعى بالفعل ظالم ، فمنحته الولد الذى سماه الحارث ، وانها تخذل الأخ المظلوم بأنه منحته فاطمة . ولكننا سنرى ؛ حينما نتحدث عن العناصر الفولكلورية فى السيرة — ان هذا قانون شكلى تلتزمه حكايات البطولة الشعبية . وعلى كل فقد أبعدت ذات الهمة عن أهلها لسبب اجتماعى هو وليد البيئة العربية . فقد خشى والدها أن يلحق به الذل والهوان أن هو أعلن نبأ ولادتها ، فسلمها الى المرضعة سعدى لترعاها وتخفى عنها خبر أصلها حينما تكبر . فتربت فاطمة فى رعايتها حتى وصلت مرحلة النضج وقد ظهرت عليها أمارات البطولة النادرة . ثم لعبت الصدفة دورها فى أن تتعرف ذات الهمة على أهلها فتنضم الى صفوفهم

وتنصفهم من أعدائهم(١) . وشاع بعد ذلك حب ابن عمها الحارث لها واصراره على الزواج منها . ورحب أبوه ظالم بهذه الرغبة وشرح لزوجته سبب ترحيبه بهذه الزواج رغم مايكنه من كره لذات الهمة فقال : « وقد عزمت أن أزوجه بها لوجهين : الأول لجمالها ، والثانى أنها اذا صارت له انكسرت حرمتها وقل نشاطها وذهبت قوتها ، وبانكسارها نحن نبلغ من أبيها سائر الأغراض»(٢) ولم يخف على ذات الهمة التى اتسمت بالذكاء والحكمة نوايا عمها ، توقف منه ومن ابنه ذلك الموقف البطولى المشهود ، الى أن استطاعت أن تتخلص منهما تماما ، حينما نزحت الى منطقة الثغور مع جيش بنى كلاب .

وفى ملطية عاصمة الثغور تزعمت ذات الهمة جيشها . وكانت سياستها سلاحا ذا حدين . فهى تهدف من ناحية الى توحيد صفوف قبيلتها تحت لواء الخليفة منعا لحدوث الفتن والاضطرابات ، اذ كان مبدؤها أن الحياة لا تخذل صاحب الحق . ولهذا فقد عارضت عمها ظالم حينما رفع لواء الثورة على الخليفة المنصور ورد على رسوله قائلا : «ياشيخ ما الذى كان بيننا وبين المنصور حتى انه عزلنا عن الملك . وانما كان أبانا محبا لبنى أمية وقد هلك الجميع وصاروا فى القبور ، فارجع الى صاحبك وقل له عرب البر لايدخلون تحت طاعتك ، ومن جاء الينا كانت سيوفنا اليه أقرب من كلامه » (٣) . ومن هنا ناحية أخرى تستقل برأيها عن الخليفة اذا رأت أن المصلحة العامة تقتضى ذلك . وقد

---

(١) أنظر تفسير هذه الظاهرة فى فصل « ميلاد البطل » من كتاب أشكال التعبير فى الأدب الشعبى للمؤلفة .

(٢) السيرة جـ ٦ ص ٣٣ .

(٣) السيرة جـ ٦ ص ٥٤ ، ٥٥ .

سبق أن رأينا موقفها من الخليفة المأمون بشأن الثائر الرومى فى عهد الامبرآطور ميخائيل .

ثم كانت ذات الهمة فضلا عن ذلك تمتلك صفتين يتسم بهما القائد الناجح وهما الشجاعة والاقدام ، وقوة الشخصية . فاذا أضفنا الى ذلك حكمتها فى سياسة الأمور ، فاننا ندرك أن عوامل النجاح كانت مهيئة لذات الهمة لأن تكون قائدة لجيش بنى كلاب .

وقد نتساءل بعد ذلك عن السبب فى أن يكون قائد الجيش الكلابى امراة وليس برجل . والواقع ان المراه البطلة ليست غريبة عن التاريخ والقصص الشعبى بصفة عامة . فحكاية الاسكندر الأكبر الشعبية تحكى عن نساء الأمازون اللاتى كن يرفضن معاشره الرجال ويحاربن ببسالة نادرة كل من تعرض لهن . وحكاية الملك عمر النعمان التى سنتعرض لها وشيكا تحكى لنا عن ابريزة البطلة الرومية التى كانت تصرع كل من تعرض لمبارزتها . وليست نماذج البطولة النسائية قاصرة على الأدب الشعبى .. وانما قد تتحقق فى عالم الواقع . فالتاريخ يمدنا بأخبار عن امراة تشارك ذات الهمة فى كثير من صفاتها وهى زنوبيا ملكة تدمر . فكلتاهما اتسمت بالعفاف والعزوف عن معاشرة الرجال . فقد ابدت ذات الهمة رغبتها منذ البداية فى أن تعيش حرة مستقلة . فلما أرغمت على عقد قرانها من ابن عمها والدخول به غدرا ، لم تعتبر ذلك قيدا طوقت به ، وانما تركت زوجها حرة مختارة وضمت ابنها اليها ، ورحلت مع قومها الى منطقة الثغور لتحارب متطوعة فى سبيل اعلاء كلمة الحق . وبالمثل تخلصت زنوبيا من زوجها وأبت أن تتزوج من بعده وضمت اليها ابنها وهب اللات ونشأته نشأة الفروسية . وكما أن ذات الهمة حاربت الروم ، كذلك حاربت زنوبيا الروم فى شجاعة واستبسال .

ولا نعنى من هذه المقارنة ، أن نقرن ذات الهمـــة بزنوبيا ؛ فكل منهما تختلف عن الأخرى فى الغاية والوسيلة ، ولـكننا نود أن نؤكد أن شخصية المرأة البطلة لم تكن غريبة عن التاريخ وعن القصص الشعبى فى العالم بأسره . وقد تجسدت هذه البطولة بكامل مقوماتها فى شخصية الأميرة ذات الهمة .

عبـــد الوهاب :

على الرغم من أن عبد الوهاب ولد ذات الهمة هو بطل السيرة الأول ، فان نلاحظ من خلال أجزاء السيرة العديدة أنه لم يكن الا ظلا لأمه . فما كان له أن يخالف رأيها ، وما كان له أن يقرر أمرا دون الرجوع اليها . وربما كان ذلك بدافـــع تركيز البطولة فى شخصية ذات الهمـــة . فبطلة السـيرة الأولى لابد أن تتوفر لها خصائص تميزها عن الشخصيات البطولية الأخرى . وربما فسر ذلك تفسيرا آخر نفسيا ، وهو أن تربية عبد الوهاب فى حضن أمه وحدها جعله يرتبط بها ارتباطا قويا ، بحيث أنه لم يتمكن من التخلص من سيطرتها عليه فى كل أطوار حياته . كمـا أنها هى ــ نتيجة هذا الدافع النفسى نفسه ــ أصبحت تمارس سيطرتها عليه حتى لا يستقل عنها . ولهذا فان ذات الهمـة لم تعـــارض زواج عبد الوهاب من علوى ، لأن علوى المرأة العربية قد تعودت الخضوع لزعيم القبيلة . ومن ثم فقد خضعت لذات الهمة خضوع أى فرد آخر لها . ولهذا فان علوى لم تلعب دورا واضـحا فى حياة عبد الوهاب . فلما وقع عبد الوهاب فى حب نورى الرومية عارضت ذات الهمة بكل قوة رغبة ابنها فى الزواج منها ، وكانت حجتها فى ذلك أن البطال ــ وكان يحبها كذلك ــ أولى أن يكــون زوجا لها لأنه هــو الذى أسرها . وعلى الرغم من أن نورى كانت تكره البطال وتفضل عليه عبد الوهاب ، فان ذات الهمـــة أصرت

على موقفها ، حتى بلغت سورة الغضب من عبد الوهاب مبلغها ورضى ان ينازلها حتى يحكم السيف بينهما . وانتصرت عليه ذات الهمة بطبيعة الحال ونظرت اليه وهو ملقى على الأرض وقالت له : « يا عبد الوهاب أنا أسألك سؤال الوالدة لولدها ، بحرمة الثدى الذى أرضعتك به ، لا تجعل شهوتك تغلب مرءوتك » (١) ، وازاء هذه الذكرى ، ذكرت علاقته القوية بأمه خجل عبد الوهاب من معارضته لأمه ، وترك نورى وشأنها ورجع الى أمه راضخا .

ولا نود بذلك أن نضعف من شخصية الأمير عبد الوهاب كما تسميه السيرة ، اذ لم تكن بطولته الجسدية تقل عن بطولة ذات الهمة فى شىء . وانما نود أن نبين كيف أن السيرة تقدم نماذج متنوعة من البطولة بأبعادها النفسية . ومما لاشك فيه ان شخصية ذات الهمة التى استطاعت أن تحطم كل قيد فى سبيل تحقيق الذات ، أكثر اكتمالا من شخصية عبد الوهاب ، وأن بدا الاثنان بطلين لا يناوئهما أحد فى بطولتهما .

السيد البطال :

هو البطل التاريخى الذى استشهد فى الحروب العربية الرومية عام ١٢٢ هـ . أما فى السيرة فهو ليس من ارباب السيف وانما من أرباب الحيل والخداع كما يقول هو عن نفسه : « أنا ما صناعتى الحرب والطعن والضرب وانما صناعتى فى الحيل والخداع فى حصن أو قلعة » . وعلى الرغم من أن السيرة استغلت موضوع الخداع والحيل استغلالا خياليا الى درجة كبيرة ، بحيث يبدو أن جل هذه الحيل من نتاج خيال الرواه ، الا أننا نرى أنها

(١) السيرة : جـ ١٩ ص ٣٤ .

تستند الى حد كبير على الواقع . فالأستاذ المؤرخ نورمان بينز يحكى لنا فى كتابه « الامبراطورية البيزنطية » عن الحيل والخداع اللذين كانا يعدان مبدأ مقبولا فى الحروب العربية البيزنطية ، ومفضلا على اساليب القوة ، فيقول : « كان القواد البيزنطيين افقر من أن يدفعهم الطموح الى الاقدام على اعمال الفروسية الكيشوتية (وكيشوت هو بطل القصة الاسبانية الرائعة التى كتبها سرفانتز) . والمقصود بالكيوشتية هنا الخيالية التى لا تقوم على تبصر او حساب . اذ كانت المحافظة على قواهم الصغيرة عمادهم فى كثير من الأشياء . وعلى هذا فقد كان واجب القائد ان يستوثق من الظروف الملائمة للحركات العسكرية الرومانية قبل ان يجازف بالاشتراك فى اشتباك حربى . فالهرب المصطنع والمباغتات والهجمات الليلية والكمائن والمفاوضات التى لا يقصد بها سوى كسب الوقت ، كل هذه وغيرها كانت وسائل مقبولة فى الحرب . وكان الجندى الذى يعتمد على القوة فى حيث كان الدهاء كافيا لكسب النصر لا يعد الا مغفلا » (١) .

وقد سبق أن رأينا كيف أن الروم فشلوا ، عن طريق استخدام القوة ، فى صد حملة مسلمة بن عبد الملك عن القسطنطينية التى دامت سبع سنوات ، فى حين نجح ليون فى ابعاد العرب عن المدينة عن طريق تلك الحيلة التى ابتدعها (٢) . وليس بعيدا أن يكون البطال أحد أصحاب الحيل فى جيش المسلمين بخاصة وأنه كان أحد الذين علقت صورهم فى الكنائس والأديرة حتى لا تتم

---

(١) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية . ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ١٧٩ .

(٢) أنظر الجزء الخاص بعلاقة السيرة بالتاريخ

على الناس حيله (١) . ولم تنس السيرة أن تذكر ذلك على لسان احد ابطال الروم اذ يقول عن البطال : « هذا البلاء النازل ، هذا الموت العاجل ، هذا البلاء الكامل ، هذا مفتت الكبود الذى تذل من حيله ومكره الأسود ، هذا الثعبان الأغبر ، هذا الموت الأحمر ، الذى فى جميع الكنائس مصور » (٢) .

ولا غرو بعد ذلك أن يكون البطال شخصية طريفة فى السيرة . ولا نبالغ اذا قلنا انه يعد المحرك الأول لحوادثها . فحيله العديدة تمكن القاص من أن ينتقل من موضوع لآخر فى يسر ، فضلا عن أن هذه الحيل تضفى على السيرة كثيرا من الطرافة والتشويق . فقد يتنكر فى هيئة راهب متعبد يجيد تلاوة الانجيل . وسرعان مايلتف حوله الرهبان المحاربون ويكشفون له خطط القتال ، فينقلها بدوره الى جيش بنى كلاب . وقد يدخل بلاد الروم متخفيا فى هيئة طبيب عالم بأسرار الطب . ثم تقوده حرفته الى قصر الملك الذى يحبه للباقته وطرافة حديثه ، ويحكى له عما يساوره من قلق بسبب حرب العرب له . فيرد عليه البطال قائلا : « لا يهمك ذلك الأمر واستعمل الصبر . أنا الليلة أدعو عليهم دعوة وادعو المسيح يتركهم اشباحا بلا أرواح فتضعف قلوبهم وقوتهم(٣) » . حتى اذا شاء الملك ان يحتفل به فيحضر لحم الخنزير المشوى والخمر ، يخشى البطال ان ينكشف أمره اذا امتنع عن الطعام والشراب . ولكنه سرعان ما يتخلص من هذا الموقف المحرج باختراع حديث ينسبه الى عيسى عليه السلام ويقول : « أوصيكم ياعبادى المخلصين الا تأكلوا اطيب

---

(١) يروى السعودى فى التنبيه والاشراف أن الروم صوروا فى كنائسهم بعض أبطال المسلمين الذى امتازوا بخفة الحركة . (التنبيه ج ٨ ص ١٨٣ . ط . دى جويه) .

(٢) السيرة ج ٤٥ ص ٣٦

(٣) السيرة ج ٢٢ ص ١٦

المصنوعات من الطعام ، فانها تزيد القلوب قسوة وتميل بالقلب عن الطبائع البشرية » (١)

فاذا حاصر المسلمون مدينة حصينة ، ووقفوا عاجزين أمامها ، اسرع البطال وتفنن في اختراع الحيلة . فقد حدث أن وقف الجيش الاسلامى عاجزا امام اسوار عمورية الحصينة . ولما راى البطال ذلك ، ادرك أن الحيلة هنا تغنى عن السيف . وما لبث أن ابصر جماعة قادمة من بعيد تحمل امتعة على ظهور الحمير . فأسرع وتحدث اليهم باليونانية وعرف منهم انهم يحملون خمورا الى الملك . فأخبرهم البطال بأن المدينة محاصرة وفى وسعه أن يدلهم على مكان آمن يدخلون منه الى المدينة . ولم تشك الجماعة لحظة واحدة فى أن يكون البطال روميا أصيلا ، اذ كان يجيد التحدث باليونانية . . فساروا معه حتى خلا بهم المكان ، فأسرع البطال وقتلهم وارتدى زيهم وسار بالأمتعة حتى وقف عند باب من أبواب المدينة . فلما علم منه الحارس أنه يحمل خمور الملك ، سمح له بالدخول خلسة . وقد استطاع بذلك أن يعين الجيش العربى من داخل المدينة على هدم سورها والاستيلاء عليها (٢) .

وهكذا تتنوع حيل البطال فى كل أجزاء السيرة وعلى الرغم من كثرتها فانها تتميز دائما بالجدة والطرافة .

وقد ترك البطال اثره واضحا فى الملحمة التركية التى سميت باسمه والتى سنتعرض لها وشيكا . ولسنا ندرى ما اذا كان البطال من أصل تركى ومن ثم خلدت الملحمة التركية بطولته ، فالسيرة تذكر أنه كان أشقر أزرق العينين . كما أننا لانستطيع أن نقطع الآن

---

(١) السيرة جـ ٢٢ ص ١٨ .
(٢) السيرة جـ ٥٦ ص ٢٣ وما بعدها .

ما اذا كانت الملحمة التركية قد تأثرت بالسيرة العربية . وربما استطعنا أن نتبين هذا فى وضوح عندما نناقش الملحمة التركية .

عقبة السليمى :

وكما تتنبأ الأحلام بميلاد البطل كذلك تتنبأ بميلاد الانسان الشرير . فقد رات أم عقبة قبل ولادته حلما أزعجها . وفسر المفسرون لها هذه الرؤيا وقالوا لها : « يأتيك ولد شرانى ، يلقى الفتن بين الناس من النساء والرجال ، ويكون سفاك الدماء كثير الحيل والزنا ، مفسد فى الدين عاصى لرب العالمين ، فاحفظى سرك ولا تذيعيه ، واذا رزقتيه فاهجريه »(١). وبهذا كشفت لنا السيرة عن طبيعة شخصية عقبة منذ بداية الأمر . وقد شاءت السيرة أن تجسد فيه كل مقومات النفاق . فقد نشأ عقبة متفقها فى علوم الدين الاسلامى ، وأصبح بذلك قاضيا . وما أحراه بعد ذلك أن يكون أول من يرعى حرمة الدين ويعمل على تقوية دعائمه . ولكننا نجده على العكس من ذلك يعمل على هدم كيانه بأن يكون أول نصير لأعدائه . وقد كان فى وسع عقبة أن يعلن نصرانيته وينضم الى صفوف الروم ، ولكنه رأى أن الحكمة تقتضى منه أن يظل قاضيا مسلما فى الظاهر ، ويعمل فى الخفاء على افشاء خطط المسلمين للروم أولا بأول .

ولذلك فقد تعددت حيل عقبة كما تعددت حيل البطال . فقد يختفى فجأة فى بلاد الروم لينقل اليهم خبرا وينظم معهم خطط القتال . وما يلبث أن يظهر بعد ذلك فى أحد الجوامع الشهيرة يؤم الناس ويعظهم . فاذا نقل أحد الابطال المسلمين الى

(١) السيرة جـ ٧ ص ٨ .

الخليفة خبر لجوئه الى بلاد الملك الرومى ، تبين للخليفة أنه يؤدى عمله بوصفه قاضيا مسلما فى احد الجوامع الشهيرة . وبهـــذا يتشكك الخليفة فى هذا الخبر ولا يجرؤ على ادانة عقبة القـاضى الورع كما يبدو له .

وقد يبالغ فى ابتداع الحيلة كما يفعل البطال فيتنكر فى هيئة انسان آخر حتى يتم له مايريد .. فقد حدث أن طلب الرشيد من عمرو بن عبيد الله أن يحتفظ بأسرى الروم عنده . وعرف عقبـة ذلك وكان يود ان يطلق سراح اسرى الروم. فأوحى الى عمرو بن عبيد الله الا يحتفظ بالأسرى عنده لئلا يكيد له أبطال بنى كلاب فيطلقون سراحهم حتى يضعف مركزه لدى الخليفة . ونصحه أن يحتفظ بهم عند شخص مجهول وذكر له اسمه ، ولم يشك عمرو بن عبيد الله فى صدق نصيحة عقبة واحتفظ بأسرى الروم لدى هذا الشخص الغريب ويدعى أحمد الرامى . وكان عقبة يعلم تمام العلم أن أحمـد الرامى قد عشق امرأة غير زوجته وانه يقضى عندها وترا من الليل. وكان يعلم كذلك أن الزوجة كانت مشغولة بهذا الأمر ، فـكانت تستعين بوسائل السحر حتى يرجع اليها زوجها . وهنا تنكر عقبة فى هيئة ساحر وطرق باب الزوجة ، وأخبرها أنه فى وسعه أن يرد اليها زوجها بسحره . فرحبت به الزوجة . وبعد أن أدى عقبـة طقوس الســحر وطلب منها أن تفتح جميـــع اقفال البيت « لأن القفل كاسمه » (١) لا يساعد على فتح الطريق الى الحل المرضى . وما لبثت المرأة أن فتحت الأبواب كلهـا حتى باب المطمورة التى اودع فيها أحمد الرامى الأسرى . وهنا غافل عقبة الزوجة وأطلق سراح الأسرى واختفى لتوه .

---

(١) السيرة ج ٢٣ ص ٧٠ .

وبهذا شغل عقبة ابطال بنى كلاب جميعهم والبطال بصـــفة خاصة ، اذ كان البطال متفننا فى كشف حيل عقبة وفى اشـــهاد الخليفة على جرائمه التى يرتكبها ضد الدين الاســـلامى والدولة الاسلامية . وقد ظل الخلفاء يتأرجحون بين الشك واليقين حتى كان عصر المعتصم ، الخليفة البطل الذى لم يساوره ادنى شك فى نفـاق عقبـــة .

فشخصية عقبة ــ شأنها شأن شخصية البطال ــ تعـد فى الحقيقة المحور الذى تدور حوله كثير من حوادث السيرة . فهـو يدبر مؤامراته العديدة ، فيتم بعضها على المسلمين ، وينكشف أمره فى بعضها الآخر ويقع فى أيدى المسلمين متلبسا بجرائمه . ولـم يجرؤ ابطال المسلمين على القضاء عليه حتى يستريحوا منه . وقد شرحت السيرة أسباب ذلك فتقول : « فلما سمع الحكيم ذلك (أى قصة نفاق عقبة) قال : كيف يسلم من أيديكم وقد وقعتم به الف مرة ، وهو على هذه الصفة ، فلم تقتلوه وتريحوا انفسكم منه . . فقال لؤلؤ (وهو أحد رجال عبد الوهاب) لأجل الأمير عبد الوهاب لأنه رأى فى المنام النبى صلى الله عليه وسلم يقول له : ان عقبـة هذا يصلب على باب الذهب بالقسطنطينية بعدما يهلك عليه خلق كثير من الروم والعرب . فلما سمع الأمير ذلك أصبح وأعاد المنام على جميع الناس ، وأوصى كل من وقع به لايقتله حتى يصح المنام عن النبى (ص) لأنه قال عليه السلام : من رآنى فقد رآنى حقا ، فان الشيطان لايتمثل بى » (١) .

وقد ترك عقبة أثره واضحا فى سيرة الظاهر بيبرس . فهى تحكى عن شخصية مماثلة لشخصية عقبة تماما، الا انها تنسبه الى عقبة . فهى تذكر « انه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان

---

(١) السيرة جـ ٢٦ ص ٤٠ .

فرقة من العرب يقال لها طائفة بنى سليم وكلهم كانوا مسلمين فتخلف منهم رجل يقال له عقبة اللعين بن مصعب . وكان داخله الغرور بوقع الفتن ويخبر بكل الأمور حتى انه أشرك بالله تعالى ومحمد رسوله صلى الله عليه وسلم . وقد تقدمت قصته في غير هذه السيرة . ثم تولد من نسله غلام العن واضل سبيلا » (١) وقد كان هذا الغلام هو جوان الذى كان يتفنن فى تدبير الشرور للمسلمين تماما كما كان يفعل عقبة . ثم كان على جمال الدين شيحه أن يكشف الستار عن حيل جوان وينقذ بذلك المسلمين ، تماما كما كان يفعل البطال .

شخصية الخليفة :

اذا كانت سيرة الأميرة ذات الهمة قد عرضت تاريخ أسرة بنى كلاب فى الفترة مابين عصر عبد الملك بن مروان والمعتصم بالله ، فان ذلك تطلب منها أن تقف وقفة عند كل خليفة فتصور أهم أحداث عصره السياسية من ناحية وعلاقته بأسرة بنى كلاب من ناحية أخرى .

والخليفة بصفة عامة مهتز الشخصية نتيجة اضطراب عصره فهو لا يستطيع أن يفصل بين الخير والشر فصلا قاطعا ، بحيث نراه منصفا للخير معينا له على الدوام . فكل خلفاء الدولة العباسية ، اذا استثنينا المعتصم ، كانوا يترددون فى ادانة عقبة ، اما مجاملة لقبيلة بنى سليم التى ينتمى اليها ، أو خوفا من تزايد نفوذ قبيلة بنى كلاب كما كانوا يتوهمون . ومن ثم كان الخليفة من وجهة نظر السيرة ، ضعيف العزيمة والرأى .

---

(١) سيرة الظاهر بيبرس جـ ١ ص ٥٢ (عبد الحميد حنفي) .

والخليفة منشغل بأموره الخاصة أكثر من انشغاله بأمور دولته. .. فقد انصرف الرشيد الى حب نورى الى درجة أن جاهر بالعداء كلا من البطال وعبد الوهاب اللذين تنازعا حبها كذلك . وقد ملك هذا الحب على الرشيد رشده الى درجة انه انصرف كلية عن أمور دولته . وقد يبدو أن تلك القصة خيال صرف ، ولكن التاريخ يحكى لنا قصة مشابهة لها . فقد ارسل نقفور فوكاس الى هرون الرشيد يطلب منه المال الذى سبق أن دفعته له الملكة ايرين . ورفض الرشيد أن يدفع المال وقام بحملة على الدولة البيزنطية حطم فيها حصن هرقلة سنة ١٩٠ هـ . واكتفى الرشيد بذلك لأنه ــ كما يقول المسعودى ــ انشغل عن الحرب بحب ابنة أحد البطارقة التى ابتنى لها قلعة هيراقليس (١) .

والواقع أن السيرة ركزت كثيرا من صفات الخليفة فى شخصية هرون الرشيد . فالرشيد يقدم دائما للقصاص الشعبى نموذجا للشخصية التى يصيغ حولها كثيرا من الروايات . فمن دلائل انصراف الخليفة عما يجرى ببلاده من حروب داخلية وخارجية ، ان الخليفة هرون الرشيد حضر الى ميدان القتال بأفخر الثياب ، وكأنه ذاهب الى حفل كبير . فلما رآه أبطال بنى كلاب فى هذا البهاء خاطبه أحدهم وقال : « يا أبا راشد هذه الخلعة التى عليك ما تصلح لهذه البرارى » . ثم أحضروا له جبة خشنة ، فخلع جبته الفاخرة ولبس الأخرى وهو مسكتين لرغبة المحاربين ثم قال : « ما رأيت قط أثقل من هذه السنة ، وأنا أرجو أن تكون العاقبة الى خير »(٢)

أما الخليفة المعتصم فكان نموذجا للخليفة البطل الذى يشارك الشعب رغباته وآماله، ولهذا فقد وصفته السيرة بأنه «كان فارسا

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠٥

(٢) السيرة جـ ٣٦ ص ٦٨

هماما وبطلا عظيما ضرغاما . وكان فيه من الحمية والدين والغيرة على المسلمين مالم يكن فى أحد من اجداده (١) » ولهذا فقد تم على يديه فتح القسطنطينية والقضاء على عقبة . اى أنه حقق املا طالما راود أبطال السيرة وهو القضاء على العدو الخارجى والعدوالداخلى فى آن واحد .

شخصية الراهب :

فى دائرة المعارف الاسلامية مادة « رباط » يتساءل الاستاذ جورج مارسيز عما اذا كان الرهبان الذين كانوا يقيمون فى أديرة حصينة فى منطقة الثغور يقومون بدور ايجابى فى الحروب العربية البيزنطية . واذا كان جورج مارسيز لم يستطع أن يقطع برأى فى الاجابة عن هذا السؤال ، فان سيرة الاميرة ذات الهمة تجيب عنه بالايجاب . بل ان جيش الدولة البيزنطية الاول يتمثل فى هؤلاء الرهبان . فالراهب وان كان قد عزف عن الحياة وسكن الدير ، الا أنه لم ينس أن دفاعه عن دينه جزء من عبادته . ولهذا فانالاديرة تعد ، وفقا للسيرة ، قلاعا حصينة مجهزة بكل ما يهدى الرهبان الى خطر العدو . فمن ذلك ماتذكره السيرة فى وصف احدى الديارات:«ولما رأى بليناس ذلك،بنى فى ذلك المكان ديرا عظيما وجعل الدير دائرا بتلك الصخرة ، وجعل للقبة أربعة أبواب من النحاس وعمل فى الباب الذى يلى الشرق أسد باسط ذراعيهمفتوح الفم يدور على لولب ورقى اليه الماء من تلك الصخرة الى أن خرج الماء منه فى بركة تحت القبة الشرقى وعمل فى البركة انابيبيخرج الماء منها ، وغرس من حول ذلك الدير البساتين وكروم تسقى منذلك الماء وقد جعل فى الباب الثالث صنما أحكم صفته ورتب حكمته،

---

(٣) السيرة جـ ٤٨ ص ٥٠

فمن توجه الى الدير من العدو دار الصنم ويرجع الى الجهـة التى يأتى العدو منها ، ثم تتحرك يديه جميعا فتهتز فيها جلاجل مصنوعة تسمع على بعد من الدير . فاذا فعل الصنم ذلك أخذ أهل الدير أهبتهم وتحضروا لعدوهم . وجعل فى الباب الرابع صنما آخـر من النحاس الذى لايبلى ، علوه عشرون ذراعا ، وجعل وجهه مما يلى الشرق ، وصنع جرسا عظيما معلقا فى يده . فاذا جاءت ساعة من الساعات التى يتعبدون فيها ، حرك الصنم جسده ، فيتحرك الجرس . فعند ذلك يتأهبون للصلاة » (١) .

والراهب من وجهة نظر أبطال المسلمين هارب من الحياة لأنه جبن عن مواجهتها . فقد أشرف عبد الوهاب على « دير عالى البناء، واسع الفضاء ، قد ارتفع فى الهوى . فلما وصل الأمير عبد الوهاب اليه أعجبه حسن بنيانه ونزل بقربه وقال لأصحابه الا ترون الى حسن هذا المكان وأقول ان فيه جماعة من الرهبان . ولكن نادوا سكانه لعل يشرف أحد نسأله عن صاحبنا . فنادوا ياراهب الدير اشرف علينا نسألك عن شيء من الأخبار . فما استتم المنادى كلامه حتى أشرف راهب كبير السن عليه ثياب من الصوف . وكان هذا الراهب اسمه شحتوت فقال اسألوا ماتريدوا ولا تشغلونى عن العبادة فانى أفزع من عالم الغيب والشهادة . فقـال له مالك بن بشير هل بالقرب منك عمارة فقال ما بالقرب منى الا البحر الاسود وعلى جنبه مدينة يقال لها المعبد عبر عليها المسيح فوجد فيهـا جبارا من الجبابرة ويقال له سهيل بن شويل فدعاه الى دين الله تعالى فأبى أن يتبع دعوى المسيح فدعا عليهم فأصبحوا بدعـاء المسيح خامدين وفى ديارهم جاثمين وقد أصبحت تلك المدينة ينوح فيها الغراب واليوم مهدومة الأطلال والرسوم. فقال له الأمير ياراهب

---

(١) السيرة جـ ٣١ ص ٤٠ .

أنت فى هذا الدير وحيد ؟ فقال يابنى لأنى كلب عقور كبست نفسى وحبستها فى هذا المكان مخافة ان اعصى الرحمن » (١) .

وربما دفعت هذه الحياة القاسية الراهب لأن يرتكب منكرا ثم يحاول أن يتستر عليه . فقد حدث ان أحب الراهب سقراق ابنة الملك كرفناس التى كانت تقيم فى دير مجاور لديره . ثم حاول أن يحيط نفسه بهالة من الألوهية حتى لايصدق الناس ما يمكن أن يشاع عنه . فكانت هذه الراهبة تحاول أن تعرف بعض اسرار الناس الخفية ، ثم تختفى داخل تمثال أجوف فى دير سقراق . حتى اذا اجتمع الناس وقت الصلاة ، ادعى سقراق أن الله يوحى اليه بأخبار الناس عن طريق هذا الطير . وتأخذ الراهبة بعد ذلك فى سرد أخبار الناس بخاصة السيئة منها . على أن البطال ، الذى كان كثيرا ما يختفى بالأديرة متنكرا ، لم يستطع السكوت عن هذه الخرافات من ناحية ، ولأنه كان يود من ناحية أخرى أن يطلع الناس على رياء بعض الرهبان. فاقتفى أثر هذا الأمر حتى تمكن من الاختفاء داخل الطير الأجوف . وفوجىء البطال بالراهبة ، فكشف أمرها وأمر سقراق للناس جميعا (٢) .

ولم يكن غريبا أن يصدق الناس هذه الادعاءات . فقد حكى البطال لابنه تعليقا على موضوع سقراق فقال : « انه كان فى بلاد الهند صنم يكشف للناس عما يجهلونه ، فكان يخبرهم بالسارق والقاتل » . وحدث أن ارتكب رجل جريمة سرقة وخشي أن يفضحه الصنم . فذهب الى الصنم وحطم جزءا منه ، وهدده بتحطيمه كلية ان هو كشف عن سره . وفي اليوم التالى ذهب المسروق الى الصنم ليسأله عن السارق . فقال الصنم : « ان ذلك الزمان قد مضى بناسه

(١) السيرة جـ ١٥ ص ٢٢ ، ٢٣

(٢) السيرة جـ ٥٢ ص ٢١ الى ٢٣

وقد اتى هذا الزمان بفاسه ، فكل من تكلم الحق كسروا راسه والعاقل فى هذا الزمان من يحفظ قماشه » (١)

وربما كانت هذه الحكاية رمزية تشير الى أنه لاينبغى على الناس تصديق هذه الادعاءات . على أن البطال يتبع ذلك بحكاية تعليلية فيقول : « وقيل يابنى انه كان فى أرض مصر فى بر الجيزة عند مكان الأهرام شخص وهو من الحجر وكان يسمى أبا الهول وكان مثله وجرى له مثله » (٢) وهى حكاية تعلل ما أصاب ابا الهول من تحطيم بعض أجزائه ، وتستند فى ذلك على موضوع الحكاية الأولى .

ومن الحكايات التى تكشف عن رياء بعض الرهبان حكاية ابنة احد ملوك الروم التى تدعى بطرنة . وتحكى عنها السيرة وتقول انها « لما كمل عقلها وهبت نفسها للمسيح ، فأخلى لها الرهبان قلاية برسمها . وكان أبوها وأمها يزوروها فى الشهر مرة .. ولم تزل ابنة الملك فى قلايتها لاتنزل الا يوم الصلاة فى بيعة هذا الدير وهو يوم الأحد وتعود . وكان قد ترهب فى الدير ابن ملك البرجان وكان اسمه فرسيس بن مطليس وكان أجمل خلق الله تعالى . فمد عينه الى الجارية فهواها . فلما رأت منه المحبة أحبته أيضا . ولم يزالا كذلك الى أن وجدا لهما غفلة من أهل الدير ، فاجتمعا فعلقت منه . فلما تبين حملها خافت من أهل الدير على نفسها وأيضا من أبيها الملك . فقالت لابن ملك البرجان ، هات اعلمنى كيف الحيلة

---

(١) السيرة ج ٥٢ ص ٢٣

(٢) السيرة ج ٥٢ ص ٢٤

من الخلاص لأنى ان رأوا حملى قتلونى الرهبان فقال لها لا خوف عليك . وكان قد قرأ شيء من الحكمة ومن العزائم ... وانه ضرب مندل فى الحكمة ثم بخر وعزم ليلة الأحد وأحضر ملوك الجان فى المندل وقال لهم لايبقى أحد منكم الا ويمضى الى كل راهب من الرهبان الذين فى الدير فى نومه ويقول له ان الحوارى قد عبر الليلة على ديركم ورأى حسن عبادتكم فشكر فعلكم ، ولم ير أقوى عبادة من بطرنة ابنة الملك . ثم تقول له انه قال لها انها قديسة زمانها وقد أشار اليها بعامود فى يده فحملت ، فعظموا ما عظم الحوارى . ثم اصرفهم من المندل واستخرج خاتما بيده لا يظهر لأحد . وكان هذا الخاتم من صنعة الحكيم هرمس . فاذا مر الذى كان فى اصبعه على اى موضع كان ، رفرفت عليه الطيور ، وان مسكه انسان القت الطيور عليه نفسها » (١) . ففعل الجان ما أمروا به ، وبذلك ظلت فعلة بطرنة خافية على بقية سكان الدير .

والحق أن الاديرة تركت أثرا كبيرا فى الأدب الشعبى العربى القديم ، الى درجة أنه يمكننا أن نعد السيرة صراعا بين المرابطين المسلمين من ناحية ، ورهبان الأديرة من ناحية أخرى . هذا فضلا عن أن الأديرة ، نتيجة لتكوينها المعمارى الغريب ، كانت تتيح لأبطال المسلمين فرصا للاختفاء بها والتلصص على الروم . وقد تفنن البطال فى ذلك ، اذ كان قادرا بجرأته الغريبة ، أن يشاركهم صلواتهم وتلاوتهم للانجيل . ولذلك فقد كان من اليسير عليه أن يندس بينهم وكأنه واحد منهم يدبر معهم خططا يتوهمون أنها تعمل على هلاك المسلمين .

هذه هى أهم شخصيات السيرة التى رأى القاص الشعبى أنها لازمة لتوضيح هدفها وفكرتها . وعلينا الآن أن نتجه الى توضيح

---

(١) السيرة جـ ٣١ ص ٤٣ ، ٤٤

هذه الفكرة حتى نتبين الى أى حد يمكننا أن نعدها عملا ادبيا ، وليست مجرد أخبار متفرقة من العصر الجاهلى والأموى والعباسى .

ثانيا ــ السيرة بوصفها عملا ادبيا

من أهم خصائص العمل الأدبى الروائى ــ سواء كان عملا ادبيا طويلا ام قصيرا ــ أنه يرتكز حول فكرة محددة تخدمها كل عناصر هذا العمل : شخصياته وموضوعاته ، ومقوماته الفنية الأخرى التى تتصل بطريقة السرد ، وبترتيب حوادثه المتفرقة ترتيبا محددا يؤدى الى الشكل الأدبى المكتمل .

وقد سبق أن عرضنا لشخصيات السيرة البارزة فوجدنا أنهاتنقسم الى شخصيات عربية واخرى بيزنطية. كما ان الشخصيات العربية تنقسم بدورها الى شخصيات بعضها يتسم بالحزم وحسن تصريف الأمور والحرص على تحقيق الحياة الكاملة ، وبعضها يسعى الى الفساد سرا لمجرد استمتاعه بتلبية النزعة الشريرة بداخله، والبعض الآخر يتأرجح بين الفساد والصلاح لأنه لايرتاح الى عمل الفساد المطلق ، ولكنه لايتسم بالشجاعة النفسية التى تدفعه الى تحقيق الكل الكامل . فالى النوع الأول تنتمى ذات الهمة وعبد الوهاب والبطال والخليفة المعتصم . والى النمط الثانى ينتمى عقبة ، أما زعماء بنى سليم وبعض الخلفاء فينتمون الى النوع الثالث .

وليس الغرض من توزيع الشخصيات على هذا النحو هو تنويعها لتسلية السامع ، وانما الغرض من ذلك أولا خدمة فكرة السيرة. وفكرتها تتحدد بهدف جمعي يهم الشعب كله . ولعل هـذا مايميز الأدب الشعبي عن الأدب الذاتى . وقد كان الهدف الأول للشعب فى تلك الحقبة المضطربة من تاريخه هو تحقيق العدالة الاجتماعية التى تمهد له لأن يصنع تاريخه بنفسه ويسهم فى حكم بلاده بدلا من تلك العناصر الدخيلة التى لايمها سوى مصلحتها الخاصة . ولا تتحقق العدالة الاجتماعية الا بواسطة حاكم عادل يضع نصب عينيه مصلحة شعبه أولا وقبل كل شيء . كما أن هذا لايتأتى الا اذا وضع الحاكم يديه على عناصر الضعف وأعلن ثورته عليها .

وقد أبرزت السيرة مشكلات الدولة ممثلة فى عقبة ، وفى العدو الخارجى المهدد لكيان الدولة الاسلامية فى تلك الآونة . وقد كان من الممكن أن يكون عقبة شخصية عادية تلعب دور النفاق نفسه ، ولكن القاص جعله قاضيا مسلما لأنه شاء أن يصور ما وصل اليـه النفاق فى الأمة الاسلامية . فالقاضى المسلم الذى يحكم وفقـا للشرائع الاسلامية لابد أن يكون مثالا للعدل والاخلاص والغيرة على دينه ، والا فالويل للدولة الاسلامية ان كان قضاتها يتصـفون بمثل صفات عقبة . واذا كان النفاق قد بلغ بالدولة الاسـلامية الى حد أن اتصف به أئمة الدين ، فهذا معناه أن الدولة قد وصلت حقا الى حافة الهاوية ، وانها أصبحت تنتظر البطل الشعبى لكى ينتشلها مما آلت اليه .

ولهذا فقد ظل عقبة يعيث فى البلاد فسادا معتمدا على مناصرة قبيلته له أولا ، وعلى ضعف الخلفاء ثانيا . حتى كان عصر المعتصم

الذى فهم الأمور ببصيرة نافذة ، فقرر بمعاونة أبطال الشعب أن يقضى على طرفى الفســاد ، عقبة من ناحية ، والعدو الخارجى من ناحية أخرى .

ثم نلاحظ ان السيرة تؤكد ضرورة القضاء على طرفى الفساد فى وقت واحد ، اذ لاجدوى من القضاء على أحدهما دون الآخر . ولهــذا فقد اصرت أن يكون صلب عقبة على باب الذهب : أشهر أبــواب مدينة القسطنطينية ، اى اثر انتصار المسلمين على الروم .وجعلت بذلك نبوءة النبى عليه السلام لعبد الوهاب عنصرا أساســيا فى السيرة ، بل جعلتها جوهر الســيرة الذى يربط أولها بآخرها .. فصورت عقبة يقوم بدور النفاق كما يحلو له فى الفترات التاريخية التى مرت بها الدولة قبل عصر المعتصم ، وهى تشــير بين الحــين والآخر الى نبوءة محمد علية السلام التى لابد أن تتحقق يــوما ما. حتى اذا فتحت القسطنطينية بفضل أبطال بنى كلاب وقيادة المعتصم الرشيدة ، سيق عقبة ليصلب على باب الذهب ، واجتمعت حشود المسلمين لتنظر مصرع النفاق مع مصرع العدو الخارجى . وهنــا نادى المعتصم على عقبة ليذكره بوعد النبى ، وهو فى الوقت نفسه تذكرة للسامع بعقدة السيرة ، فقال له : « ياقاضى كيف ترى قول النبى (ص) للامير عبد الوهاب حيث وعده بصلبك ، هل صح قوله فى الرؤيا أم لا » .

وفى ذلك اشارة لانتصار الدين الذى يتمثل فى وعــد النبى الحق ، وانتصار الحق على النفاق ، والحكم الرشيد الذى تؤازره قوى الشــعب على الحكم الفاســد الذى تؤازره قوى الرجعية والفساد .

وبهذا نستطيع أن نقول أن سيرة الأميرة ذات الهمة بهدفها هذا ، قد ربطت ماضي تاريخ الشعب العربى بحاضره ، حينما ابرزت مشكلته الأساسية التى عانى منها ومازال يعانى منها حتى اليوم . فمازال الشعب العربى يعانى من حكام لا يستطيعون ــ خوفا على مصالحهم ــ الجهر بعناصر الفساد واعلان الحرب عليها . ومازال الدولة البيزنطية المهددة لكيان الدولة الاسلامية تظهر بصورة أو بأخرى ، ثم مازال عقبة يظهر بين الحين والآخر ليقوم بدور النفاق الذى يقدم أكبر عون للدولة المعادية ، وان كان يعمل ــ وهو لا يدرى ــ على هلاكه المحتم .

هذه هى فكرة السيرة الأساسية . وقد حاولت السيرة ــ رغم طولها البالغ ــ أن تبرزها بين الحين والآخر وان تؤكدها حتى نهايتها . وهى مشكلة جمعية كما رأينا ، بمعنى انها لا تهم فردا بعينه وانما تهم الشعب جميعه . ولا غرو فقد كان الشعب يجتمع ليستمع الى مشكلته ويسعد ببطولة أبطال ثم يسبح بخياله مع القاص حتى ينتهى معه الى حل مشكلته الى يعانيها .

وبهذا نستطيع أن نقول ان أولى عناصر هذا العمل وهى شخصياته تخدم دون شك فكرته الأساسية وبالمثل فان موضوعاته المتنوعة التى تتوزع بين حياة العرب فى الجزيرة العربية ، وحياتهم فى منطقة الثغور ، ثم حياة الروم فى هذه المنطقة ، قد أسهمت فى توضيح هذه الفكرة . فليس عرض السيرة لحياة قبيلة بنى كلاب فى قلب الجزيرة العربية الا تمهيدا لعرض حياتهم فى منطقة الكفاح . وهى بذلك تتيح للسامع لأن يقارن بين حياة شعب منعزل عن الحياة الحاضرة التى يعيشها ، ومشغول فى الوقت نفسه بمشكلات عاشها فى الزمن القديم ومازال يعيشها لأنه لا يمتلك غيرها ، وبين حياة هذا الشعب وقد تغيرت فى جوهرها . فالصراع

بين القبائل المختلفة ، بل وافراد القبيلة الواحدة يشكل الموضوع الرئيسى في الجزء الأول من السيرة . حقا ان الأبطال يسعون الى تأكيد وجودهم ، ولكنهم يفعلون ذلك فى نطاق لا يتجاوز حياتهم فى قلب الجزيرة العربية . فالبطل يسعى لأن ينتصر على الزعامة الغاشمة على قبيلته ، فيحاول أن يتغلب على العقبات التى يضعها عمه أمامه فى سبيل الفوز بابنته على سبيل المثال . فيظل يسعى فى سبيل الحصول على المهر المطلوب وفى اظهار بطولته على الدوام حتى يفوز بمطلبه ويصبح البطل المرموق فى قبيلته . وقد فعل هذا كل من جندبة والصحصاح . حتى اذا تجاوزت بطولة الصحصاح مصالحه الخاصة الى المصالح العامة حينما انقذ ابنة الخليفة من هجوم الاعراب عليها ، انتقل بذلك الصحصاح من حياة القبيلة المحدودة ، الى حياة الأمة الاسلامية العريضة ، كما تجاوز مصالحه الخاصة الى مصالح الشعب بأسره . فاذا الصحصاح يشترك فى الحروب العربية البيزنطية بأمر من الخليفة عبد الملك ابن مروان . فيغيب عن قبيلته زمنا ويظهر بعد ذلك ليطلعهم على واجبهم الأكبر . وورثت ذات الهمة عنه النظرة البعيدة النافذة ، فقررت أن تهجر الحياة القبلية بمشكلاتها الجزئية المحدودة ، لتقوم بواجب اكبر هو واجب الدفاع عن الأمة الاسلامية والدين الاسلامى .

وبهذا تغيرت حياة الأبطال زمانيا ومكانيا . اما الزمان فهو الحياة المعاصرة التى يعيشونها ، واما المكان فهو منطقة الدفاع عن الأمة الاسلامية التى تتمثل فى منطقة الثغور . ويمكننا بذلك أن نؤكد الوظيفة الأولى للتراث الشعبى . فهى لا تتمثل فى عرض التقاليد والعادات والأفكار الموروثة فحسب ، وانما تتمثل فى عرض القديم والجديد جنبا الى جنب . فالسيرة تعرض لنا الحياة القديمة بتقاليدها وعاداتها ، الى جانب الحياة الحديثة بمفهومها الجديد

المتطور . فلم يعد الأبطال ، بعد ان اتسع أفقهم الزمانى والمكانى ، يشغلون أنفسهم بمشكلات قديمة . واذا حدث هذا فان ذات الهمة التى تمثل القوة الواعية سرعان ما تتدخل لكى تدفع قبيلتها الى أمام ، اذ لا سبيل الى التراجع الى حياة الجاهلية الأولى . ذلك أن الحياة الجديدة التى تشكل لهم مشكلات اجتماعية وسياسية جديدة ، جديرة بأن يعيشوها . وتتمثل هذه المشكلات فى تحقيق العدالة الاجتماعية حتى يتسنى للشعب العربى أن يسهم فى حل مشكلاته ومشكلة بلاده ، كما تتمثل فى تغيير الوضع السياسى للدولة عن طريق تأكيد وجودها داخليا بالقضاء على النفاق ، وخارجيا بالقضاء على القوى المتربصة بها المهددة لكيانها .

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى الحديث عن أسلوب السيرة ، ومدى نجاحه فى تحقيق وحدتها القصصية ، فاننا نلاحظ أن السيرة رغم طولها البالغ ، ورغم استغراقها فى حكايات المغامرات والاسفار التى قد تبعد السامع عن غرضها الأساسى فانها تحرص كل الحرص على التمركز حول هدفها الأصلى كما أوضحناه . وهى تتبع فى ذلك أسلوب البسط واللم ان صح هذا التعبير ، فهى تبسط فى وصف المعارك الحربية والمغامرات التى تطوح بالأبطال الى أماكن بعيدة ، وتفرق بينهم ، مستخدمة فى ذلك كل وسائل التشويق التى تتميز بها حكايات المغامرات ، ولكنها تعود بعد ذلك لتجمع بين أبطالها فى مكان واحد هو ملطية حيث لا يكون لهم حديث سوى عقبة والروم . ومثال ذلك أن عقبة رحل خفية الى مصر ليشد أزر الثائرين بها ضد الخليفة ، حتى يساعد الروم بذلك على تحقيق غرضهم . ولما كانت مهمة البطال الأساسية هى تعطيل عقبة فى تحقيق أغراضه ، فاننا نجده مقتفيا أثره دائما أبدا . فلما أفتقده هذه المرة أخذ يستقصى أخباره حتى عرف أنه رحل الى مصر ، فرحل وراءه . وهنا تسهب السيرة فى وصف رحلة البطال

فى عرض البحرحتى يصل الى مكان عقبة . فى هذا الوقت كانت ذات الهمة وولدها عبد الوهاب منشغلين بحماية الثغور وقد عز عليهما غياب البطال فى ذلك الوقت العصيب،بخاصة أن البطال لم يخبرهما بمقصده . أما الخليفة فكان يعيش مع الأبطال بفكره فحسب ، اذ كان مشغولا كذلك باخضاع ثورة داخلية قامت ضده . وهكذا تستطرد السيرة فى وصف تحركات الأبطال كل على حدة مستخدمة فى ذلك عبارتها التقليدية « أما عن » ومصورة كلا منهم منشغلا بمغامراته بعيدا عن غيره ، ثم تجعل بعد ذلك المصير موجها لتحركاتهم ، فاذا بهم يجتمعون فى عالمهم الصغير وهو ملطية ليتكاتفوا مرة أخرى فى سبيل الهدف الواحد . فالخليفة يجتمع شمله بالأبطال المحاربين فى ملطية ، والسيد البطال يحضر اليهم مكبلا عقبة بالاغلال . وعندئذ يستأنف الجميع حروبهم ضد الثائر الداخلى وضد الروم الى أن تجد معركة أو مغامرات جديدة يأخذ كل نصيبه فيها مرة أخرى .

والسيرة بهذه الطريقة تحقق هدفين . فهى تمتع السامع وتشوقه بحكايات المغامرات وتبعده عن جو القتال الذى ربما سبب له بعض الملل ، وهى تتخذ من ذلك فى الوقت نفسه وسيلة للاسترسال فى القصة الأصلية حتى تصل الى نهايتها . ولا يسعنا سوى أن نحيل القارىء على قراءة الجزء الخاص بمغامرات البطال وظالم ولد عبد الوهاب فى أسبانيا وشمال افريقيا ومصر ، وهو جزء كبير يستغرق صفحات كثيرة من السيرة ، حتى ليخيل للقارىء أن السيرة قد ابتعدت بذلك عن جوهرها ، فاذا بنا نفاجىء بمقابلة البطال وظالم لعقبة صدفة بينما كان الأخير يبحث عن مركب تقيله الى القسطنطينية . وافرح عقبة بمقابلتهما ــ وكانا متخفيين ــ وظن انه حصل على مأربه بعد يأس طويل بخاصة وأنهما أخبراه ــ وقد عرفاه ــ بأنهما سائرين الى القسطنطينية . فلما ركن عقبة اليهما

وأخذ يسب البطال والمسلمين هجم عليه البطال فى المركب وأوثقه كتافا حتى وصل الى ملطية. ففرحت بهما ذات الهمة وعبدالوهاب، بخاصة وأن غيابهما قد طال عليهمـا الى درجة أنهمـا يئسا من رجوعهما . (١)

كل هذا يجعلنا ننتهى الى ان القاص كان على علم تام بمهمته . فهو يعى تماما انه يحكى حكاية مكتملة ، وهو يعى فى الوقت نفسه أن مهمته امتاع السامع بكافة وسائل التشويق حتى لا يجلب له الملل فيكف عن سماع السيرة . والسيرة بصورتها الأخيرة المدونة تبين لنا كيف أنه نجح بوصفه قصاصا وبوصفه راوية .

ثالثا ـ السيرة بوصفها تراثا شعبيا

فاذا اتجهنا الى بحث السيرة بوصفها تراثا شعبيا ، فاننا نجدها تحتوى على خصائص عامة تشترك فيها مع سائر أشكال التعبير الشعبى ، وخصائص خاصة بها بوصفها حكاية شعبية تتميز عن سائر أشكال التعبير الشعبى . أما الخصائص العامة فتتمثل فى احتوائها على تصورات الشعب ومعتقداته التى ورثها عبر الأجيال، كما تتمثل فى بعض حكاياته القديمة التى يخلق لها مناسبة فيحكيها بدافع الرغبة فى حكايتها والاستماع اليها ، ثم فى صور التعبير التى تنبع تلقائيا من اللاشعور الجمعى وفقا لآراء علماء النفس .

أما المعتقدات الشعبية فتتمثل فى الايمان بالحلم وبقوة الكلمة وبالسحر . والحلم وفقا للتصـور الشـعبى لا يعكس الحقيقـة اليومية ، وانما هو حقيقة فى حد ذاته . فما يراه النائم فى رؤياه لابد أن يتحقق فى الواقع . وقد سبق أن أشرنا الى الرؤيا التى

السيرة : جـ ٦٠

رآها الرجل الذى كان ينعى حظه بعد نكبة البرامكة والتى تحققت بحذافيرها . ولولا ايمان الرجل بحقيقة الحلم لما سعى الى تنفيذ ما أمر به فى رؤياه . وبالمثل تحققت الرؤيا التى رأى عبد الوهاب النبى فيها ، وكذلك الرؤيا التي رأتها أم عقبة قبل ولادته . وقد رأى جندبة رؤيا أطلعته على أنه سيسترد مزنة ـ الفرس الذى كلف باحضاره مهرا لعروسه ـ كما أطلعته على اكتشافه لأخ له يجهله . فلما تحققت الرؤيا كاملة نادى « صح المنام وما خاب » (١)

والحلم فضلا عن أنه يكشف عن الحقيقة المجهولة ، يؤدى وظيفة اخرى فى السرد ، فهو يساعد على خلق الحركة الجديدة ، اذ سرعان ما يتحرك الأبطال بعد أن يرى أحدهم رؤيا تكشف له عن مكان اختفاء عقبة أو عن المكان الذى أسر فيه عزيز لديهم .

والسحر قوة تكمن فى الأشياء ، وفى وسع هذه القوة أن تساعد البطل على تحقيق رغباته ، وقد تكشف له عن حقيقة يجهلها . فقد دبر الروم مؤامرة لقتل مسلمة بن عبد الملك والصحصاح معا ، وذلك بأن أرسلوا جاسوسا متنكرا فى هيئة زاهد ، استطاع عن طريق زهده أن يتقرب اليهما . فلما تم له ذلك وضع السم لهما فى الطعام ثم اختفى . فلما مد مسلمة يده الى الطعام « وأخذ لقمة واراد أن يرسلها الى فمه ، اذا بالخاتم الذى فى يده يقطر ماء أصفر قطرات متداولة مثل المطر . فصاح على الملك (أى الصحصاح) وقال له أصبر يا ملك العرب لا تأكل شيئا من الطعام لأنه مسموم .. وكان فى يد الأمير مسلمة خاتم له فص من قرن الخية وكان أحكمه الحكماء الأوائل ومكتوب عليه أسماء وطلاسم ـ وكان هذا الخاتم لعبد الملك بن مروان أمير

(١) السيرة جـ ١ ص ٦٣

المؤمنين . ولما ارسل الأمير مسلمة الى هذا المكان خاف عليه من هذه الأحكام ، فسلمه له وعرفه بمنفعته . (١)

وتكمن القوى السحرية فى الكلمة كما تكمن فى الأشياء . فاذا هتف المسلمون بقوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » انهزم الأعداء على التو . واذا هتفوا بقوله تعالى : « لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » اكتسبوا قوة غير عادية وانتصروا .

وقد أصيب حجاف — وهو احد المحاربين الأبطال — فى رجله ولم يعد يستطيع الوقوف . « فأدار أبو محمد البطال وجهه الى قبلة البيت الحرام وصلى ركعتين وبسط يديه بالدعاء ساعة زمنية . ثم دنا من حجاف وقال له : قم بقدرة الله تعالى الذى رد عليك رجليك وخلصك مما كان قد تم عليك . فقام حجاف مثل الأسد الجسور وهلل فى قيامه وتشهد بعلو صوته » . (٢)

وربما كان الاعتقاد فى قوة الكلمة الدافع الأكبر وراء قول الأشعار البطولية قبل أن يخوض البطل المعركة مباشرة . واذا كان الشعر فى السيرة — وهو كثير — ينقسم الى شعر غنائى يتمثل فى شعر الغزل أو الحنين ، وشعر بطولى ، فان غالبية هذا الشعر تنتمى الى النوع الثانى . فلابد أن يهتف البطل بشعر بطولى قبل الدخول فى المعركة . فهل يرجع ذلك الى الايمان بقوة الكلمة حينما يعبر الشاعر عن انفعاله القوى ورغبته فى آن واحد ؟ أم أنه يعد امتدادا لثروة الشعر الحماسى عند العرب ؟ أم أن البطل يهتف به على سبيل الاستعداد النفسى للدخول فى المعركة ، كما

---

(١) السيرة جـ ٥ ص ١

(٢) السيرة جـ ٥٧ ص ٥٨

نحس فى شعر عبد العزيز العلوى أحد المحاربين الأبطال ، حينما هم بمحاربة الروم بعد أن سمع بأسر ابنته . فقد هتف قبل دخوله المعركة :

الا خبــــروها أننى اليـــوم بـاذل
لروحى فى هيجــائها بالقواضــب
وانى أرد الخيــل أيضــا بصــارمى
وأضرب أعنــاق الليــوث الســلاهب
ولــو كــان فيمــا بيننــا ألف بلــدة
لهــا ألف ســور هان عنــدى مطالبى
وحق الذى حج الحجيــج لبيتـــه
ينــادونه لبيــك من كــل جــانب
لأقتحمــن الحـــرب حتى ترونهـــا
تفيض نجيعــا مثــل فيض السحائب (١)

فاننا نحس أن ضربة السيف ليست ســوى امتــداد طبيعى للضربات النفسية المتلاحقة التى تعتمل فى نفس المحارب .

والى جانب المعتقدات والتصورات الشعبية ، هناك الحكايات التى يحفظها الشعب فى ذاكرته لاعتزازه بها ، ومن ثم فهو يخلق لها مجالا فى السيرة لكى يحكيها عن عمـد . ومن ذلك ما يحكيـه الراوى عن الصحصاح فى قوله : « فبينما هو يحدث نفسه بالمسير الى الدير ، اذا هو بغزالة حسنة المنظر مليحة الزى ، وهى سائرة تتمخطر وعيناها تتوقدان كأنهما ياقوتتان وحولها جماعة من الغزلان وهم خلفهــا كأنهم غلمان وهى أمامهم كأنها ملك وســلطان ، وعن يمينها وشمالها غزالتان كالأتراك كأنهم لها حجاب ، وهى تتحدث

---

(١) السيرة جـ ٥٦ ص ٤٠

معهم . وكان الوقت عند غروب الشمس وقد اصفرت أرجا . فمد
الصحصاح اليها اسنانه واطلق نحوها عنانه فجرت قدامه وقد
لحقتها تلك الغزلان وهي تجد والصحصاح لها فى الطلب . هذا ولم
يزل خلفهم حتى غسقت الأرجا تطلب دخول الليل ، وقد مدت على
الأرض طنبا . وقد دخلت الغزالة الى غار في الجبل وتبعتها الغزلان،
وقد بقي الصحصاح حائر ولهان وعليها ندمان . فأراد أن يدخل
خلفها الى ذلك المكان فخاف على الجواد يشرد منه فى ظلمة الليل
ويبقى حاله بعده بالويل . فرجع طالب الدير واذا قد اعترضه
أسد طويل القامة عريض الهامة أحمر أغبر وقد جلله الوبر
وهو يتمخطر على الحجر ، وهو أفطس المنخر يطير من عينيه الشرر
ويقلب الوادى اذا زعق وزمجر ، وله أنياب أحد من النوائب ومخالب
اشد من المصائب ، صدغه عبوس ضيغم افطس ادغم وفيه تسمع
منه الرعد اذا همهم ويبصر من عينيه البرق اذا الليل اظلم واعتكر
كأنه القضاء المبرم والأجل المحتم . هذا وقد وقف الأسد وصاح ثم
تقدم عند ذلك الشبلان الى الصحصاح وهما أن يبتلعانه ويرميانه
عن جواده الى وجه الأرض والبطاح . فما كان (من الصحصاح الا
انه جرى نحوهما) أسرع من البرق حتى ضربهما ضربتين قسم
بهما الشبلين كل واحد نصفين . فصرخ عند ذلك الأسد وهم بقتله
وقد صاح وهجم على الصحصاح ، فهجم عليه الصحصاح . عندها
صرخ الأسد على الصحصاح صرخة قوية أقلب منها البرية ، وقد
هجم عليه ولطمه بيديه فأرماه تحته . فبينما هو والأسد فى ضراب
وقراع ودفاع ، وقد صارت روح الصحصاح فى النزاع واذا بجارية
حسنة القوام مليحة الابتسام كأنها البدر التمام قد أقبلت وصرخت
على الأسد .فارتجع عن الصحصاح وخلاه وراح . فنظر الصحصاح
الى وجه تلك الجارية فوجدها مبدعة للناظرين ونزهة للمتأملين .
اقدم اليها وقبل يديها وقال لها أنت انسية أم جنية فقالت له :

ايش لك بهذه القضية لا انسية ولا جنية . انا فاعلة خير ساكنة بجوار أهل هذا الدير . فقال الصحصاح : فهل أنت ذات خدر أم ذات بعل ؟ فعند ذلك قالت له الجارية ما أنت الا طماع يا صحصاح وسبب طمعك لما أن طاردت الغزالة واصطدتها ورأيت الوحيدية وهويتها ونسيت بنت عمك ليلى . وفى هذه النوبة قد طاردت الغزالة الأخرى وسلمت من الأسد سلامة . ولولا أن من الله عليك بى لكانت حلت بك الندامة ، وما كان لك كلام الى يوم القيامة . وبعد هذا كله تسألنى انا ذات بعل أو ذات خدر وتريد أن تطمع روحك فى زواجى؟. فليت شعرى اى شيء تدل به حتى تخطب البنات والنساء . ان كنت أنت تدل بكثير اموالك ، المال عندنا كثير . أو تدل بكرمك فأنت ما اطلقت الغزالة للوحيدية حتى تعلق قلبك بحبها ومحاسنها البهية وأخلاقها المرضية العلية . وان كنت تدل بشجاعتك وقوة براعتك فهذا وحش قد كسرك وأسرك وطلب قتلك . ولولا انى جئتك وخلصتك لكان قضى عليك . وان كنت تدل بفصاحتك فأنا أفصح منك وان كنت انت مدحت الأمير مسلمة وأبيه عبد الملك بن مروان ، فأنا مدحت النبى صلى الله عليه وسلم سيد ولد عدنان وأسلمت على يديه ، وأبى الآخر مدح رسول الله صلى عليه وسلم بقصيدة عجزت عنها فصحاء العرب وقصر عنها أصحاب القول والأدب ، وعجز عنها كل لسان وقر لها حسان شاعر النبى المختار بالفخر والفصاحة . فقال لها الصحصاح وقد حار من كلامها ولحقه الانبهار ، وقد غاب عن الوجود من طيب الفاظها وصار بحبها نشوان : والله انك لفصيحة اللسان قوية الجنان الا ان عندك زور وبهتان . فقالت له وما هو الزور والبهتان الذى بان لك منى حتى قلته عنى ؟ . فقال لها هو قولك انك مدحت النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر وحنين وفى غزوة الاحزاب . وهذا له اليوم ماينوف عنماية سنة ، وانك اكثر

ما يكون عمرك عشرون سنة . وقولك ان أبوكي مدح النبى صلى الله عليـه وسلم بقصيدة وأنا والله أحفظها كاملة وأحفظ شرحهـا وهى لملك الجن عقيق الذى آمن على يد النبى صلى الله عليـــه وسلم . فقالت له الحمد لله الذى كان تكذيبك لكلامى تصـديقك لنظامى . صدقت والله يا صحصاح أنا بنت عقهق الجنى ملك الجان. وان بنات الجن ما يتغير حسنها ولا ينقص جمالها . » (١)

فهذه حكاية تعد تراثا شعبيا ربما رواه العرب منذ أيام النبى وكانوا يستمتعون بحكايته ولذلك فقد أوجد الراوى له مناسـبة لحكايته عن عمد . وربما فسرت هذه الحكاية تفسيرا نفسيا بوصفها تعبيرا عن الافكار الشهوانية التى طال كبتها حينما كان العـربى يرحل وحده للقيام بمغامرات تستغرق وقتا طويلا فى قلب الصحراء .

ومن الحكايات التى تنتمى الى ثروة القصص الشعبى العربى حكاية العرافة والكهانة . وقد رأينـا كيف أنها استغلت فى حادثة تبرئة ذات الهمة من التهمة التى اتهمها بها ابن عمها الحـارث . ويحكى لنا القلقشندى حكاية شبيهة بحـكاية ذات الهمة حدثت لهند ابنة عتبة بن ربيعة فيقول : « ومن عجيب أخبارهم (أى أخبار العرب الجاهلين) أن هند ابنة عتبة بن ربيعة كانت زوجة الفاكه بن المغيرة المخزومى ، وكان له بيت للضيافة يغشاه النـاس من غير اذن . فخلا البيت يوما ، فاضطجع الفـاكه وهند فيه . ثم نهض الفاكه لبعض حاجاته . وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه . فلما رآها ولى هاربا وأبصره الفاكه وأقبل الى هند فركضها برجله وهى نائمة فانتبهت . فقال من ذا الذى خرج من عندك ؟ فقالت : لم أر أحدا وأنت الذى أنبهتنى . فقال لها اذهبى الى بيت أبيـك

---

(١) السيرة : ج ٥ ص ٥٢ الى ٥٤

فأقيمى عنده • وتكلم الناس فيها • فقال له أبوها انك قد رميت ابنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى الى بعض كهان اليمن • فخرجا فى جماعة من قومهما الى كاهن اليمن ومعها هند ونسوه اخر ، فلما شارفوا بلاد الكاهن ، قالت هند لأبيها : انكم تأتون بشرا يصيب ويخطىء ولا آمنه أن يسمنى ميسما يكون على سبة • فقال أبوها سأختبره لك • فصفر لفرسه حتى أدنى ، فأدخل فى احليله حبة حنظلة وشد عليها بسير • فلما دخلوا على الكاهن قال له عتبة : أنا قد خبأت لك خبأ أخبرك به فانظر ما هو ، فقال ثمرة فى كمرة • فقال : أريد أبين من هذا • فقال : حبه برفى احليل مهر • فقال له انظر فى أمر هؤلاء النسوة . فجعل يدنو من احداهن فيضرب بيده على كتفها ويقول انهضى حتى دنا من هند فقال لها : انهضى غير رشحاء ولا زانية ولتلدن ملكا اسمه معاوية • فنهض اليها الفاكه فأخذها بيدها فجذبت يدها من يده وقالت : اليك عنى ! فوالله لا حرص على أن يكون من غيرك • فتزوجها أبو سفيان بن حرب فولدت له معاوية »(١) •

فاذا تجاوزنا المعتقدات الشعبية والأخبار المأثورة التى تأخذشكل حكايات يستمتع العرب بحكايتها ، الى ذكر نموذج من التعبير عن اللا شعور الجمعى ، فاننا نجده يتمثل فى صور البطل منذ أن يولد حتى يبلغ مرحلة النضج والكمال • وقد سبق أن قدمنا نموذجين لحياة البطل يتمثلان فى حياة جندبة وحياة ذات الهمة • فقد ولد جندبة يتيم الأب ثم ماتت أمه بعد ولادته مباشرة وتربى لدى قوم غرباء • فلما عرف حقيقة نسبة ، انضم الى قومه وأصبح البطل المرموق •

---

(١) القلقشندى : الصبح الأعشى جـ ١ ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ (ط • المؤسسة المصرية للتاليف والترجمة والطباعة والنشر)

وبالمثل فقد تربت ذات الهمة لدى قوم غرباء بعد أن أبعدت عن أبيها وأمها • ثم عرفت فى النهاية حقيقة نسبها فانضمت الى أهلها وقد اكتملت شخصيتها وأصبحت بطلة السيرة الأولى • ولا تنفرد السيرة بهذين النموذجين ، فهناك مذبحون ولد البطال الذى تربى غريبا بعيدا عن أبيه فى بلاد الروم ، ثم حضر لقتال المسلمين فتعرفت عليه أمه ، فانضم الى قومه وقد أصبح بطلا مرموقا •وقد سمى مذبحون لأنه كان على وشك أن يذبح لولا أن أنقذه بعض رجال الروم الطيبون • وكذلك بحرون ولد عبد الوهاب من زوجته الرومية التى أسرت فى احدى المعارك ، وولدت ولدها هناك • ولما خافت عليه من الروم وضعته فى صندوق وألقت به فى البحر • فأشفقت عليه أميرة من أميرات الروم وربته وأطلقت عليه اسم بحرون لأنها عثرت عليه فى البحر . ثم تعرف على أبيه بعد ذلك وانضم الى صفوف المسلمين •

فاذا عرفنا أن حكاية ميلاد البطل على هذا النحو ، ترد فى الحكايات الخرافية والشعبية فى جميع أنحاء العالم ، استطعنا أن ننتهى الى أنها تعبير تلقائى عن اللاشعور الجمعى كما فسره علماء النفس . ومصدر هذا التعبير هو احساس الفرد بالعقبات التى تستكن فى لا شعوره منذ طفولته حتى يصل الى مرحلة التفرد والاكتمال . كما أنها تنشأ بدافع النموذج الأصلى فيما سماه يونج، وعرفه بأنه القوى الخيرة التى تستكن فى نفس كل انسان وتدفعه الى تحطيم العقبات فى سبيل الوصول الى الحياة المستقلة الكاملة . فالطفل يولد من أبوين ، وما يلبث أن يشعر — حينما يكبر — بسيطرة الأب عليه ، الأمر الذى يدفعه الى التعلق بأمه . ويقابل هذا فى حكاية ميلاد البطل فى التراث الشعبى ، أن الطفل غالبا ما يولد فى حضن أمه بعيدا عن أبيه . كما يقابله كره الأب لهذا الطفل اثر نبوءة تطلعه على خطورة شأنه • حتى اذا ما شب

الطفل عن الطوق ، اضطر ــ مدفوعا بطبيعة الحياة التى تتميــز بالاكتمال والكمال ــ الى الانفصال عن أمه . ويقابل هذا فى التعبير الشعبى اللاشعورى تسليم الأم ابنها لقوم غرباء ليتربى بينهم خوفا عليه . ثم يتحرك الطفل شيئا فشيئا نحو الحياة المستقلة الكاملة. فاذا به يصبح بطلا مرموقا ويتعرف على أهله مرة أخرى ؛ اذا لم يعد يخشى سطوتهم ، فيدافع عنهم وعن مبدأ الخير بوجه عام.(١)

هذه هى أهم العناصر الفولكلورية بالسيرة . ولعلنا نرى بعد ذلك كيف أن التراث الشعبى يقدم القديم والجديد معا . فالقديم يتمثل فى تراث الشعب الذى يقدسه ويحرص على الاحتفاظ به ... والجديد يتمثل فى التعبير عن علاقة الفرد الشعبى بالحياة المعاصرة التى يعيشها .

وربما كان هذا دافعا لنا لأن نغير منهجنا فى دراسة التراث الشعبى . فلا نعكف على جمع ودراسة ما تبقى من التراث القديم فحسب ، وانما نهتم فضلا عن ذلك بما تضيفه الحياة المتطورة التى يعيشها الشعب الى هذا التراث من مبادىء وأفكار وتصورات ؛ وصدى هذا فى تعبيره الشعبى .

وبقى علينا أن نشير فى مجال البحث الفولكلورى ــ عن أهم خصائص السيرة بوصفها حكاية شعبية .

لعل أوضح ما يميز الحكاية الشعبية عن الحكاية الخرافية من ناحية الشكل ، هو أن الحكاية الشعبية ترتكز على الواقع الذى يعيشه الشعب . وليس معنى هذا أن الحكاية الخرافية لا ترتكز على الواقع الذى نعيشه ، وانما هى ترتكز عليه أولا ثم ترفضه بعد

---

(١) انظر الفصل الخاص بميلاد البطل فى كتاب « أشكال التعبير فى الأدب الشعبى » للمؤلفة . ص ١٢٥ (دار نهضة مصر ١٩٦٦).

ذلك بكل ما فيه من قيود زمانية ومكانية ، وبكل ما فيه من أسباب تجلب الشقاء للانسان . وتخلق عالما سحريا جميلا يعيش فيه البطل حرا طليقا من كل قيد • أما الحكاية الشعبية فهى لا ترفض هذا الواقع ، وانما تصوره بكل ما فيه من قيود وعوائق • ولهذا فان بطل الحكاية الخرافية لا يصلح أن يكون نموذجا يحتذى به ، لأنه بطل خرافى من ناحية ، ولأنه يقوم بالمغامرات الخيالية التى لا تتحقق الا فى عالم الحكاية الخرافية من ناحية أخرى • أما بطل الحكاية الشعبية فهو يصلح لأن يكون نموذجا يحتذى به لأنه يتصل الى حد كبير بعالمنا الواقعى اتصالا وثيقا • واذا كانت هناك بعض الحكايات الشعبية التى تصور البطل قادرا على القيام بالمغامرات التى لا تتحقق الآ فى عالم الخيال ، فليس هذا سوى أثرا من آثار الحكاية الخرافية فى الحكاية الشعبية •

وبما تمكننا من توضيح الفرق بين عالم الحكاية الخرافية وعالم الحكاية الشعبية من خلال حادثة جزئية فى سيرة الأميرة ذات الهمة• تحكى السيرة أن عبد العزيز العلوى أحد أبطال السيرة ــ فقد والدته • فقعد حزينا تحت أستار الكعبة يفكر فى أمرها وأمره • « فبينما هو ذات ليلة من الليالى غلب عليه الكرى ، اذ رأى كأن طائرين أبيضين وأرجلهما حمر ، فقعد الواحد عند الركن الأيمن والآخر عند الركن الأيسر • فلما استقر بهما الجلوس قال الواحد للآخر : يا أخى أن هذا الشخص النائم شريف وقد فقد والدته وهى أعز الخلق عليه • فهل عندك منها علم ؟ فقال الطائر الآخر بكلام فصيح مثل كلام الآدميين ، اعلم يا أخى أن والدة هذا الشخص الذى خفيت عنه الأخبار هى أسيرة فى بلاد الكفار وقد أنزلوها فى سرداب تحت الأرض وهى تعذب فيه بأنواع العذاب » • ثم حدد الطائر المكان الذىأسرتفيه الوالدة • فلما استيقظ عبد العزيز خف لرؤية أمه فى هذا المكان وأنقذها •

فالقاص هنا على وعى بصلة السيرة بالواقع ، ومن ثم فقد روى هذه الحادثه بوصفها رؤيا ، فاحتفظ بذلك بطابع السيرة الواقعى . واذا افترضنا أن هناك حكاية خرافية تحكى عن هذه الحادثة ، فانها لا تحكيها بوصفها رؤيا ، وانما بوصفها واقعا يعيشه البطل الخرافى، فهو يفاجىء بظهور الطائرين اللذين يكشفان غمته ويمهدان الطريق لمغامراته .

أما الخاصية الثانية التى تتصل بشكل السيرة بوصفها حكاية شعبية ، وربما شاركتها فى ذلك الحكاية الخرافية ، فهى أنها تمثل مرحلة من التفكير الشعبى سبقته مراحل أخرى . أما المرحلة الأولى فهى مرحلة التعبير الأسطورى الذى يتمثل بصفة خاصة فى الأساطير التى تحكى عن طقوس الميلاد والنضج والوفاة . فلما هبط الانسان بفكره من السماء الى الأرض ، أخذ يمزج بين طقوس البطل الاله والبطل الانسان ، فنشأت عن ذلك حكايات البطل المؤله التى تحتفظ بآثار طقوس الميلاد والنضج والوفاه . أما المرحلة الثالثة فهى التى يصبح فيها الشكل الثانى فولكلورا ، بمعنى أنه يصبح مادة روائية تتوارث ويضاف اليها كثيرا من خيال الشعب ومعتقداته . ثم يصقل هذا الفولكور ويتبلور فى المرحلة الرابعة حينما يتخذ منه القصاص الشعبى مادة لتأليف الشكل الادبى المكتمل .

وأما الخاصية الثالثة للسيرة فتتصل بموضوعها . وقد حاول بعض الباحثين أن يدرس الدافع الاصلى وراء نشأة الحكاية الشعبية وبعبارة أخرى حاولوا أن يحددوا موضوعها الأصلى ، فكان ميدان بحثهم أقدم الحكايات المشهورة التى رأوها تتمثل فى مجموعات الحكايات الشعبية لمنطقة شمال أوروبا التى تسمى Islendiga Saga وقد رأوا أن هذه الحكايات تنقسم الى ثلاث مجموعات المجموعة الأولى تحتوى على حكايات عن الشعوب التى هاجرت

واستقرت فى البلاد الشمالية وهذه الحكايات تحكى عن مغامراتهم الواقعية والخيالية ، وعن جيرانهم ومعاصريهم ، كما تحكى عن أصلهم وعلاقة بعضهم بالبعض الأخر • ولا تتمثل البطولة فى هذه الحكايات فى شعب بأسره ، وانما تتمثل فى فرد بعينه ينتمى بدوره الى قبيلة أو أسرة معينة • أما أسلوب هذه الحكايات فهو النثر الذى يتخلله الشعر •

أما المجموعة الثانية فتسمى مجموعة حكايات الملوك • ولا يعنى هذا ارتباطها بالمفهوم السياسى العام ، فالملك لا يحارب فيها بوصفه ممثلا لمملكة ولكن بوصفه ممثلا لأسرته • ولا تتجاوز الحوادث التى تتناولها المجموعتان القرن الحادى عشر الميلادى •

أما المجموعة الثالثة فهى أقل ارتباطا بالزمان والمكان من المجموعتين الأوليين ، كما أنها تتضمن حكايات قبل عصر الاستيطان • ومع ذلك فان هذه المجموعة لا تختلف عن أختيها فى كونها تحكى عن بطل فرد ينتمى الى أسرة معينة •

وقد استخلص الباحثون بعد ذلك أن الموضوع الرئيسى فى هذه المجموعات هو تاريخ الاسرة أو القبيلة • ولا يصور هذا التاريخ الخاص بعيدا عن تاريخ الأمة بوصفها كلا ، فالبطل اذ يصنع تاريخ أسرته • يصنع فى الوقت نفسه تاريخ أمته •

وتبدأ الحكاية بعرض لتاريخ الاسرة أو القبيلة ، فتبدأ بالجد الاكبر ثم تتسلسل بأولاده وأحفاده حتى تصل الى الجيل الرابع أو الخامس فاذا بالبطولة تتركز وتبلغ قمتها فى فرد من أفرادها هو الذى يحول مجرى تاريخ أسرته أو قبيلته ، وبعبارة أخرى يحول مجرى تاريخ شعبه ، لأن تاريخ الشعب لا يصنعه سوى أسرته أو قبيلته • ومثل هذا الفرد يكون صاحب مثل سياسية واجتماعية ودينية ، فهو بطل محارب يغزو ويخضع الثائر ويفتح البلدان ،

ثم هو يحرر المظلوم من أسر الظلم ، وهو يملك فوق ذلك بناصية الدين فيخلصه من النفاق ومن المحاربين له ٠

وبهـذا تحـدد الموضـوع الرئيسى فى الحكايات الشـعبية الشمالية ٠

ثم حاول الباحثون بعد ذلك أن يمتدوا بالبحث خطوات عن طريق المقارنة بين الحكايات الشعبية فى البلدان الأخرى ؛ فاهتدوا الى أن هذا المفهوم يتحقق الى حد كبير فى ثروة الحكايات الشعبية فى العالم بأسره ، بل انه يتحقق فى أخلد الأعمال الأدبية الشعبية مثل الالياذة وملحمة نيبلنجن ليد الألمانية وبيولف الانجليزية . فكل منهما يركز حوادثه حول سيرة بطل بوصفه ممثلا لأسرته أو قبيلته وحاملا لأبرز خصائص جنسه . (١)

وبالمثل فان سيرة الأميرة ذات الهمة ، وهى نموذج كامل لحكاية البطولة الشعبية ، تمجد البطل بوصفه ممثلا لقبيلته وحاملا لأبرز خصائص جنسه ٠ فهى تبدأ بعرض لتاريخ الأسرة مبتدأة بالجـد الأكبر وهو الحارث الكلابى . ثم تتسلسل بعد ذلك بحوادثها مشيرة الى بطولة بعض أفراد الأسرة حتى تصل الى الجيـل الخامس والسادس ، فتبرز ذات الهمة وولدها عبد الوهاب بوصفهما قمة بطولة هذه الأسرة ، فهما يدافعان عن كيـانها ويحـاولان تأكيد وجودها فى المجتمع العربى . وهما بعملهما هـذا يدفعان الأمة العربية الى أمام بعد أن يقضيا مع سائر الأبطال على كل عناصر الضعف التى كانت الدولة تعانى منها .

André Jolles : Einfache Formen, S. 66-70 (Tübingen 1958).

ولا تنفرد سيرة الأميرة ذات الهمة بهذا الموضوع ، وانما تتفق معها سائر السير الشعبية العربية . وكما سيتضح لنا هذا فى حكاية عمر النعمان : احدى قصص الف ليلة وليلة التى سنتعرض لها وشيكا . بل يتضح فى الملحمة البيزنطية ديجينيس أكريتاس .

ولعلنا بذلك نكون قد استوفينا بحث السيرة من جوانبها المتعددة . وقبل أن نبدأ الجزء الثانى من البحث وهو الأدب الشعبى البيزنطى ، نرى أنه لزام علينا أن نشير الى بعض القصص الشعبى الأخر الذى نرى بادىء بدء أنه يرتبط بسيرتنا ارتباطا قويا ونعنى بذلك قصة الملك عمر النعمان وملحمة السيد البطال التركية .

الفصل الرابع

السيرة ..

بوصفها عملاً أدبياً وعملاً شعبياً

حكاية الملك عمر النعمان

لاحظ بعض الباحثين (١) أن حكاية « الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان » ، احدى قصص ألف ليلة وليلة تختلف فى جوها وموضوعها عن سائر قصص الف ليلة وليلة فى عمومها . فبينما تستمد حكاية عمر النعمان موضوعها من الواقع ، حينما تتخذ من الصراع العربى البيزنطى موضوعا لها ، نجد الحكايات الاخرى فى عمومها ـ اذا استبعدنا حكاية نور الدين ومريم الزنارية التى تشير الى العلاقة العربية البيزنطية من بعيد ـ تبتعد كل البعد عن موضوعات الحروب وتصور ما هو أمتع من ذلك من حكايات المغامرات وقصص السحر الخيالى . وبينما يشيع فى حكاية عمر النعمان جو الواقع المعتم ، يشيع فى الحكايات الأخرى جو الخيال السحرى المشرق .

Rudi Paret: Der Ritter Roman von 'Umar An-Nu'mân und seine Stellung zur Sammlung von Tausand und eine Nacht. Tübingen 1929.

وقد حدا هذا بالباحثين الى أن يستنتجوا أن حكاية الملك عمر النعمان غريبة عن حكايات ألف ليلة وليلة ومن المحتمل أنها أضيفت اليها فى عصر متأخر .

وقبل أن نتعرض للعناصر التى تتألف منها حكاية عمر النعمان نقدم تلخيصا موجزا لها .

كان عمر بن النعمان حاكما فى دمشق قبل خلافة عبد الملك ابن مروان . وكان متزوجا من أربع نساء لم يرزق الا من احداهن بولد سماه شراكان . ثم تزوج بجارية رومية تدعى صفية فحملت منه . وخشى شراكان أن تلد الجارية ولدا ينازعه الحكم بعد موت أبيه . فلما حان ميعاد الوضع ، خرج شراكان ليصطاد متلهيا بعد أن ترك وراءه رسولا يحمل اليه نبأ الولادة . وولدت الجارية بنتا ، فأسرع الرسول ليزف الى شراكان النبأ السار . ولكن صفية ولدت بعد رحيل الرسول ولدا بعد ولادة الابنة . فسمى الملك عمر النعمان البنت نزهة الزمان كما سمى الابن « ضوء المكان » .

ثم جاءت وفود أفريدون ملك القسطنطينية الى الملك عمر النعمان تطلب منه العون ضد الملك حردوب ملك قيسارية . أما سبب نشوب الحرب بين الملك أفريدون والملك حردوب ، فهو كما شرحه الرسول للملك عمر النعمان ، أن أحد حكام العرب كان قد أرسل الى الملك أفريدون هدية من بينها تميمة هى عبارة عن خرزات ثلاث ، ويرجع تاريخها الى زمن الاسكندر الأكبر . ومن غرائب هذه الخرزات أنه اذا علق احداها على صدر طفل ، فانه يظل معافيا طول حياته ولا يمسسه شر قط . وبينما كان رسول الحاكم العربى فى طريقه الى أفريدون ، طلع عليه رجال حردوب وسلبوه الهدية بما فيها التميمة . وفشلت محاولات الملك أفريدون

مع الملك حردوب فى سبيل استرجاع التميمة ، ولذلك فعد قرر أن يحاربه حتى يسترد ما سلب منه .

واستشار عمر النعمان قومه فى الامر ، فاتفقوا على محاربة ملك قيسارية، اذ كانتعلاقته بالعرب قد ساءت فى هذا الوقت . فجهز الملك جيشا بقيادة ولده شراكان ــ وكان أبوه قد أخفى عنه نبأ ولادة أخيه ــ ووزيره دندان . وسار الجيش حتى وصل الى مكان فسيح شاء أن يستريح عنده قبل ان يستأنف سيره الى بلاد الروم . ثم ترك شراكان جيشه مع وزيره دندان وخرج ليستطلع احوالالعدو . ولما كان مجهدا كل الجهد ، نام على ظهر حصانه الذى أخذ يسير به حتى بلغ الى غابه رحبة يستطع فيها القمر . واستيقظ شراكان على صوت أنثوى يرن صداه فى أجواء الغابة فاختبأ شراكان بين الأشجار ونظر ، فاذا امرأة رومية رائعة الجمال تصارع مثيلاتها من الفتيات وكانت كلما صرعت احداهن انطلقت تضحك ضحكة ساخرة . فخرج شراكان من مخبئه وكشف لهن عننفسه .واذا به أمام امرأة رائعة الجمالهىالبطلة الرومية ابريزة. وفى الحال وقع شراكان أسير حبها كما أنها بادلته الحب . ثم طلبت منه مبارزته اعتزازا منها بقوتها . ولكن شراكان غلبها ، فلم يزدها ذلك سوى اعجابا به . فدعته الى الدين الذى تسكنه حيث اعدت له صنوف الطعام والشراب . وفوجىء شراكان بأن ابريزة ليست سوى ابنة الملك حردوبالذى جاء لمحاربته.ولميخف عنها شراكان الغرض الذى من اجله وصل الى هذا المكان ، وهو محاربة أبيها بأمر من والده الملك عمر النعمان ،حينما طلب منه الملك أفريدون العون ضد الملك حردوب . وابتسمت أبريزة ابتسامة ذات مغزى وانطلقت ــ مدفوعة بحبها له ــ لتكشف له عن حقيقة الامر ، وهو أن أباها الملك حردوب لا يقف من الملك أفريدون موقفا معاديا ، وانما هى خديعة من الملكين يهدفان

من ورائها اسر شراكان فيتخذه الملك أفريدون دية يحتفظ بها حتى ترد اليه ابنته صفيه زوجة الملك عمر النعمان ، والتى ولدت له كان مكان ونزهة الزمان . ثم أخذت تقص عليه بعد ذلك قصة وصول صفيه الى بلاد عمر النعمان . فقد كانت صفية تزور احدى الديارات النائية . وفى أثناء رجوعها عن طريق البحر مع جواريها . طلع عليهم رجال الملك حردوب وأخذهم أسرى وأرسلوهم الى بلاد حردوب . وقرر حردوب — رغبة منه فى استمالة الملك عمر النعمان اليه حتى لا ينشب الحرب ضده — أن يرسل صفية الجميلة هدية اليه . ولما أيقن أفريدون أن الملك عمر النعمان لن يرد اليه ابنته ، بخاصة بعد أن أصبحت أما لأولاده — قرر ألا يطلبها جهرا ، وانما يستعمل فى ذلك الخديعة . ولذلك فقد نصحته ابريزة أن يعود الى بلاده حتى لاتتم عليه الخديعة . فوافق شراكان على ذلك بعد أن اتفق معها أن ترحل معه الى بلاده حتى يتم زواجه منها . ووافقت ابريزة ولكنها أخبرته بأنها ستلحق به حتى لا يكتشف أمرها .

ووفت ابريزة بوعدها ووصلت الى بلاد عمر النعمان قبل وصول شراكان ، الذى اشتبك فى أثناء الطريق مع جيش الأعداء ودحره . وقدمت ابريزة نفسها الى الملك عمر النعمان بعد أن أطلعته على سبب مجيئها وهو الزواج من شراكان . ولكن الملك عمر النعمان طمع فى الزواج منها ، وشاء ان ينفذ هذا الامر فى سرعة قبل وصول شراكان . ولما رفضت ابريزة فى اصرار ان تتم هذا الزواج ، دخل بها الملك عمر النعمان خلسة . ولما تبين الأمر لابريزة قررت ان تهرب الى بلادها مع خادمتها مرجانة دون أن يشغلها موضوع حملها من الملك عمر النعمان . ولكنها لم تتمكن من الهروب الا بعد أن استكملت شهور حملها وأشرفت على الوضع . واصطحبت ابريزة معها خادما عربيا يعرف مسالك الطرق ويدعى

الغضبان . وفى أثناء الطريق ارسلت ابريزة مرجانة لتقضى لها بعض الأمر . فسولت نفس الغضبان له أن يرتكب اثما مع ابريزة ، افضى بها الى الموت فى الوقت الذى ولدت ابنها . ولما رجعت مرجانة لم تجد الخادم ووجدت سيدتها وقد أشرفت على الموت . فحملتها هى وابنها الى قيسارية حيث أفضت ابريزة روحها الى خالقها . وكانت ابريزة قد أوصت مرجانة أن تعلق خرزة من الخرزات الثلاث ـ وكانت قد سلمت الخرزتين الآخريين الى الملك عمر النعمان ـ فى صدر ابنها الذىأطلقعليه فيما بعد اسمرومزان، واوصتها بأن تجعله يعلقها طوال حياته .

ووصل شراكان الى بلاط أبيه قبل هروب ابريزة ، واستاء لفعلة أبيه كل الاستياء . وزاد استياؤه حينما رأى أخاه كانمكان، وكان أمره خافيا عنه حتى هذا الحين . عندئذ قرر أن يرحل من بلاط أبيه الذى منحه ولاية دمشق بعيدا عنه . أما ضوء المكان فقد طلب من أبيه أن ينزح للحج مع أخته نزهة الزمان . وفى أثناء عودتهما من الحج هوجما وشردا ولاقا صنوف العذاب ، ولم يعودا الى قصر أبيهما الا بعد مشقة كبيرة .

ولم ينس حردوب أن ينتقم من الملك عمر النعمان ما فعله فى ابنته ابريزة . وقرر مرة أخرى أن يستخدم الخدعة بدلا من السيف . فأرسل اليه الجوارى الحسان اللاتى خدعنه وقتلنه . أما الملك أفريدون ملك القسطنطينية قد أعلن الحرب على العرب . وكان ضوء المكان وشراكان قائدا الجيوش العربية . ولما رأت جيوش الروم أن المسلمين سيلحقون بهم الهزيمة أسرعوا وقتلوا شراكان عن طريق الخديعة . وحزن ضوء المكان كل الحزن على مقتل أخيه ، ولذلك فقد اقتنع بالنصر الذى كسبه وعقد الصلح مع الروم ورجع الى بغداد حيث توفى بعد سنين قليلة .

وتولى كان مكان الحكم بعد أبيه ضـوء المكان تحت وصـاية حاجب أبيه الساسانى ، اذ كان مايزال قاصرا . على ان الحاكم الساسانى ما لبث أن طرده وقبض على مقاليد الأمور .

ولم يجد كان مكان بدا من أن يبرح بغداد فخرج وحيدا يجوب الصحارى والقفـار حتى أبصر نهر الفرات فجلس عند شـاطئه يتغنى بألمه ويقول :

خرجت وفى أملى عـودة ولكننى لسـت أدرى متى
وشردنى أننى لم أجـد سـبيلا لدفع ما قـد اتى

ثم توضأ من ماء نهر الفرات ودعا الله أن يعينه على تحقيق آماله ، ففى تلك اللحظة شعر بعظم المسئولية الملقاة على كاهله ، فقد كان عليه أن يخلص بلاده من الأعداء المتطفلين عليها وأن يرفع من شأنها ويقضى على عناصر ضعفها .

ثم لحقت بكان مكان زمرة من الجيش العربى لتقف فى صفه ؛ ومن بينها الوزير دندان . فعزم بهذه الفئة أن يحارب الروم أولا ، ثم يرجع ليخرج الطاغية الساسـانى من بلاده ويعيـدها الى اصـحابها . ولـكن جيـوش الروم كانت من الـكثرة بحيث استطاعتأن تهزم جيش كانمكان ، وأن تأخذه أسيرا الى بلاط الملك الرومى رومزان الذى كان يحكم فى ذلك الوقت . وقرر رومزان أن يقتل كانمكان بسيفه علىرؤوس الأشهاد . فلما مثل أمامه كانمكان وأمر رومزان السياف أن يهوى عليه بسيفه ، اسرعت مرجانة وأمرته الا يفعل هذا اذ أن كان مكان ليس سوى ابن أخيه ضوء المكان . فأمر رومزان السياف فى الحال أن يضع السيف جانبا حتى يستمع الى تلك القصة الغريبة . وهنا انبرت مرجانة تشرح له قصة نسبه من أبيه الملك عمر النعمان وأمه ابريزة ، وكيف أنها حملته الى بلاد الروم بعد أن توفيت فى أثناء الطريق وهى تضعه . ثم طلبت منه أن ينظر الى الخرزة المعلقة فى صدره وأن يقارنها

بالخرزة المعلقة بصدر كان مكان . فلما فعل وجدهما متشابهتين كل التشابه . عندئذ تأكد رومزان من حقيقة نسبه وعانق ابن أخيه واعلن اسلامه على رؤوس الأشهاد . ثم حشد لكان مكان جيشا كبيرا وأرسله معه الى بغـداد حيث فاجئوا الحـاكم السـاسانى وقهروه واستردوا بلادهم .

وهكذا ائتلفت الدولة الرومية مع البلاد الاسلامية تحت حكم المسلمين ، فأصـبح كان مكان يحكم فى بغـداد وروموزان فى القسـطنطينية .

هذه قصة عمر النعمان التى تتخذ من حرب العرب مع الروم موضوعا له . وقد أراد القصاص الشعبى أن يمزج هذه الحكاية الشعبية بجو السـحر والخـرافة حتى تتلاءم مع جو الف ليلة وليلة ، فأدخل عليها بعض الحكايات البعيدة عن موضوعها . وقد وجد لذلك مناسبة طيبة ، وذلك حينما أراد ضوء المكان أن يسرى عن نفسه بعد مقتل أخيه شراكان فطلب من وزيره دندان أن يسليه ببعض الأسمار . فلما هدأت نفسه قرر أن يستأنف الحرب مع الروم .

وقبل أن نتعرض الى علاقة حكاية عمر النعمان بسيرة الأميرة ذات الهمة ، نشـير الى أهم الأبحاث التى نشأت بصـدد هذه الحكاية .

فقد بحث الأسـتاذ المستشرق الدكتور باريت هـذه الحكاية بوصفها حكاية مقحمة على ألف ليلة وليلة من ناحية كما بحث من ناحية أخرى العناصر المجتمعة التى جمع بينها القاص الشـعبى وألف منها حكاية مكتملة . ويهمنا الجزء الثانى من البحث لأنه سيسلمنا الى العلاقة بينها وبين سيرة الأميرة ذات الهمة .

يرى الأستاذ باريت أنه من الصعوبة بمكان أن نكشـف عن الحوادث التاريخية المحددة التى ربما كانت دافعا على تأليف هذه

الحكاية . حقا أن مخطـوط برلين يذكر اسم الملك لاوى بدلا من افريدون ، الأمر الذى حدا بالدكتور باريت الى أن يفترض أن لاوى هذا ربما كان تحريفا لاســم الامبــراطور البيــزنطى ليو الثالث الايسورى الذى صد هجمات العــرب على القسطنطينية ٧١٧/ ١٨ م ، الا أن هذه الاشارة التاريخية ــ ان صحت ــ لا تعد ــ من وجهة نظره ــ دافعا على تأليف الحكاية .

أما ذكر قيسارية وملكها حردوب ، فيشير من وجهــة نظر الباحث الى الهجوم الذى قام به مسلمة بن عبد الملك على قيسارية عام ٢٦/٧٢٥ م . على أن اختيار القاص الشعبى العاصمة بغداد بدلا من دمشق ، يدل على القاص شاء أن يحدد زمنا للحكاية وهو العصر العباسى . وأما اسم الملك عمر بن النعمان فربما أشــار الى عمرو بن النعمان أحد ملوك قضاعة الذين نزحوا الى الشام وحالفوا الروم .

وكما جمعت حكاية الملك عمر النعمــان بين هــذه العناصر التاريخية المتنوعة ، فقد تأثرت كذلك بما كان يروى من حكايات شعبية عربية وغير عربية . فأفريدون شخصية بارزة فى الشاهنامة ، كما أن قصة ابريزة مع خادمها الغضبان تشبه تماما حكاية الرباب وخادمها سلام فى سيرة الأميرة ذات الهمة .

هذه الأصــداء التاريخية والمؤثرات القصصية المختلفــة ، اجتمعت لا لتؤلف عملا قصصيا يرتكز على التاريخ كما هو الحال فى سيرة الأميرة ذات الهمة ، وانما ليتألف منه ــ كما سنشير الى ذلك ــ عملا أدبيا رمزيا أساسه الصراع العربى الرومى(١) .

Rudi Raret : Der Ritter Roman Von Omar An-Numan; Tubingen 1927 S. 21.
Rudi Paret : Die Geschichte des Islams im Spiegel der arabischen Volksliteratur (Philosophie und, Geschichte B. 13, 1927), S. 15.

هذه هى خلاصة دراسة الأستاذ باريت لهذه الحكاية . وهناك بحث آخر يهدف الى عقد مقارنة بينها وبين هذه الحكاية واحدى الحكايات الشعبية البيزنطية، ولكننا نودان نؤجل عرض خلاصة هذا البحث الأخير الى الفصل الخاص بالمقارنات .

وقد كانت لفتة الدكتور باريت الى العلاقة بين حكاية عمر النعمان وسيرة الأميرة ذات الهمة ، تلك التى تتمثل فى حكاية ابريزة والغضبان من ناحية ، والرباب وسلام من ناحية أخرى ، دافعا لنا لأن نبحث عن وجوه التشابه بين سيرة الأميرةذات الهمة

ويمكننا أن نلخص وجوه التشابه بين سيرة الأميرة ذات الهمة وحكاية عمر النعمان فيما يلى :

أولا : ترتكز حكاية عمر النعمان على موضوع الحرب بين العرب والروم ، كما هو الحال فى سيرة الأميرة ذات الهمة . كما أنها تميز بين الملك حردوب ملك قيسارية وهو ملك الروم فى مكان آخر ، وبين أفريدون ملك القسطنطينية . كما تميز بينهما وبين الافرنج الذين حاربهم شراكان فى أثناء رجوعه الى بغداد بعد لقائه مع ابريزة . وبالمثل فإن سيرة الأميرة ذات الهمة كثيرا ما تشير الى ملوك مستقلين عن الدولة البيزنطية ويحكمون فى قلاع حصينة ويحاربون امبراطور القسطنطينية . وكل هذا يشير الى ظروف سياسية واحدة تعيشها الامبراطورية البيزنطية . ولا يسعنا سوى ان نحيل القارىء على الاطلاع على الخريطة المرفقة بالبحث وعلى خريطة ابن حوقل فى كتابه المسالك والممالك التى توضح المناطق المستقلة عن الدولة الرومانية الشرقية .

ثانيا : تتفق حكاية عمر النعمان مع سيرة الأميرة ذات الهمة فى هدفها كل الاتفاق ، فهى ترمى مثلها الى استرداد العنصر العربى لحقوقه ومكانته عن طريق اخضاع العناصر الدخيلة عليهم

فى الداخل ، والانتصار على العدو الخارجى فى الخارج • وقد حققت حكاية عمر النعمان الهدفين تماما كما تحققا فى سيرة الأميرة ذات الهمة •

ثالثا : مجدت سيرة الاميرة ذات الهمة أسرة بنى كلاب التى تمثل العنصر العربى الأصلى ، وبالمثل مجدت حكاية النعمان أسرة الملك عمر النعمان ،ولعلها رمز للاسرة العربية بأسرها . والحكايتان بهذه الصورة تؤيدان الرأى السابق الذى أشرنا اليه وهو أن الحكاية الشعبية الأصلية نشأت لتمجد الأسرة أو القبيلة بوصفهما صانعتين لتاريخ الأمة • وقد تسلسلت كلتا الحكايتين بتاريخ القبيلة والأسرة حتى وصلتا الى قمة البطولة التى تمثلت فى الجيل الرابع والخامس من سلسلة نسبها .

رابعا : تتفق حكاية عمر النعمان مع سيرة الأميرة ذات الهمة فى كثير من حوادثها الفرعية ، فقد اعترض حوادث الحكايتين لغز ظل سره مكتوما حتى اتكشف أمره . وقد كان هذا التكشف فاتحة النصر فى سيرة الأميرة ذات الهمة وخاتمته فى حكاية عمر النعمان .

ففى سيرة الأميرة ذات الهمة ، هربت الرباب زوجة الحارث الكلابى بعد وفاة زوجها خوفا من أعدائه . وقد اصطحبت معها خادمها سلام ليكون عونا لها فى الطريق اذا ما وافاها الوضع ، اذ كانت على وشك ولادة طفلها . ولكن الخادم ارتكب معها اثما أدى بها الى ولادة طفلها ثم تركها وهرب . وساءت حالة الأم حتى اشرفت على الموت ولكنها اسرعت وعلقت بصدر طفلها تميمة تجلب له الخير ، فكان أهل الحى يتبركون بها « فيضعونها على المصروع فيفيق وعلى الحامل فتضع وعلى المريض فيشفى لوقته » . فلما وقع الخلاف بين دارم وجندبة ، وأراد جندبة أن يترك بيت دارم ،

طلب الأخير التميمة لأنه لا غنى له عنها . فلما هم جندبة بانتزاع التميمة فتحت وكشفت له عن سطور مكتوبة . واذا به يقرأ نسبه وتاريخ حياته . فهم بالرجوع الى قومه وكان قدومه فاتحة نصر لهم .

وقد تكررت مأساة الرباب بعينها فى حكاية ابريزة مع خادمها الغضبان كما سبق أن شرحناها . وقدكانت الخرزتان المتشابهتان المعلقتان بصدر كل من روزمان وكان مكان الوسيلة الوحيدة التى تأكد رومزان عن طريقها من صدق قول الخادمة مرجانة . وقد كانت ابريزة قد سلمت الى الملك عمر النعمان ثلاث خرزات اثر وصولها الى بغداد بوصفها تميمة ذات قيمة . فأعطى احداها الى شراكان والثانية لضوء المكان الذى سلمها بدوره الى ابنه كان مكان . واما الثالثة فقد احتفظت بها نزهة الزمان . فلما رمى شراكان بخرزته فى وجه أبيه ، تناولتها ابزيزة واحتفظت بها لنفسها .

والى جانب هذه الحادثة الرئيسية ، هناك بعض الحوادث الفرعية التى تتشابه فى كل من الحكايتين كأن تتنكر شواهى ذات الدواهى فى هيئة زاهد متعبد ، وتغلق نفسها فى صندوق يحمله بعض رجالها الى بلاد المسلمين ، ويدعون انهم عثروا على هذا الزاهد تعذبه جموع الروم فأخفوه فى صندوق وهربوا به . وقد نجحت ذات الدواهى بهذه الوسيلة فى قتل شراكان . وقد تكررت هذه الحكاية بحذافيرها فى سيرة الأميرة ذات الهمة . وقد نجح الزاهد المتنكر فى وضع السم فى طعام مسلمة والصحصاح . وكادت تتم عليهم الخدعة لولا الخاتم السحرى الذى كشف لهم عنها .

وكأن يولد ولد لبطل مسلم عربى فى بلاد الروم ويظل امره خافيا عن أبيه مدة طويلة ، يشب فى أثنائها فى حضن النصرانية ،

حتى ينكشف الأمر للابن والأب معا ، فيعلن الابن اسلامه وينضم الى قومه . وقد حدث هذا مع بحرون ولد البطال ومذبحـون ولد عبد الوهاب ، كما حدث مع رومزان فى حكاية عمر النعمان .

هذه هى وجوه التشابه بين حكاية عمر النعمان وسيرة الأميرة ذات الهمة . فهل يمكن أن يدفعنا هذا الى افتراض تأثير احدى الحكايتين فى الأخرى ؟

ربما دفعنا الأساس التاريخي الواقعى الذى اعتمـدت عليه سيرة الأميرة ذات الهمة الى أن نفترض أن سيرة الأميرة ذات الهمة تعد الأصل ، حيث أنها صـورت الواقع التاريخى ملونا بخيـال الشعب . على أن هذا لا يعنى أن حكاية عمر النعمان قد نشأت متأثرة بسيرة الأميرة ذات الهمة . فمن المحتمل أنالحكايتين نشأتا منفصلتين فى ظروف سياسية وفكرية واحدة ، الأمر الذى دعا الى تشابه الحكايتين حتى فى تفصيلاتهما .

ذات الهمة « ومغامرات السيد البطال » التركية

لم تعش مغامرات السيد البطال فى سيرة الأميرة ذات الهمة وحدها ، وانما عاشت فى الحكاية التركية التى اتخذت منها عنوانا لها . (١)

وكما يبدو من عنوان الحكاية ، أنها اهتمت بمغامرات السيد البطال بصفة خاصة . اما الأساس التاريخى الذى ارتكزت عليه سيرة الأميرة ذات الهمة ، فقد أغفلته الحكاية التركية . وربما حدث هذانتيجة جهل القاص ، أو بقصد الاغفال المتعمد . ويؤكد لنا

Hermann Ethé : Die Fahrten des Sajjed el Battal, (Leipzig, 1871).

الخليط المتنوع من الأسماء التى ترد فى الحكاية التركية ان القاص كان يستمع الى صنوف مختلفة من الحكايات الشعبية واقتبس منها بعض الأسماء التاريخية المشهورة وادخلها فى حكايته . فمن قياصرة الروم يظهر هرقل وقسطنطين وهما البطلان الروميان اللذان ظهرا فى الحكايات الشعبية حول معركة تبوك . كما انها حددت زمن حوادثها ابتداء من عصر الخليفة عبد الملك بن مروان حتى عصر الواثق بالله ، وهو الزمن بعينه الذى حصرت فيه سيرة الأميرة ذات الهمة حوادثها . أما حاكم ملطية فيسمى عمر النعمان كما تسمى ابنته صفية ، وكلا الاسمين أشارت اليهما حكاية عمر النعمان السالفة . وبالمثل فان وزير قيصر الروم يدعى أكريتاس . واكريتاس هو بطل الملحمة البيزنطية التى سنخصها بالدراسة التالية لذلك .

كل هذا يدفعنا الى القول بأن حكاية « اسفار السيد البطال » التركية تعد المصب الذى استقبل صنوف الحكايات الشعبية التى نشأت حول الحروب العربية البيزنطية .

أما عن العلاقة بين سيرة الأميرة ذات الهمة وبين الحكاية التركية ، فان أول ما يلفت النظر ، هو اشتراكهما فى تمجيد بطل تاريخى هو السيد البطال . ولكن بينما تمجد الحكاية التركية هذا البطل وحده ، نجد أن السيرة العربية تمجده مع أبطالها الآخرين . فالسيد البطال فى الحكاية التركية هو البطل الفريد . واذا كانت قد ذكرت عبد الوهاب ، فهى لم تذكره الا باعتباره وليا فحسب . ولما كانت الحكاية التركية غير حريصة على الارتكاز المباشر على التاريخ مخالفة فى ذلك سيرة الأميرة ذات الهمة ، فمن الطبيعى أن يختفى السرد التاريخى منها . ومن ثم فهم تختلف أساسا فى بدايتها مع سيرة الأميرة ذات الهمة . فقد بشر النبى فى الحكاية التركية — عن طريق الوحى بظهور بطل فى ملطية يسمى جعفرا .

كما اطلعه الوحي ان هذا البطل سيعمل على نصرة الاسلام في البلاد المسيحية . وكان عبد الوهاب يشهد نزول الوحي على محمد عليه السلام . فلما اخبره النبي بما نزل به الوحي تمنى عبد الوهاب أن يعيش حتى زمن هذا البطل . وحينئذ ظهر الوحي للنبي مرة اخرى وأخبره بأن عبد الوهاب سيشهد بطولة البطل جعفر (١) . وظهر جعفر بعد ذلك ، وبرز بوصفه بطلا مدافعا عن الاسلام والأمة الاسلامية ضد الروم ودولتهم النصرانية . وقد سمى فيما بعد باسم البطال تأكيدا لبطولته . (٢)

ولم تجمع الحكاية التركية بين البطال وعبد الوهاب فحسب كما هو الحال في السيرة ، وانما اضافت اليهما الشخصية المكملة لحوادثها وهي شخصية عقبة . فهي تقدم شخصيته فتقول : « وكان عقبة قاضيا في بغداد ، ويفوز بالمكانة الاسمى لدى الخليفة ، هذا مع أنه كان كافرا » . ثم تأخذ الحكاية بعد ذلك في سرد مغامرات عقبة والبطال . تماما كما في سيرة الأميرة ذات الهمة .

ولا تتمثل وجوه الشبه بين السيرة العربية والحكاية التركية الى هذا الحد فحسب ، وانما تتعداه الى بعض التفصيلات الدقيقة التي لا يمكن أن تكون قد ظهرت اعتباطا في الحكايتين . ومثال ذلك الرؤيا التي رآها عبد العزيز العلوي في سيرة الأمير ذات الهمة حينما اختفت امه . فقد راى«كأن طائرين ابيضين وأرجاهما

---

(١) Ibid, Band I, S. 56

(٢) صفة البطال في سيرة الأميرة ذات الهمة معناها غير الصالح ، وذلك اشارة الى حياة البطل الأولى حينما كان جبانا غير صالح للقتال . اما في الحكاية التركية فهي صيغة مبالغة من البطل . على أن هذه الصيغة ـ وفقا للمعاجم العربية، تعد اشتقاقا من البطالة لا من البطولة .

حمر . فقعد الواحد عند الركن الأيمن والآخر عند الركن الأيسر . فلما استقر بهما الجلوس قال الواحد للآخر : يا اخى ان هذا الشخص النائم شريف وقد فقد والدته وهى أعز الخلق عليه . فهل عندك منها علم ؟ فقال الطائر الآخر بكلام فصيح مثل كلام الآدميين : اعلم يا أخى أن والدة هذا الشخص الذى خفيت عنه اخبارها ، هى أسيرة فى بلاد الكفار وقد انزلوها فى سرداب تحت الأرض وهى تتعذب فيه بأنواع العذاب » .

هذه الرؤيا بعينها رأتها زوجة عمر النعمان فى الحكاية التركية حينما اختفت ابنتها صفية . وقد أجاب أحد الطائرين الآخر بأنها تختفى بالقرب من البحار السبع .

وهكذا نرى أن العلاقة قوية للغاية بين السيرة العربية والحكاية التركية ، الأمر الذى يدفعنا لأن نؤكد — فى هذا المجال — تأثير احدى الحكايتين على الأخرى ، فالحكاية التركية تكاد تكون رواية اخرى للسيرة العربية . ولكن لما كان القاص التركى بعيداً بعواطفه عن التاريخ القبلى الذى يسيطر على سيرة الأميرة ذات الهمة ، فقد أهمل القاص ذكره واكتفى بالامتداد بنسب البطال الى النبى عليه السلام عن طريق على بن أبى طالب .

واذا كان لنا أن نرجح أيا من الحكايتين اثرت فى الأخرى ، فاننا نرى أن سيرة الأميرة ذات الهمة قد تركت أثرها فى حكاية « اسفار السيد البطال » التركية . فقد نبعت سيرة الأميرة ذات الهمة من التاريخ مباشرة ، أى أنها تعد صدى مباشراً للواقع السياسى والاجتماعى الذى عاشه الشعب العربى فى فترة من فترات تاريخه .

الباب الثانى

الأدب الشعبى البيزنطى

الفصل الأول

ملحمة ديجينيس (١)

(أ) عرض وتلخيص :

كان يعيش فى « قبادوقيا»من أملاك الامبراطورية الرومانية- أمير من أسرة « دوكاس » يدعى « أندرونيكوس » . وقد ولد لهذا الأمير من زوجته « أنا » - وهى من أسرة « كيناماد » خمسة من البنين ، فكان لذلك يتمنى أن تولد له بنت . ثم ولدت له بنت جميلة سماها « ايرين » . وقد تنبأ المنجمون لهذه البنت بأن أميرا عربيا سوف يختطفها حينما تكبر . ومع حرص أهلها عليها ورعايتهم لها كتبت لتلك النبوءة أن تتحقق . فقد حدث أن خرجت «ايرين» فى رحلة قصيرة مع خدمها ، وكانت اذ ذاك قد بلغت الثانية عشرة

(١) قمنا بتخليص الملحمة عن الترجمة الانجليزية التى قام بها « مافروجوردا » انظر :

Iohn Mavrogordato : Digenis akrites Clarendo PreSs, Oxford, 1956.

ومعنى ديجنيس آكريتس AIΓENOYΣ AKRITOY المولد حامى الحدود .

وقد كان حراس الحدود يتمتعون بسلطة شبه مستقلة . وكانوا ينتشرون على الحدود الشرقية والجنوبية للامبراطورية حيث كان الأمن والسلام مهددين دائما . (انظر :

Krumbacher : Geschichte der. Byzantinschen Literatur; München 1891, S. 413.

من عمرها . وتصادف أن كان الامير العربى « موصور » ـ حاكم سوريا فى ذلك الوقت ـ يشن غاراته على حدود الدولة الرومانية . فشاهد الفتاة فى رفقة خدمها وأغرم بها واختطفها . ورجع الخدم بعد أن عجزوا عن استنقاذها منه يحملون الى الأم ذلك النبأ المحزن. عندئذ قام اخوتها الخمسة من فورهم ليخلصوا اختهم ولينتقموا من الامير العربى . ودخل الاخوة على الأمير العربى وهو جالس على عرشه الذهبى وحوله حشمه ، فأخذوا بالبهاء والروعة . وادوا له التحية خاشعين ، واخبروه بأنهم قد جاءوا فى طلب اختهم ، وانهم لن يسمح لهم بالعودة الى بلادهم بدونها . فلما ابى ، جعلوا يتوسلون اليه بأعز ما لديه : بالمسجد فى « بالرمو »(١) وبالصخرة المعلقة(٢) ، وبقبر النبى أن يبيعهم أختهم بما شاء من ثمن . وأخذ الأمير العربى يصغى اليهم ـ اذ كان يجيد اللسان الرومى ـ ثم قال لهم : ان كنتم تريدون خلاص اختكم فاختاروا بطلا من بينكم لمبارزتى ، فان أنا غلبته فأنتم عبيدى وان غلبنى أخذتم أختكم . فاختاروا أصغرهم وهو قسطنطين ـ لمبارزته ..

واحتشد الجمع لمشاهدة القتال ، واذا بالموقف ينجلى بعد قليل عن انتصار الفارس الرومى . عندئذ اعترف الأمير العربى له بفروسيته ، وطلب من الأخوة أن يبحثوا عن اختهم بين سباياه .

---

(١) مدينة فى جزيرة صقلية تقع فى الجزء الشمالى الغربى منها . وحينما فتح العرب صقلية اتخذوا هذه المدينة عاصمة لهم ، ثم هدموا الكنيسة التى كانت تشتهر بها وشيدوا مكانها مسجدا . انظر
Encyclopaedia Britannica; V. 17, PP. 116-7.

(٢) انظر F.W. Haslick : Christianity and Islam under the Sultans; Oxford 1929, V. 11, P. 395.
فهو يحكى أن هناك فى شمال سوريا صخرة مقدسة معلقة بطريقة تبعث على العجب ويقول الناس هناك عنها أن سائلا يخرج منها يشفى أمراض العين ..

ولكن الأخوة أتعبوا أنفسهم فى البحث عنها دون جدوى . عنـدئذ أخبرهم أحد الأعراب أن الأمير قد قتل الكثير من الفتيـات اللاتى لم يمتثلن لأمره ، وربما كانت أختهم من بين القتلى.ثم انهاطلعهم على حشد من أجساد القتلى المتراكمـة . فلما رأى الأخـوة ذلك اخذوا يصرخون ، وذهبوا الىالأمير العربى وطلبوا منه أن يقتلهم ، اذ لم يكن لهم سـبيل الى الرجوع الى بلادهم بغير أختهم . فلما لمس الأمير مقدار حزنهم سألهم : «من أنتم ، والى أى أسرة تنتمون وفى أى جند تسكنون ؟ »فأجابوه : « نحن نسكن القطاع الشرقى وننتمى الى أسرة رومانية نبيلة ، فأمنا تنتسب الى كناماد ، وأبونا الى دوكاس من عائلة قسطنطين ، ولنا من أخوالنا وأعمامنا اثنا عشر قائدا . منذ زمن نفى والدنا .. بسبب بعض الحماقات ، ولم تكن نحن ــ مع الاسف الشديد ــ فى بلادنا حين قمت أنت بغاراتك وسبيت أختنا ، ولولا ذلك لما استطعت أن تقتحم أرضنا . وسواء أكنت تابعا للخليفة فى بغداد أو كائنا من كنت فاننا ــ حين يرجع أقرباؤنا بوالدنا من الأسر ــ سنبحث عنك أينما كنت ، ولن نترك ثأرنا . » (١) . وهنا قال لهم الأمير : اننى أيها الرجال الطيبون ابن خريزوفيروجس وبانتيا(٢) . جـــدى لأمى هو أمبرون ، وعمى قربيـــاص . توفى والـــدى وأنا طفـــل فسلمتنى أمى لأحـــد أقربائنا من العرب الذى قام بتنشئتى على مبادىء الدين الاسلامى ولما صرت بطلا بينهم جعلونى حاكما على ســوريا بعد أن أعطونى ثلاثة الاف رجل مسلحين . فأخضعت سوريا والكوفة ، وان كنت لا اريد أن ازهى كثيرا بانتصـاراتى ، ثم اسـتوليت على عمـورية

---

(١) الأبيات من ٢٦٥ الى ٢٨٢ .

(٢) فى مخطوط « ترابيزون » تسمى « بانثيا » . (أنظر ما فروجورداتو ، ص ٣١) .

وايقونية (١) ، ثم قضيت على اللصوص والوحوش . كل هذا صنعته ولم يقف فى سبيلى قائد أو جيش . وبالرغم من ذلك أخضعتنى امرأة لجمالها وأصبحت أسيرا لها(٢) . قال ذلك ووعدهم ان هم زوجوه من أختهم أن يرحل معهم الى رومانيا ويعتنق الدين المسيحى . عندئذ وعده الأخوة بالزواج من أختهم واستعد الجميع للرحيل الى رومانيا واطلق الأمير العربى سراح كل الأسرى الرومان . وسعد الأخوة بما حدث ، وكتبوا الى أمهم يخبرونها أنهم قد عثروا على أختهم ، وأنهم قد وجدوا لها زوجا أميرا قد ترك دينه الاسلامى واعترف بالدين المسيحى . وختموا خطابهم اليها طالبين منها ان تعد للزفاف عدته . وسعدت الأم بوصول تلك الأخبار اليها وان ساورها الشك فى أن يكون ذلك الأمير العربى متوحشا لكونه وثنيا (٣) . ولكن ما أن وصل الجميع الى رومانيا حتى أقيمت الأفراح وزف الأمير العربى الى « ايرين » . وقد أنجب منها طفلا سماه « ديجينس بازل أكريتس » .

وكان من الطبيعى أن تغضب والدة الأمير موصور من فعلته ؛ بخاصة انه كان قد استقر نهائيا فى رومانيا . فأرسلت اليه تعاتبه وتؤنبه وتقول له : « لقد أطفأت النور فى حياتى وأفقدتنى

---

(١) يرى الأستاذ مافروجورداتو أن اسم Iconium اختلط مع اسم البلد Akroinon الذى كان مجالا للحروب العربية البيزنطية ، والذى لاقى فيه « السيد البطال »البطل العربى حتفه سنة ٧٤٠م أما بلدة Iconium وهى قونية ، فقد شهدت حوادث متأخرة فى عهد السلاطين الاتراك سنة ١١٥٩ م أي بعد الحوادث التى تحكيها الملحمة البيزنطية بحوالى قرن من الزمان .
(أنظر : Cambridge Med. His., IV 121.

(٢) الأبيات من ٣٨٩ الى ٣٩٢ ، ٣٩٧ الى ٤٠٩ ..

(٣) كما أن قصة ذات الهمة تتحدث دائما عن المسيحيين بوصفهم كفارا ، فكذلك تصف الملحمة البيزنطية المسلمين بنفس الوصف ..

بصرى . كيف نسيت يا بنى العزيز امك وتنكرت لأهلك ودينك وبلدك حتى اصبحت سيرتك تلوكها الألسن فى سوريا ؟ . انسيت ما فعله ابوك ؟ كم قتل من جنود رومانيين وكم حاز عنده من عبيد ، وكم سبى من اميرات حسناوات وملأ السجون من الابطال ، ولكنه لم يصنع كما صنعت . وحينما أحاط به جيش الرومان أقسم له القواد بأغلظ الايمان أن الامبراطور سيجعل منه بطريقا وفارسا عظيما اذا هو القى سلاحه ، ولكنه أبى وصمم أن يكون النبى رائده ، واحتقر كل مجد ولم يأبه بالثروة . عندئذ قطعوه اربا اربا ثم أخذوا سيفه » (١) . ثم ختمت خطابها اليه تحذره من أن أمراء سوريا قد عزموا على قتل أولاده وسبى زوجته التى تركها فى سوريا ثم ترجوه فى النهاية أن يحضر ويأتى معه زوجته الرومانية ان شاء ، وتصف له طريقا آمنا بعيدا عن أعين الرومان ليعود منه ..

وحمل الخطاب بعض الأعراب وساروا حتى وصلوا الى رومانيا . وهناك عند مكان ، يسمى «الصخرة الجوفاء» عسكروا بخيامهم وذهب أحدهم ليسلم الأمير رسالته . فلما فض الأمير الرسالة وقراها قرر أن يذهب ليرى أمه وأولاده وزوجته . ثم دخل على زوجته الرومانية واطلعها على حقيقة الأمر ، وطلب منها أن تصحبه خفية لأنهما لن يطيلا الاقامة فى سوريا . فسعدت الزوجة بمرافقته ولكنها أخبرته بأنه لابد من اطلاع اخوتها على جلية الأمر اذ أن أخاها الصغير رأى حلما فسره مفسروا الأحلام ، وهم الآن فى انتظار ما قد يحدث . لقد رأى أخوها كأن صقورا تحلق على الصخرة الجوفاء تطارد حمامة ، فلما أوت الحمامة الى مكان تبعها باز حتى صادها . فلما حاول قسطنطين تخليص

---

(١) أنظر الأبيات من ٣٩٧ الى ٤٠٩ من الملحمة ..

اخته ارتعد خوفا ثم استيقظ . فلما قص الأخ الصغير رؤياه على اخوته قرروا أن يرحلوا الى الصخرة الجوفاء ويرقبوا ما قد يحدث . فلما وصلوا الى ذلك المكان اذا بهم أمام خيام للأعراب. ولما سألوا الأعراب عن غرضهم لم يكتموه واطلعوهم على الحقيقة. وظن الأخوة بالأمير سوءا واعتقدوا أنه بدأ ينفذ خطة كان قد أخفاها في نفسه وأنه ينوى أخذ أختهم والرجوع بها هى وابنها الى سوريا . فلما رأوا خطاب أمه اطمأنوا ، ولكنهم قرروا ان يرحل الأمير بمفرده حتى يعود سريعا .

ثم رحل الأمير بمفرده مع رفقته . وكان يذكر زوجته الرومانية فى كل خطوة ، وأخذ يقدر الطريق الذى سيقطعه ذهابا وايابا حتى يرجع اليها . وحينما قابله أسد فى الطريق خاطبه قائلا : « كيف تجرؤ أيها الوحش المخيف أن تقف فى سبيل الحب المشتعل ؟ » (١) ثم هجم على الأسد وقتله وأمر رفاقه أن يخلعوا أسنانه لكى يحتفظ بها لابنه عندما يرجع ..

والتقت الأم بابنها بعد غياب طويل ، ودار بينهما الحديث عن مغامرات ابنها الأخيرة . وبعد هذا أخذت الأم تذكر ابنها بدينه الذى هجره ، وبمعجزات الرسول لعله يرجع الى الاسلام مرة اخرى . قالت له : « أسمعت ياولدى فى رومانيا بمثل المعجزات التى حدثت عند قبر الرسول ؟ أتذكر حينما ذهبت معى للصلاة ذات مرة فاذا بالضياء يشع من عل وسط الظلام ؟ أرأيت هناك ماسمعنا عنه من ان مختلف الحيوان من أسود وذئاب وخراف ترعى بعضها بجانب البعض حول الرسول حينما كان يؤدى صلاته دون أن يحاول احدها ايذاء الآخر ، حتى اذا انتهى النبى من صلاته انحنت له خشوعا ؟..

---

(١) انظر البيتين ٧٣٣ — ٧٣٤ ...

أرأيت معجزات أكبر من ذلك فى رومانيا ؟..

ألسنا نملك منشفة النعمان ـ الملك الأشورى ـ الذى كان أهلا لأن تتحقق معه المعجزات لما كان عليه من الفضائل ؟ » (١) .

وبعد أن سمع الابن كلام أمه قال لها : « اننى يا أمى العزيزة على علم بكل ذلك ؛ ولكن هذه المعتقدات التى كنت أومن بها قبل أن أهتدى الى النور المقدس قد أصبحت أراها ظلمات تستحق أن تمحى . والآن بعد أن أراد الله فى عليائه لى الخير ـ فنجانى من

---

(١) يتساءل « هنرى جويجوار » عن منشفة النعمان هذه ويقول : لا بد أنه يقصد بها الصورة المقدسة التى وجدت فى « اديسا » . وهى تراث مسيحى ثمين اذ أنها صورة حقيقية للمسيح طبعت على منشفة وجهه . وقد أرسلها المسيح عليه السلام الى الملك « أبجار » حاكم اديسا . هذه الذخيرة استولى عليها القائد البيزنطى « كوركواس » حينما فتح تلك المنطقة سنة ٩٤٤ م وحملها سعيدا بها الى القسطنطينية ..

وهذا الفرض الذى فرضه جريجوار تفسيرا لمنشفة النعمان جعله يجزم بأنالملحمة لابد أن تكون قد كتبت قبل سنة ٩٤٤م وعلى وجه التحديد بين سنة ٩٣٠م وسنة ٩٤٤م . أما الأستاذ « مافروجورداتو فيرى أن مؤلف الملحمة الذى كتبها بالقرب من تلك المناطق المذكورة ، والذى كان عارفا بما لتلك المناطق من تراث ، لا يمكن أن يخلط بين النعمان الأشورى الذى شفاه النبى «اليشع» وبين الملك ابجار ملك اديسا الذى يقال أن المسيح قد أرسل اليه خطابا أرفق به صورته التى طبعت فى منشفة وجهه . ولذلك يرى مافروجورداتو ان قصة المنشفة هذه انما تتناسب مع قصة النعمان حينما شفاه النبى اليشع من برصه بأن جعله يستحم فى الماء ثم يجفف جسده بمنشفة معينة ، فما أن فعل ذلك حتى شفى ..

(أنظر مافروجورداتو ص٣٤ ، ٣٥ من المقدمة . وأنظر كذلك « هسلك » فهو يشير الى ذلك الأثر المسيحى فى كتابه « المسيحية والاسلام » جـ ١ ص ٣٧ . وكذلك أشار ابن حوقل فى كتابه « المسالك والممالك » الى ذلك الأثر المسيحى فى حديثه عن بلدة الرها . قال « وكان بها منديل لعيسى بن مريم ، فخرج نقفور فى بعض خرجاته ونزل بهم وحاصرهم وطالبهم به فسلموه اليه على هدنة وافقوه على مدتها . (المسالك والممالك ، جـ ١ ص ٢٢٦ ، ط ليدن سنة ١٩٣٨) ..

براثن وحش خبيث ، ورآنى أستحق الحيـاة من جـديد ، طرحت جانبا تلك الأقاصيص والخزعبلات .. وكل من يؤمن بهـــذه الخـــرافات فجزاؤه العقاب ، ولـــكن من يؤمن بالاله الأعلى رب كل شيء ، ويؤمن بالسيد المسيح ــ ابن الله وكلمته ــ فانه لن يهلك أبدا ، وانما تبقى روحه حية الى الأبد»(١) . قال ذلك وأخبرها انه سيرحل الى رومانيا اذ ان نفسه قد تشبعت بالدين المسيحى ، وأنها اذا هى شـاءت اهتدت معه ورحلت الى رومانيا ، والا بقيت فى بلاد الاسلام تنتظر جزاء ايمانها بالخرافات ..

عندئذ تأثرت الأم بحديث ابنها وقررت أن ترحل معـــه الى رومانيا . وتركت الأم وابنها وحاشيتهما أرض سوريا ورحـلوا الى « قبا دوقيا » . وهناك استقبل الابن زوجته فقبلها واحتضن طفله ولسانه ينطق بمشاعره اذ يقول له : « متى تنشر جناحيك يا نسرى الجميل فتخضع الخارجين وتقضى على المحتالين » (٢) .

وكبر الطفل ديجنيس وبلغ الثانية عشرة من عمره . وسرعان ما أحس بطاقة من الحيوية والشجاعة كانت تدفعه دائما لأعمـال البطولة ، فأراد أن يخرج الى الأحراش ليصارع الوحوش المفترسة وقد حذره أبوه من ذلك خوفا عليه وقال له : « لا تحاول أن تقطف زهرتك الجميلة قبل أوانها » (٣) . عند ذلك رد عليه ديجنيس قائلا : « اذا كنت أعتمد على مشـــيئة الله خالق كل شيء ، واذا كانت تؤازرنى صلوات أمى وأبى ، فانك سترى الأســـد مقتولا بجانب الذئبين » (٤) .

---

(١) الملحمة ، الابيات ٧٩٧ ــ ٨٠٠ ، ٨٠٣ ــ ٨٠٥ ، ٨٠٨ ــ ٨٠٩ ، ٨٣٢ .

(٢) الملحمة ، البيت ٩٤٤ .

(٣) الملحمة ، البيت ١٠٦٨ .

(٤) الملحمة ، الابيات ١١٥١ ــ ١١٥٣ .

ولقى ديجنيس الأسد وقتله وألقاه طريحا بجانب الذئبين اللذين كان قد قتلهما من قبل . وعند ذلك غمره والده وخاله ومن كان معهما بالقبلات ، ثم ذهبوا جميعا الى نبع بارد وغسلوا لديجنيس وجهه ويديه ورجليه ، وأخذوا يشربون بعد ذلك من مياه النبع الجارية(١) .

وسمع « أكريتس » برعاة الأغنام الموصوفين بالشجاعة ، وعزم على مقابلتهم واظهار شجاعته لهم حتى يخشوا صولته فيكفوا عن تهديد أمن الدولة(٢) . وفيما هو سائر اليهم اذ قابل احدهم يحمل قربة ماء فسأله عن أولئك الرعاة فأجابه الرجل : «وماذا تريد منهم ايها الشاب الطيب ؟» فرد عليه ديجنيس قائلا : «انني أريد أن أكون واحدا منهم » (٣) . .

عند ذلك قاده الرجل اليهم فاذا به أمام رئيسهم «فيلوبابوس» وهو يجلس فى مقعده الوثير ملتفا بجلود الحيوان . ولما عرض عليه ديجنيس أن يقبله واحدا منهم ، أجابه الرجل بأنه يرحب به اذا هو استطاع أن يقوم بواجب الحراسة خمسة عشر يوما لايتناول فيها طعاما ولا يذوق فيها طعم النوم . فرد عليه ديجنيس بأنه قد قام بتلك الاعباء وهو صغير وأنه يريد مهمة أشق ، كمبارزة رجاله مثلا . .

---

(١) من تقاليد الرومان أنهم كانوا يشربون من المياه التى يغتسل بها البطل حتى يقتسموا معه شجاعته . (انظر مافروجورداتو ص ٧٨) .

(٢) الاسم اليونانى الذى يطلق على جماعة رعاة الاغنام هؤلاء هو : **Apelaten** وقد اختلف فى معنى اللفظ ، فالبعض يقول انهم جماعة من الرعاة كانوا يتنقلون على حدود الدولة والبعض الآخر يصفهم بأنهم قطاع طرق . (انظر ; Krumbacher : Geschichte der byzantinische Literature ; 2 Auflage, München 1897, S. 832.

(٣) الملحمة ، الابيات ١٢٦٢ ــ ١٢٦٥ .

وخرج اليه رجال فيلوبابوس فغلبهم ، وبعد ذلك نازل زعيمهم فغلبه كذلك . عند ذلك شهدوا له بالبطولة وصـــاروا يخشـون سطوته ..

ولم تكن مغامرات ديجنيس فى الحب تقل عن مغامراته الأخرى فى الجرأة والشجاعة ، فبينما كان يمر ذات يوم ببيت القائد الذى كان يقع فى طريقه لمح ابنة القائد الجميلة من خلال النافذة فوقف يخاطبها . ورأته الفتاة بما هو عليه من جمال ورجولة فأغـرمت به . وأخذ ديجنيس يخاطب الفتاة كلما مر ببيتها . وقد حـذرته ذات مرة من سطوة والدها ، ولـكن العاطفـــة القوية لا تخشى شيئا ، بخاصة اذا تدفقت من قلب بطل لا تقف فى سبيله العقبات فما أن سمع تحذيرها حتى سخر منها وأخبرها أن رماح ابيهـا وسهامه لايمكن أن تنفذ الى قلبه . ثم رجاها أن تجود عليه بنظرة فاقتربت من النافذة فاذا بنورها يملأ المـكان ، ولاح له وجههـا كأنه صورة أبدعتها يد فنان . ثم ألقت اليه بخاتمها فالتقفـــــه مسرورا وتواعدا على اللقاء فى الغد ..

وفى السحر ، وقبل أن يختفى القمر من الســـماء حمـل ديجنيس قيثـارته وذهب ليلقى فتاته . ولمـا وصل الى نافذتهـا وجد النور مطفأ ، فعزف على قيثارته حتى يوقظها فاستيقظت ونظرت اليه من النافذة تعنفه على جراته ، فغضب لقولها ورد عليها : « اننى أدرك ياسيدتى النبيلة سر قلقـك . انك تخشين حدوث ما لا تحمد عقباه ، ولـكنك تجهلين شخصى وأعمالى . ولو انك كنت على علم بذلك لـكففت عن ذكر أبيـــك واخوتك وكيف انهم سيلحقون بى الأذى ويلحق بك حينئذ الأسف . لقد حاربت وحدى جيوشا وهزمتها وانتصرت على أبطالها .. ان كل ما أود أن أسمعه منـــك هو ما اذا كنت تحبيننى وتودين متابعتى

قبل أن تشرق الشمس . اما اذا كنت مغرمة برجل آخر فكفى عن تلك المعاذير » (١) .

عند ذلك خجلت الفتاة وأفصحت له عن عاطفتها نحوهوأخبرته بأنها تريد ان تتبعه الى حيث شاء . وسعد البطل بقولها ولكنه لمس منها الحيرة والرغبة فى التحلل من وعدها . واراد أن يطمئنها فقال لها : « حبيبتى ، اننى على علم بما تكابدين من حياة ، أعنى تلك الثروة الطائلة التى يمتلكها أبوك والتى يسعى اليك النبلاء من أجلها . أما أنا يا عزيزتى فلا أهدف الى ثروة ولا أسعى وراء شهرة وانما أنا غنى بجمالك . فمن اللحظة التى وقع فيها نظرى على عينيك السوداوين وانت لم تفارقينى ساعة واحدة .. فتعالى معى ياعزيزتى ، واقسم لك انك ستعيشين فى سعادة كاملة . ولسوف يسر والدك حينما يعلمان أى رجل كسباه لابنتهما »(٢). فردت عليه الفتاة قائلة : « اننى وأنا أترك بيتى وأخوتى ووالدى أضع ثقتى فيك ، والله يشهد ماتعهدت به من انك لن تغضبنى ، وانكستتخذنى زوجة لك مدى الحياة » (٣) .

قالت ذلك وبسطت اليه يديها فالتقفهما وهو راكب فرسه وحملها معه . ولكنه قبل أن يرحل بها هتف بأعلى صوته قائلا : « باركنى أنا وابنتك ياسيدى الوالد ، ثم اشكر الله أن يكون مثلى زوجا لابنتك » (٤) . ثم ولى بفرسه مسرعا .

واستيقظ القائد وزوجته وكل من فى البيت على صوت هتافه . وأبصر القائد خيالهما على بعد فصرخ بأعلى صوته :

---

(١) الابيات : ١٥٣٦ – ١٥٤٢ ، ١٥٤٩ – ١٥٥٢ ، ١٥٥٤ – ١٥٥٥ .
(٢) الأبيات : ١٦١٣ – ١٦١٩ ، ١٦٢٦ ، ١٦٢٩ – ١٦٣١ .
(٣) الأبيات : ١٦٤٩ – ١٦٥٢ .
(٤) البيتان : ١٦٧٣ ، ١٦٧٤ .

« لقد فقدت نور حياتى »(١) . وصرخت الأم وخرجت الأخـــوة تتعجب من ذلك الجرىء الذى اختطف أختهم .

وأسرع الجميع بارسال جيش وراء ديجنيس . واقترب منه الجيش وهو بالقرب من شجرة ، فوضع محبوبته فىاعلى الشجرة واستعد للقتال . وفى ساعات قليـــلة كان الجيش كله مضرجا بدمه . وبعد قليل كان القائد والأخوة قد لحقوا بالجيش فحذرته الفتاة من أن يتصدى لهم . فما أن اقتربوا من دينيس ووقعت عين القائد عليه حتى عرفه . حينئذ القى القائد سلاحه وقبـــل ديجنيس وابنته وهنأهما ، وطلب من ديجنيس أن يرجع معه الى قصره حيث يعـلن على الملأ نبـأ خطبة ابنته ، وحيث يحتفلون بالزفاف .

وأستقر ديجنيس مع زوجته على الحدود ليقوم بحمايتها من المغيرين ومن الخـارجين على الدولة . وكان يقيم هو وزوجتـه فى خيمة ، فى حين كان رجاله يعيشون فى خيام بعيدة عنهما . ولم يكتف ديجنيس بصد غارات المغيرين ، وانما استولى كذلك على بابليون وطرطوس وغير ذلك من الجهات التى كان يسكنها السود المخيفون . وحينمـــا سمع الامبراطور « بازل »(٢) بذلك النصر ارسل الى ديجنيس خطابا يطلب فيه مقـــابلته لـكى يكافئه على اعماله . وقد رد عليه ديجنيس بخطاب آخر يعلن فيه استعداده لخدمة الملك والامبراطورية ، ولـكنه يأسف لعـــدم تمكنه من مقابلته ، لأنه يخشى أن يسمع ما لا يرضـــاه من رجال قصره ، وحينئذ لن يتوانى عن قتلهم .. وقد أخبر الامبراطور بأنهسيرحل

---

(١) البيت ١٦٧٩ .

(٢) الراجح أنه يشير الى بازل الثانى (٩٦٠ ــ ١٠٢٥ م) الذى اشتهر باخضاع الثائرين على الحدود .

الى شاطىء الفرات ، وانه سينتظره هناك . وركب الامبراطور اليه وباركه ووعده بأن يرد اليه أملاك جده(١) التى كانت قد انتزعت منه . ثم عينه حاكما رسميا على حدود الامبراطورية البيزنطية ..

ولما كان الشباب كثيرا ما يملأ الانسان بالغرور فيورطه ، فان بطلنا قد تورط فى نفس الخطأ . وهو يعترف بذلك نادما حينما باح بسره لأحد سكان قبادوقيا قائلا له : « لقد رغبت فى ان افترق عن والدى وان أعيش بمفردى عند الحدود . وخرجت ذات يوم للتسرية عن نفسى وتوغلت فى سوريا وكنت حينئذ فى الخامسة عشرة من عمرى حتى وصلت سهلا من السهول العربية. ثم أمعنت فى التوغل وانا راكب فرسى وماسك برمحى . ثم شعرت بعطش شديد فأخذت ابحث عن ماء . وعلى بعد لمحت شجرة عند مستنقع كبير فأسرعت اليها بفرسى . ووجدتنى لم أخطىء ، اذ كانت هناك نخلة بجانب ينبوع ماء . وما أن اقتربت من الماء لأروى ظمئى حتى سمعت انينا ينبعث من فتاة جميلة . عند ذاك انتابنى الذعر واقشعر بدنى ، اذ اعتقدت أننى أمام جنية ، فقد كان المكان مهجورا ، كثر فيه العشب . فانتزعت سلاحى ولكن الفتاة حينما رأتنى انتفضت وهبت واقفة ولفت نفسها فى خجل بردائها ثم أخذت تمسح دموعها وحدثتنى قائلة : من أين جئت والى أين تسير وحيدا أيها الرجل الطيب ؟ يبدو أن الله قد هداك الى هنا لكى تنقذنى من شقوتى فى هذه الصحراء»(٢)

---

(١) يعنى جده لأمه وهو دوكاس الذى خطف موصور العربى ابنته وتزوجها. وفى هذا ما يشير الى ما ذكره اخوة ايرين للامير العربى فى أول الملحمة ، من ان أباهم كان قد نفى . وسنشير الى ذلك مرة أخرى فى تحقيقنا لحوادث الملحمة .

(٢) الأبيات ٢١٩٣ ــ ٢٢٢٠ .

عند ذلك طمأنها ديجنيس حتى هدأ روعها . ثم أخـذت الفتاة تحكى لها قصتها فقالت : « لابد أنك سمعت عن «هابلورابدس» أمير الجميع . انه أبى ، وأمى « ميلانتيا » ، ونحن من ميافارقين(١) . وقد حدث اننى وقعت فى حب رومانى كان ابى قد أسره مدة ثلاث سنين وكان يدعى أنه ابن قائد شهير . وذات مرة كان أبى غائبا فى الحروب كما هى عادته فتمكنت من أن أحل قيـده وأخرجه من السجن وأعطيه الخيل واجعله يحكم سوريا . وازداد حبـه لى .. وقررنا ان نهرب ذات يوم الى رومانيا ، اذ كان يخشى رجوع أبى . وبعد ان أقسم لى بأغلظ الأيمان أنه سيتزوجنى أخـذت أتحين الفرصة لسلب ثروة كبيرة من أهلى حتى اهرب معه . ومرضت امى فى ذلك الوقت واشرفت على الموت ، فسلبت اشياء ثمينة ، وخرجت مع صديقى الخائن حتى وصلنا الى هذا النبع الذى تراه ومكثنا فى هذا المكان ثلاثة أيام وثلاث ليال . وبينما نحن نائمان فى الليلة الثالثة اذ استيقظ صديقى خفية وأعد الخيل وأخـذ ما كنت قد أحضرته معى من أشياء ثمينة . فاستيقظت مذعورة من نومى واخذت أعد نفسى كذلك للرحيل معه ، وكنت قد خرجت متخفية فى ثياب رجـل . واذا بصـديقى يمتطى جوادا ويمسك بعنان الجواد الآخر ويولى مسرعا . وفوجئت بما حدث وخرجت وراءه أستغيث به » (٢) .

وكانت الفتاة تبكى وهى تقص قصتها ، واذا بجمـاعة من الاعراب يبلغ عددهم المـائة وكلهم مدججون بالسـلاح يقتحمون جلستهما كما يقتحم الأسد على فريسته . وفى سرعة خاطفـة

---

(١) ميافارقين احدى بلدان الحـدود التى عانت من الحروب الكثيرة بين العرب والروم فى عصر سيف الدولة .

(٢) الأبيات ٢٢٣٨ ـ ٢٢٤٩ ، ٢٢٥٢ ـ ٢٢٦٢ ، ٢٢٦٧ ، ٢٢٨٣ ـ ٢٢٨٤ ، ٢٢٨٩ ـ ٢٢٩٨ ..

امتطى ديجنيس صهوة جواده ، وهاجمهم وقتلهم جميعا . عند ذلك تعجبت الفتاة من شجاعته وتأكدت أن الشـاب الذى يقف بجوارها هو بطل الحدود . ثم انه حملها على فرسه ورحل بها الى سوريا .

ولم يستطع ديجنيس ان يقاوم اغراء الفتاة طوال الرحلة ، فارتكب معها اثما فى غفلة من نسيانه لزوجته . ولما علم انه قد زاد من متاعبها بما ارتكبه معها حاول أن يخفف عنها ، فراح يبحث عن صديقها حتى وجده ، وجاء به اليها وأمره أن يأخذ الفتاة ويتزوج منها زواجا شرعيا ويرد اليها ثروتها ، فان هو أبى محا اثره من الوجود . ولم ينس ديجنيس ان يعرفه بشخصه قبل ان يرحل عنهما .

واخذ ضمير ديجنيس يعذبه على ما ارتكب من اثم وخيانة لزوجته ، ورجع اليها وآثار الخزى والندم بادية عليه . وأدركت الزوجة الأمر ، واعترف ديجنيس لها ، ثم قرر معها ان يتركا المكان الذى كانا يعيشان فيه حتى لا يقابل الفتاة العربية مرة اخرى فتذكره بفعلته معها .

وفى ذلك المكان الجديد بدأ ديجنيس وزوجته يستمتعان بما فى الحياة من جمال : جمال الربيع ، وجمال الحب ، وجمال الوحدة . ثم انهما اختارا مرجا من المروج الخضراء ونصبا خيمتهما بجواره . وذات يوم أحست زوجته العطش ، فذهبت لترتوى من نبع مجاور لهما . ولم تكد تقترب من النبع حتى شق جوف الماء ثعبان لم يلبث أن تحول الى رجل مخادع ، ولكنها لم تخدع به . ولما حاول الاقتراب منها صرخت تنادى زوجها ، فأدركها لتوه وقتل الوحش المفترس الذى أراد أن يفسد جمال حياتهما . وكما قتل الثعبان قتل غيره من الوحوش المفترسة حتى

اصبحت الوحوش تهاب ذلك المكان ولم تعد تقترب منه .

ثم ظهر نشاط قطاع الطرق على الحدود وعلى راسهم الثلاثة المشاغبون : فيليباوس وكيناموس وايوناكس . فبينما كان هؤلاء يستطلعون الأمور على بعد ميل من خيمة ديجنيس اذا بهم يسمعون صوت غناء زوجة ديجنيس يدوى فى الفضـــاء . فى حين كان ديجنيس يعزف لها على قيثارته . عند ذلك ذهب احدهم يستطلع الأمر فراى الزوجة وما هى عليه من جمال ، فذهب واخبر رفيقيه بالامر وقرروا اختطافها . ولم يكونوا على علم بحقيقة زوجها . عند ذلك أرسلوا جماعة من رجالهم يبلغ عددهم خمسة وأربعين ليفاجئوا ديجنيس ويختطفوا الزوجة . ولكن ديجنيس ــ الذى كان على استعداد دائم لصد غارات المشاغبين على الحدود ــ قابلهم بمفرده وقتلهم عن آخرهم ، والقى بجثثهم بعيدا فى الصحراء . ولما طال غياب الجماعة عن فيليباوس ورجاله رحلوا بأنفسهم ليستطلعوا الأمر فوجدوا ديجنيس يجلس فى هدوء مع زوجته وما من أثر للقتال عليه ، اذ كان قد اغتسل فى نهر الفرات بعد المعركة ، ولما سألوه عن جماعة يبلغ عددهم خمسة وأربعون كانوا يتجولون بالقرب منه ، اشار الى جثث القتلى . وادرك المغيرون عندئذ ماحدث ، ونظر بعضهم الى بعض متسائلين عما اذا كان الشخص الذى يخاطبهم هو حامى الحدود . ثم طلبوا من ديجنيس أن يدخل معهم فى مبارزات فردية وخذلوا جميعا امامه . ولما راوا الا سبيل الى استعمال القوة معه حاولوا التفاهم معه سلميا . فأخبروه أنهم سيكونون له أتباعا اذا هو انضم لصحبتهم . وهنا ابتسم ديجنيس وأجاب متحدثهم فى لهجة ساخرة حازمة قائلا : « اذا كنت قد ختمــت حياتك بهذه التوبة وهذا التذلل يافيليباوس فقم واصطحب اصدقاءك وارحل الى حيث تريد ، فانك لن تغيب عن عينى حيثما كنت . أما اذا كنت تسعى الى أن انضم الى رافقتك فإننى أخبرك بأننى غير راغب

فى هذا . اننى أريد ان اعيش وحيدا ، وليس الوصول الى الرئاسة من اطماعى . فاحكم انت بنفسك ، وليساعد بعضكم بعضا ، وقم بغاراتك ما لقيت ذلك ميسرا ..! فاذا أردت محاربتى بعد ذلك فاختر نخبة أخرى من الرجال لم يسبق لهم تجربتى لمقاتلتى ، اذ لم يعمل معك من سبق أن اشتبك معى فى قتال . » (١) ..

وسعد فيليباوس وأصحابه بأن بطل الحدود قد تركهم احرارا ثم انهم انتحوا ناحية واخذوا يتداولون فيما بينهم . وسلم بعضهم بأن ديجنيس يمتلك قوة غير عادية ، فلا بد أنه ساحر ، وأنه يعمل بالتعاون مع قوى خفية(٢) . ولكن فيليباوس لم يسلم معهم بذلك،

---

(١) انظر الملحمة : الابيات ٢٧٤٥ — ٢٧٥٥ .

(٢) يرى مافروجورداتو أن السحر والايمان بالأرواح كانا منتشرين فى الدولة الرومانية الشرقية فى القرن التاسع الميلادى وكان لهما تأثيرهما فى خيال الشعب (أنظر مافروجورداتو ص١٨٢) ونحن نرى أن قصة المشاغبين الثلاثة قد تأثرت بقصة شبيهة لها كانت تسيطر على خيال الشعب البيزنطى وتتصل بعقائد هذا الشعب الروحية . وتقول هذه القصة ــ كما أوردها « بيورى » ــ على نحو ما كان الشعب يؤمن بها : « ان ثلاثة من المشاغبين كانوا يهددون أمن الدولة فى عهد الامبراطور « تيوفيل » (٨٢٩ ــ ٨٤٢) . وقد عجز الامبراطور عن قهرهم فاستعان بسحر يوحنا النحوى الذى كان يشتهر بأعمال السحر فى ذلك الوقت . وقد أشار اليه يوحنا أن يصنع ثلاثة تماثيل ويأمر بوضعها فى « الهبدروم » (ميدان اللعب الكبير فى الامبراطورية البيزنطية) بين التماثيل الاخرى ويأمر ثلاثة من اقوياء حرسه أن يضربوا التماثيل بالفؤوس ، فى الوقت الذى يتلو فيه يوحنا بعض التراتيل السحرية . وفعل الامبراطور ذلك وضربت التماثيل بالفؤوس وتحطم اثنان منهم وتهشم الثالث . وفى الصباح عثر على اثنين من المشاغبين قتيلين وعلى الثالث مجروحا ، ولم يكن ذلك الا بفضل سحر يوحنا كما كان الشعب يعتقد . (انظر :

(Bury : History of the Roman Empire; London 1912, P. 443.

وعزم على مجالدته حتى يهزمه . وكانت لفيليبابوس قريبة تدعى «مكسيمو» (١) تشتهر بالفروسية فأراد أن يستعين بها وبرجالها لقهر ديجنيس دون أن يطلعها على حقيقة ماحدث حتى لا تسخر منه وتأبى مساعدته ..

واستعدت مكسيمو لمساعدته ، ووضعت فرقتها وعلى راسها « مليمتزس »(٢) تحت امرته ، كما أنها رحلت بنفسها معه . وقد اتفقوا فيما بينهم على أن يعبر «فيليبابوس» النهر مع اثنين من رجاله ، في حين تنتظر مكسيمو مع رجالها على الشاطىء الآخر اشارة منه ..

وقد حدث أن كان ديجنيس ينتظر على صخرة عالية ممتطيا صهوة جواده - اذ كان يتوقع هجوما منهم - فرأى بحدة نظره فيليبابوس مع مليمتزس يشيران اليه ويحاولان أن يختفيا عن نظره . فما أن لمح مليمتزس ديجنيس بمفرده حتى تعجب من فيليبابوس لطلبه معونة مكسيمو ورجالها ، وأخبره بأنه لو استدعى سيدته لمساعدته على مبارزة فارس واحد ، لم تثق فى شجاعته . وفى لحظة ظهر مليمتزس أمام ديجنيس . وقبل أن

---

(١) تذكر الملحمة أن مكسيمو هذه من نسل نساء الامازون اللاتى أحضرهن الاسكندر معه من الهند (انظر الملحمة الابيات : ٢٨٤٧ - ٢٨٤٩) . وقد ورد ذكر هؤلاء النسوة فى الاسطورة الاغريقية على انهن يمثلن شعبا نسائيا محاربا كان يسكن آسيا ولم يكن هؤلاء النسوة يتصلن بالرجال سوى مرة فى العام . وقد حاولن عن طريق حروبهن أن يتخذن « أتيكا » (شبه جزيرة فى بلاد اليونان تقع فى الجنوب الشرقى منها) وطنا لهن . (انظر :
Der neue Brockhaus; Wiesbaden 1960, B. 1, SS. 64-5.

(٢) يرى مافروجورداتو أن هذا الاسم يشير الى جماعة كانت تسمى Melemenji وهم من الهراطقة ، وكانوا يسكنون أدنة وطرسوس . (أنظر : مافروجورداتو ص ١٨٩) .

يتحرك الأخير نحوه رماه مليمتزس بسهم لم يصبه . واعقبه ديجنيس بضربة القتـــه على الأرض صريعا . وأراد فيلباوس ان يلحق بالمعركة ويضرب ديجنيس من الخلف . واستطاع فى الواقع ان يضرب أرجل فرسه ، ثم ولى مسرعا . عند ذلك صـــاح به ديجنيس قائلا : « لمـاذا تفر ؟ ابق فى مكانك وقابلنى وجها لوجه ان كنت جنديا حقا ، ولا تقضمنى هكذا خلسة كالجور الأرعن»(١) ولـــكن فيليبابوس استمر فى عـــدوه حتى عبر النهر قاصـــدا مكسيمو وجماعتها الذين كانوا يقفون منتظرين اشارة منـــه . وأراد ديجنيس أن يلحق به ، ولكنه لمح كثرة الرجال على الشاطىء الآخر واستعدادهم التام للقتال . عند ذلك رحل مسرعا كى يخفى زوجته فى مكان بعيد ويستبدل بفرسه فرسا آخر ويحمل سلاحه ثم انه عاد ليعـبر النهر اليهم . وفى ذلك الوقت التفتت مكسيمو الى فيليبابوس وسألته عن البطل الذى جاءوا لقتاله ، فأجابها بأنه هو ذلك الذى يعبر النهر اليهم . فسألتـــه مرة أخرى : « وأين جنوده ؟ » فأجاب : « انه ياسيدتى فى غير حاجة الى من يعاونه ، لأنه يثق فى شجاعته التى لا تقهر » فقالت : « وهل أتكلف أنا ورجالى الحضور من اجل رجل واحد ؟ سأذهب لألاقيه بمفردى معتمدة على عون الله ، وسآتيك برأسه » .. قالت ذلك ودفعت بفرسها فى النهر (٢) .

عند ذلك صاح ديجنيس بها وقال لهـــا : « لا تعبرى النهر يامكسيمو ! ان الرجال هم الذين يذهبون الى النساء . وسأحضر أنا اليك كما يقضى بذلك الواجب» (٣) .

ولم تمهله مكسيمو حتى يتم كلامه ورمته بسهم لم يصبه .

(١) الابيات ٢٩٧٥ ـ ٢٩٧٨ .

(٢) الابيات ٣٠٢٠ ـ ٣٠٢٣ ، ٣٠٢٦ ـ ٣٠٢٩ .

(٣) الابيات ٣٠٣٠ ـ ٣٠٣٢ .

ولم يرض ديجنيس أن يقذفها بسهامه ، واكتفى بأن كسر سيفها وأصاب فرسها ، فوقعت على الأرض وهى تصرخ :

« لا تقتلنى أيها الفتى الفارس »(١) .

واحترم ديجنيس نداءها ، وأشفق على جمالها ، وتركها . وأراد الآخرون طعنه من الخلف فأدركهم وانتصر عليهم فولوا هاربين . ثم أتته مكسيمو تسلم عليه وتحيي شجاعته ولكنها لم ترض أن تنسحب مخذولة ، فاتفقت معه على العودة الى المبارزة . ووعدها ديجنيس بالانتصار وتقابلا وتبارزا وغلبها . ولم يكن فى وسع مكسيمو سوى أن تسلم اليه نفسها وهى تقول له : « سيدى .. اصفح عنى .. لقد أخطأت التقدير . ولكن صديقين اذا كنت لا تستنكف ذلك . اننى ما زلت عذراء ، لم يمسنى بشر ، فاتخذ منى زوجة لك ورفيقة ضد أعدائك (٢) ..

فأجابها ديجنيس : « اننى لن أقتلك يا مكسيمو ، ولكننى لن أتخذ منك زوجة . أننى زوج وأحب زوجتى ، ولن أتهاون فى حق هذا الحب » (٣) . ثم انه ودعها وانصرف وهو يخشى أن يقع فى شراكها ..

وعاد الى زوجته وأخذها من الكهف الذى كانت تختبىء فيه ، ونزلا مرة أخرى الى شاطىء الفرات لكى يستمتعا بجمال الروح بعد ذلك النضال الطويل . ثم انه ضرب خيمته على شاطىء النهر الذى احب المقام بجانبه ..

ثم قرر ديجنيس أن يبنى قصره على شاطىء الفرات وأن يجعل الحدائق تحيط بهذا القصر فتم له ما أراد . وكانت تنساب حول

---

(١) البيت ٣٠٥٢ .
(٢) الأبيات ٣٢٢٧ ـ ٣٢٢٩ .
(٣) الأبيات ٣٢٣٢ ـ ٣٢٣٥ .

القصر جداول تنبع من النهر الخالد ، نهر الفرات ، الذى قضى عمره بجانبه محافظا على أمنه • وفى هذا القصر ، وبجانب الفرات ، عاش الزوجان بين أصداء من الموسيقى متنوعة ، مصدرها خرير المياه وغناء الطيور وهسهسة الطبيعة الخافتة • ولم يكد هذا القصر يتم وتستقر لديجنيس السيادة فى تلك المنطقة حتى أخذت الوفود من أقرباء أبيه تفد اليه من « آمد » لزيارته ، فكانت تمضى فى أحضان تلك الطبيعة الساحرة أياما بين الصيد والتجول ••

ثم بلغت ديجنيس أنباء مرض أبيه الأمير موصور الذى كان قد استقر فى قبادوقيا ، فرحل اليه مسرعا وبقى بجانبه حتى صعدت أنفاسه الأخيرة • وقد حمل جثته معه لكى يدفنها فى أرض الفرات • ثم أخذ معه أمه ــ ابنة دوكاس ــ التى لم تلبث أن لحقت بأبيه •

ولم تطل الحياة بديجنيس بعد ذلك كثيرا ، فقد فارق الحياة وهو شاب فى الثلاثين دون أن يترك وراءه ولدا يخلفه ••

لقد حقق ديجنيس أملا عريضـــا كان يراوده أبدا ويراود من سبقه من الأبطال • هذا الأمل هو نشر الهدوء والطمأنينة فى منطقة الفرات التى لم تنعم بالهدوء والسلام قرونا طويلة . على أن هذه المنطقة لم تتخلص على يديه من الحروب فحسب ، ولكنها تخلصت كذلك من المشاغبين الذين طابت لهم حياة السلب والنهب ، وفضلا على الوحوش المفترسة التى كانت ترتع فى مروجها ••

لقد شيد ديجنيس قصر السلام على نهر السلام • وما أن تحقق حلمه حتى مضى وترك قصره علما للسلام على النهر الخالد •

الفصل الثانى

الملحمة .. دراسة وتحليل

ظلت ملحمة « ديجنيس أكريتس » مجهولة للبـــاحثين حتى منتصف القرن التاسع عشر • ففى ذلك الوقت بدأ دارسو تاريخ العصور الوسطى بوجه عــام ، والفترة البيزنطية بوجه خـاص ، يشتغلون بالـتراث الأدبى البيزنطى الذى كان قد بدأ يظهر لأول مرة • وكان أول مانشر من ذلك التراث مجموعة من الأغنيات اطلق عليهــا اسم « الدائرة الأكريتيــة »(١) • وفى عام ١٨٧٥ عثر على مخطوطة فى « ترابيزون » تتضمن ملحمة ديجنيس أكريتس • وقد قام بنشر هذه الملحمــة لأول مرة « ســاتاس » و « ليجران »(٢) • وبعد ذلك ظهرت لهذه الملحمة مخطوطات ست :

المخطوط الأولى تنسب الى « أندروس » فى اليونان وتحتفظ

(١) أول من أطلق هذا الاسم على تلك الأغنيات ساتاس وليجران فى مقدمتهما للملحمة ديجنيس اكريتس • والأغنيات فى مجملها تمجد بطل الحدود (لفظة أكريتس Akpitoy معناها الحدود) • وسنشير الى هذه الأغنيات فى الكلام عن أصل الملحمة . (أنظر :

Sathas et Legrand: Les Exploitg de Digenis Akritas; Epopée Byzantine du Dixième Siècle, Paris 1875.

(٢) Ibid. P. XIIX.

بها المكتبة الوطنية فى أثينا . وقد تبين أن هذه المخطوطة أتم فى نصوصها من مخطوطة ترابيزون .

والمخطوطة الثانية عثر عليها فى دير يونانى فى «جروتافيرانا» بالقرب من « فرسكانى » سنة ١٨٧٩ ..

والمخطوطة الثالثة عثر عليها ناقصة فى مكتبة الأسكوريال بمدريد .

والمخطوطة الرابعة تحمل اسم كاتبها الذى فرغ من كتابتها سنة ١٦٧٠ م وتحتفظ بها جامعة اكسفورد .

والمخطوطة الخامسة ناقصة تماما ، وقد عثر عليها فى روسيا . وكل هذه المخطوطات قد كتبت شعرا .

أما المخطوطة السادسة والأخيرة فقد كتبت فيها قصة الملحمة نثرا ، وقد عثر عليها فى أندروس كذلك ، وتحتفظ بها مكتبة قسم الفولكلور فى جامعة « سالونيكا » (١) .

ومنذ أن نشرت ملحمة ديجنيس أخذت جهود الباحثين تنصرف اليها . وتعد الدراسة التى قام بها ساتاس وليجران لهذه الملحمة أول مرحلة فى ذلك الطريق . وكان آخر ما ظهر من أبحاث حول هذه الملحمة ـ فيما نعلم ـ هو البحث الذى كتبه الاستاذ « كرياكيدس » والذى ألقاه المؤتمر البيزنطى الذى عقد فى مدينة ميونخ بألمانيا سنة ١٩٥٨ . وخلال هذه الفترة ظهرت أبحاث كثيرة مسهبة حول الملحمة . وربما لم ينل أثر من آثار الاداب البيزنطية من الاهتمام قدر ما نالته هذه الملحمة . والسبب الاول والأخير لهذا ، يرجع الى ظهور الروح الاسلامى واضحا جليا جنبا الى جنب مع الروح المسيحى فى هذه الملحمة ، الامر الذى لفت أنظار الباحثين وأثار اهتمامهم .

(١) اقرأ تفصيلات أكثر عن هذه المخطوطات فى كتاب موفروجورداتو :
Digenes Akrites, P. XV—XXIX.

والمخطوطة التى حققها ونشرها مافروجورداتو هى مخطوطة جروتافيراتا ، وتعد أقدم المخطوطات ، ويرجع تاريخ كتابتها الى القرن الرابع عشر الميلادى . وتتميز هذه المخطوطة عن غيرها من المخطوطات بأن الطابع الاسلامى فيها ، ومعرفة الكاتب بالمعجزات التى يؤمن بها المسلمون أوضح وأكبر . ثم ان لغة هذه المخطوطة ـ فيما يرى الباحث ـ ترجح أنها « ألفت » فيما بين القرنين العاشر والرابع عشر الميلادى(١) .

ويمكن تلخيص المشكلات التى أثارتها هذه الملحمة للبحث فى نقاط ثلاث : أولا ـ صلة الملحمة بالتاريخ ، وثانيا أصل الروح الاسلامى العربى الذى يظهر فى الملحمة بشكل واضح ، وعلى وجه التحديد فى الجزء الأول منها ، وثالثا الصورة الأصلية التى افترض الباحثون أن الملحمة قد ظهرت فيها قبل أن يتألف منها هذا العمل الأدبى ويظهر فى صورته الأخيرة . وسنعرض الآن للآراء التى تتصل بهذه القضايا .

أ ـ الأصل الأول لملحمة ديجنيس أكريتس :

هناك فكرة عامة فى أصل الملاحم يسترشد بها الباحث دائما فى البحث عن أصول الملحمة التى يدرسها والتى تستوى بين يديه فى صورتها الكاملة ، وهى أن الملحمة ترتكز دائما على بعض الأناشيد والاغنيات الشعبية الصغيرة التى تتصل ببعض الحوادث الكبرى المهمة فى حياة الشعب أو التى ما زال لها صدى فى هذه الحياة .

وعلى أساس من هذه الفكرة ـ فيما يبدو ـ بحث ساتاس وليجران عن الأناشيد التى تتغنى ببعض أحداث الملحمة ، وقالا

---

(١) انظر مافروجورداتو ص ١٥ ، ١٦ من المقدمة .

بضرورة دراستها لصلتها القوية بالملحمة . وقد قاما من أجل ذلك بترجمة بعض هذه الأناشيد فى مقدمتهما لدراسة الملحمة(١) .

وقد تداول البحث آخرون غير ساتاس وليجران . ومن الباحثين من وصل الى حد الجزم بأثر هذه الأناشيد فى الملحمة ، ومنهم من وقف به التحرز دون ذلك ، ومنهم من نفى على وجه الاطلاق أن يكون لتلك الأناشيد أى أثر فى الملحمة .

فالأستاذ جريجوار يشارك ساتاس وليجران الرأى فى صلة الأناشيد بالملحمة ، ولكنه لا يصل مثلهما الى حد الجزم بتأثيرها فيها.

أما الأستاذ كرياكيدس فقد رأى ان الملحمة قد تأثرت بتلك الأناشيد ، وأن كاتب الملحمة قد وجد فيها مادة ثمينة لكتابته . واذا كانت الملحمة قد أفقدت تلك الأناشيد التى استمدت منها مادتها رونقها الخاص وأضافتها الى بنية الملحمة على نحو جاف ـ فلأن الشاعر كان مرتبطا ببعض الحوادث التاريخية التى صورها فى الملحمة(٢) .

وعلى العكس من كرياكيدس رأى مافروجورداتو أنه لا يمكن القطع بأثر تلك الأناشيد فى الملحمة ، لسببين :

أولهما : أن هذه الأناشيد قد جمع أكثرها فى العصور المتأخرة ، ومن العسير على الباحث أن يقرر أنها كانت أسبق من الملحمة فى التأليف .

ثانيهما : أن ديجنيس ليس البطل الوحيد الذى أشادت به الأناشيد فقد أشادت الى جانبه بأبطال آخرين منهم «أرموريوبولوس» و « أندرونيكوس » و بورفوريس » وغيرهم .

وسواء استفاد مؤلف الملحمة من تلك الأناشيد أم لم يستفد

---

(١) Gregoire ; Byzantion, 1932 — VII, 290.

(٢) Gregoire; Byzantion, 1932 — VII, 290.

فان الـــكاتب يرى أنه لا داعى لأن نقرن بين الأناشيد والملحمة اذ أن هذه وتلك تعدان مظهرين من مظاهر تطور القصص البطولى . فالفرق بين القصة الشعرية التى كان يتغنى بها وبين الملحمـــة لا يعد فرقا فى مراحل التأليف أو فرقا فى طريقة معالجة المادة الواحدة التى تستخدم مرة فى خلق أناشيد يهتف بها النــاس فى الطرقات ومرة أخرى فى خلق أدبى صنع ليتلى فى حفل من الناس أو للقراءة الخاصة . ان الفــرق بين هذين النوعين انما يتمثل بين مستويات مختلفة من الرغبة أكثر من تمثله فى أى شىء آخر(١) .

وينبغى الآن أن نشير فى ايجاز الى تلك الأناشيد حتى نتأكد من مدى صحة تلك الآراء ..

***

١ ـ ديجنيس وفتاته :

تحكى هذه الأنشـــودة أن ثلاثة من الأشراف اجتمعـــوا للأكل والشراب . ولما لم يكن لديهم موضوع يتحدثون فيه فقد اتفقـوا فيما بينهم على أن يتحدثوا ـ كل فى دوره ـ عن السيف والرمح والقصور . وجاء دور ثالثهم فأخذ يتحدث عن أجمل القصور التى شاهدها ، وعن الفتاة التى رآها فى أحدها . وتصادف أن كان ديجنيس يسير بجانب المكان الذى كانوا يتسامرون فيه فسمع ما حكاه الأخير عن الفتاة التى رآها فيما أعجبه من القصور ، فدخـل اليهم فقاموا له واقفين ودعوه للأكل والشرب معهم . لـكنه رفض ذلك وطلب من الشريف الثالث أن يعيد عليه ما حكاه . فلما تأكد من أن ما سمعه كان صحيحا ذهب الى صديقه « خليبابوس » وطلب منه أن يخطب له تلك الفتاة . ومضى خليبابوس لهذا الغرض ، لكن أم الفتاة رفضت أن تزوج ابنتها من ديجنيس لأن أمه عربية وأباه يهــودى . أما الأب فلم يكن يعارض هذا الزواج وعاد خليبـابوس

(١) Mavrogordato: Op. cit., P. XXVIII.

فأخبر صديقه بذلك . وغضب ديجنيس مما سمعه ، وطلب من صديقه «خليبابوس» أن ينزل عن فرسه حتى يركب ويذهب لأخذ الفتاة ان لم يكن برضاء والديها فعنوة . عندذلك أخذ «خليبابوس» يسدى اليه النصيحة فقال له : « انتظر يا ديجنيس .. انتظر حتى أسدى لك النصيحة ! اتخذ هذا الطريق ، طريق الدروب فانه يقودك الى رابية تنتشر فيها أشجار الشوخ الجميلة التى يمتلكها بعض الأعراب فاجلس هناك واعزف على قيثارتك وغن ألحانك العذبة ، وسوف تشاركك طيور السماء ألحانك . وعندما تسمع الفتاة صوتك ستفتح نافذتها وتطل منها . فاذا كنت شجاعا وجريئا فاخطفها واهرب بها » . ونفذ ديجنيس خطة خليبابوس وهرب بالفتاة وخرج أهلها فى اثره . فلما وصل الى صخرة عالية أنزل فتاته ، واذا به يرى أفعى تخرج من بين الصخور تريد أن تلتهم الفتاة . فما أسرع ما استل سيفه وأجهز على الأفعى . وحينما أدركه من تبعه من أهل الفتاة أعد نفسه لملاقاتهم . وفجأة ظهر والد الفتاة على رأس خدمه وبسط يده لديجنيس يصافحه مباركا زواجه من ابنته(١) .

٢ ـ ولد أندرونيك :

وتحكى هذه الأنشودة أن العرب قاموا بغارة ضد أندرونيك وأسروا زوجته وهى حبلى فى الشهر التاسع . وقد وضعت الزوجة طفلها فى الأسر ، وأخذت ترضعه اللبن وتطعمه فتات الخبز ، كما أخذت زوجة الأمير تطعمه العسل وفتات الخبز . لقد كانت أمه تناديه : « أى بنى ولد أندرونيك ! » ، وكانت زوجة الأمير تناديه : « أى بنى ابن الأمير » .

وكبر الطفل وحمل السيف فى السنة الاولى من عمره والرمح فى الثانية . ثم كبر وذاع صيته ، ولم يكن يخشى انسانا لا فوكاس

---

(١) Sathas et Legrand; Op. cit., P. 54.

ولا تقفور . وذات يوم امتطى صهوة جواده الأسود وسار به حتى وصل الى الجبال ، وهناك التقى بجماعة من الأعراب حاولوا أسره ، لكنه لم يخشهم وطلب منهم أن يقيدوا كتفيه وأن يضعوا الحديد فى رجليه فان ذلك لن يضيره . وصنعوا به ذلك ، ولكنه فك القيود وولى مسرعا ، وامتطى صهرة جواده . ولما رأته أمه قالت له : « اذا اردت أن تذهب الى أبيك فسر فى الصحراء حتى تقابل خياما ، فاترك الخيام كلها جانبا حتى تصل الى خيمة سوداء فهذه خيمة أبيك » . وفعل الصبى ما أشارت عليه به أمه حتى وصل الى الخيمة السوداء فوقف بجانبها يبحث عن بابها فلم يجد لها بابا . عند ذلك ألقى بسيفه فى الرمال وهتف بصوت مرتفع سمعه أندرونيك فخرج اليه، ولم يكن يعرف أنه ابنه . ولما سأله « من أنت ؟ » أجابه :

اذا أنت لم تقبل رجائى فلن تطأ قدماى الأرض بعد ذلك .
واذا حملت سيفى استجرت بك
واذا حملت سيفك حملت سيفى
واذا حملت رمحى استجرت بك
واذا حملت رمحك حملت رمحى

وطلب منه أندرونيك أن يحدثه عن أصله . وسرعان ما عرف الوالد ابنه ، فقبله وقال له : « الآن قد صرنا بازين »(١) .

* * *

٣ ـ جولة مشئومة :

تزوجت « أيوديس » فى الغربة بعيدا عن أمها واخوتها التسعة . ولقد كان ثمانية من اخوتها يعارضون ذلك الزواج ، ولم يكن يحبذه

---

(١) Ibid., P. XLVII.

سوى أخيهـــا التاسع قسطنطين • وكان هذا كثيرا ما يقول لأمه : « زوجى ابنتك فى البلاد الغريبة يا أمى ، البلاد الغريبة التى أتجول بها ، فربما وجدت لديها فى النهاية راحة من عناء تجوالى • « وتزوجت الفتاة بعيدا ولم تعد الأم تسمع عنها شيئا •

وخرج قسطنطين للبحث عنها فقتل فى الطريق ، واختفى الاثنان عن الأم • عند ذلك خرجت الأم تستصرخ الطبيعة علها تشفقعليها• وفى هذه الاثناء ظهر شبح قسطنطين لاخته فى غربتها وطلب منها أن ترجع الى أمها • وفيما هما يتحدثان اذا بالفتاة تسمع الطيور تغنى أغنية حزينة ، فقطعت حديثها مع أخيها ولفتت نظره الى أغنية الطير الحزينة • عند ذلك قال لها قسطنطين : «دعيه يغنى ويطرب لأغنيته انه طير أحمق » • ثم انه رجاها أن تجد فى الرحيل •ولما أخبرته أنها لن ترحل بدونه ، قال لها انه مجهد من كثرة التجوال ، وأنه يريد أن يستريح قليلا ، ثم كرر رجاءه اليها بالعودة •

ورحلت الفتاة حتى وصلت منزل أبيها فاذا به تشمله الكآبة والكون • وطرقت الباب فاذا بأمها تهتف باسم صهرها وتطلب منه أن يفارقها اذ كان قد جلب لحياتهـــا التعاسة • ثم عرفت الأم أخيرا ابنتها ، وقصت عليها الابنة قصة أخيها قسطنطين ، فانتابت الأم الحسرة واللوعة وماتت لتوها وماتت معها ابنتها(١) •

هذه الأناشـــيد الثلاثة تعد أوضح الأناشـــيد صلة بالملحمة • فالشخصيات التى تتغنى بها هى نفس الشخصيات التى تغنت بها الملحمة • الأنشودة الأولى تتغنى بديجنيس وتحكى قصـــة اختطافه لفتاته • وهذه القصة ــ اذا استثنينا بدايتها ــ هى بعينها القصـــة التى روتها الملحمة • والاختلاف بين القصتين هو أن الأنشودة جعلت من خليبابوس ــ الذى يبدو أنه تحريف لاسم فيليبابوس ــ صديقا لديجنيس ، فى حين جعلت منه الملحمة عدوا له •

(١) Ibid., P. XXI.

أما الأنشودة الثانية فقد تغنت بولد أندرونيك • وهى تشير الى حادثة أندرونيك دوكاس التاريخية ، فهى تصور أندرونيك أسيرا لدى العرب ، وتصور سبى العرب لزوجته التى ولدت ابنها البطل بينهم ، هذا البطل الصغير الذى ما لبث أن كبر وخرج ليحرر أباه من الأسر • والأنشودة تعد ردا على ما صدر من أندرونيك من تركه لبلاده ولجوئه الى العرب واعلانه الاسلام • انها تصوره عاجزا عن الرجوع الى بلاده • أما ابنه قسطنطين الذى كان أكثر منه وطنية فانه ـ حينما فضل الرجوع الى بلاده على البقاء بأرض المسلمين ـ قد أخذ على عاتقه أن يحرر أباه •

أما الاغنية الثالثة الحزينة فتروى بشكل آخر قصة موصور الأمير العربى الذى اختطف ابنة أندرونيك غصبا ، والذى خرج فى أثره أخوة الفتاة وبينهم قسطنطين ، لتخليص أختهم من الأسر •

ومن كل ذلك نرى أن هذه الأناشيد تتناول بعض حوادث الملحمة ، وأن مؤلفها استطاع أن يصوغها أغنيات عذبة انتشرت فى نطاق واسع على ألسنة الشعب ، بل انهـا ما زالت تنتشر بين أبناء الشـعب اليونانى حتى اليوم (١) •

ورغم هذه الملامح المتشابهة بين الملحمة والأناشيد التى ذكرناها فانه مازال من الصعب القطع بأسبقية الأناشيد على الملحمة ـ أو العكس ـ فليس هنـاك دليل يؤكد ذلك كما سـبق أن أشار مافروجورداتو • ونتيجة ذلك مباشرة أنه ليس من السهل القـول بتأثير هذه الأناشيد فى الملحمة ..



(١) Gregoire : Nouvelles chansons epiques des IX et X siècles; Byzantion, XIV, 35.

ب ـ صلة الملحمة بالتـاريخ :

وقد لفت نظر الباحثين في الملحمة أنها تتضمن أسماء وحوادث تاريخية . وبمضاهاة هذه الحوادث والشخوص بما يقابلها في التاريخ تبين أن الملحمة تستند الى أصل تاريخي موثوق به ؛ بل لعل تلك الأحداث التاريخية الحقيقية التي تحكيها الملحمة كذلك كانت ــ بما لها من دلالات خاصة ـ عاملا من العوامل التي دفعت الى تأليف الملحمة ..

وأول من تحدث عن الأصل التاريخي للملحمة ساتاس وليجران. فقد لاحظا أن الأسماء التي تذكرها الملحمة ترتبط ارتباطا تاريخيا، وتصنع سلسلة من الحوادث ، متصلة الحلقات . هذه الأسماء هي « خريزوفيروجس » والد موصور الأمير العربي ، وقرباس عمه ، ثم أمبرون جده لأمه ، ثم أمه بانثيا ، ثم ابنة القائد الذي كان يحكم اقليم قبادوقيا ، التي كانت من سلالة قسطنطين دوكاس ..

أما البلدان والأجناد التي ذكرتها الملحمة فجلها يقع في منطقة الثغور السورية ، وكانت مثار النزاع دائما بين العرب والروم .ومن الأجناد التي ذكرت جند قبادوقيا وخرشنة ، ومن البـلدان تفريك وآمد ..

أما الحوادث التاريخية التي تربط بين خريزوفيروجس والد الأمير العربي موصور وبين قرباص عمه ثم تربط بين هذين وبين أمبرون جـد الأمير لأمه ، ثم تربط بين هذا كله والقائد قسطنطين دوكاس ، فهي تلك الحوادث التي وقعت على الحدود العربية البيزنطية فيما بين عام ٨٥٦ وعام ٨٦٩ م . ففي هذه الفـترة كانت الدولة البيزنطية مهددة بعدوين متحالفين هما البوليصيون والعرب ..

والبولصيون ينتسبون الى زعيمهم بولص السمساطى (١) . وهم جماعة من الهراطقة فى رأى الدولة البيزنطية ؛ اذ أنهم رفضوا الكنائس وقسسها كما رفضوا عبادة الصور المقدسة وطقوس الدين المسيحى (٢) . وكانوا يعيشون فى أمن منذ أيام قسطنطين الخامس فى آسيا الصغرى على حدود العرب يؤدون للامبراطورية الرومية فى عمليات الثغور أجل الخدمات . وقررت الحكومة قرارا قاسيا هو ارجاعهم الى الارثوذكسية وان هلكوا . وأعدت حملة لذلك على رأسها ليون بن أرجيز(٣) ، وأندرونيك بن دوكاس(٤) ، وسوداليس (٥) ، فقادوا حملة لامكان فيها للرحمة ؛ فشنق البوليصيون بالآلاف ، واغرقوا وذبحوا ونزعت أملاكهم . واضطر البوليصيون أمام مثل هذا الاضطهاد أن يفروا الى ما وراء الحدود فتلقاهم العرب فرحين ، وأنزلوهم فى مواضع امينة وادخلوهم بعد ذلك فى جيوشهم ، فاشتركوا بعد ذلك فى حملاتهم على الروم أكثر من مرة . وهكذا أدى هذا التعصب الأعمى فى سياسة الروم الى

---

(١) Stevan Runciman; The Medieval Manichee; Cambridge 1955, PP. 48-9.

(٢) Ibid., P. 50.

(٣) ظهر اسم ليون بن ارجير فى انشودة تشيد بانتصار البطل الرومى عند نهر الفرات . وسنشير الى ذلك فيما بعد .

(٤) أندرونيك دوكاس هو اسم القائد الذى اختطف ابنته الأمير العربى موصور .

(٥) ظهر اسم سوداليس فى مخطوطة الاسكوريال وكذلك فى مخطوطة اندروس على أنه عربى يعمل فى خدمة القائد الذى اختطف ديجنيس ابنته . وقد كان سوداليس من بين الذين أسرعوا وراء ديجنيس لانقاذ الفتاة فقتله ديجنيس . ويرى مافروجورداتو (أنظر ص٣٩ من مقدمة كتابه) أن هذا هو الأثر الوحيد فى الملحمة الذى يكشف عن كراهية ديجنيس للعرب ..

ولكننا نرى الآن أن سوداليس هذا كان قائدا بيزنطيا ، مما يؤكد لنا أن اضافة صفة العربى الى سوداليس انما جاءت متأخرة .

نتائج خطيرة هى هدم الحدود الشرقية وهى الخندق الحامى من الغزو العربى » (١) .

ولم يكن هذا اول اضطهاد عاناه البوليصيون من الدولة البيزنطية ، فالمؤرخون يرون أنهم قد عانوا من الاضطهاد قبل ذلك. وقد كان نتيجة ذلك الاضطهاد أن رحل زعيمهم قرباص Karbeas الى ما وراء اقليم قبادوقيا بجماعة من رجاله يبلغ عددهم خمسة آلاف . وهناك وضعوا أنفسهم فى حماية أمير ملطية ومنذ ذلك الحين اخذوا يتوافدون على اقليم قبادوقيا وبنطس (٢). ثم « بنى البوليصيون لأنفسهم مدينتين على حدود أرمينية فى منطقة سيواس الجبلية وهما مدينتا ارجايوس وامارا ، فقصدهما من أهل دينهم عدد كبير حتى اضطروا الى بناء مدينة ثالثة غير بعيدة عن الأوليين وهى تفريق «دفريجى» (٣) ، فأصبحت منذئذ مركزا او عاصمة للبوليصيين ، وفى هذه المدينة عاش رؤساء البوليصيين قرباص وكريزوجيز وغيرهما » (٤) . ثم أنهم حاولوا متعاونين مع عمر الأقطع أمير ملطية وعلى بن يحيى الأرمنى أمير طرطوس أن يقوموا بغزوات عديدة فى أرض الروم الى حد أن اتهم زعيمهم قرباص بتحوله الى الدين الاسلامى (٥) ..

---

(١) فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة الدكتورين شعيرة وفؤاد حسنين (دار الفكر العربى (ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣ .

(٢) Burry : History of the Eastern Roman Empire; London 1912, P. 277.

(٣) هكذا ورد اسم هذه البلدة فى الترجمة ، وقد رجعنا الى الطبرى فوجدناه يذكر الاسم هكذا : تفريق . وسوف نلتزم فى بحثنا هذه التسمية العربية القديمة .

(٤) فازيلييف ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(٥) Runciman : Op. cit., P. 41.

وارادت الدولة البيزنطية أن تضرب ضربتها فتقضى على هؤلاء الهراطقة . وكان ذلك فى عهد الامبراطورة « تيودورا » التى كانت وصية على ابنها ميشيل الثالث (٨٤٢ ــ ٨٦٧ م) . فأرسلت حملة بقيادة أخيها « بتروناس » سنة ٨٥٦ م ، فقام بغارات ناجحة فى سومسطة وآمد ثم تقدم الى تفريق موطن قرباص فحطم وخرب وقفل راجعا قبل أن تلحق به جيوش البوليصيين أو العرب . ثم تكرر الغزو مرة أخرى من جانب الروم عام ٨٥٩م كما تدل على ذلك النقوش التى أمر ميخائيل الثالث بحفرها على أسوار قلعة انقرة حين رممها استعدادا للقتال ، وحتى يعتمد عليها اذا ما ارتد الى الوراء بجيشه . ولم تحرز هذه الحملة انتصارا اكبر من سابقتها(١)

وفى عام ٨٦٣ أراد ميخائيل الثالث أن يعيد المحاولة مع قواد جيشه .فسار متجها الى الفرات الأعلى عن طريق انقرة وسباسطيا .. وفى الوقت نفسه جمع عمر بن عبد الله الأقطع جيشه وعسكر بجانبه وهزم ميخائيل الذى تمكن من الهرب . وسار بعد ذلك عمر ــ بطل ملطية ــ فى قلب آسيا الصغرى .فاستولى على سينوب ثم سمسون ، ثم وجد البحر أمامه فضرب فى أمواجه متجها الى القسطنطينية . وعند ذلك ثارت ثائرة الحكام البيزنطيين وحشدوا كل جيوشهم وحاصر جندهم عمر الأقطع من جميع الجهات . ولم يقو عمر على مواجهة تلك الجيوش الجرارة ، فوقع أسيرا ، ثم قتل وحمل رأسه الى القسطنطينية (٢) . وحين تم للروم القضاء على القائد العربى لم يصعب عليهم أن يوقعوا قربياص فى الأسر ويقتلوه كذلك . ورغم ذلك لم يشمل الهدوء منطقة الحدود تماما اذ سرعان ما جمع البولصيون شملهم بعد مقتل زعيمهم وعينوا عليهم زعيما

(١) Bury: Op. cit., P. 282.

(٢) Runciman: Op. cit., P. 41.

آخر هو جون خريزوشير John Ghrysochair وهو ابن أخي قربياص(١) هذا بالاضافة الى أن مركز المسلمين كان مايزال قويا على الحـــــدود الشرقية . فبالرغم من هلاك أشهر قوادهم ـ عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى عام ٨٦٣ م ـ استطاعوا الاستيلاء على بعض الحصون بل ان مركزهم كان قد قوى في قبادوقيا شرق نهر الهاليس(٢) ..

وفى عام ٨٦٩ م حاول بازل(٣) المقـدونى أن يعقد صـــلحا مع البوليصين لعله يفرغ بذلك لتحقيق مطامعه فى ايطاليـا ، فأرسل الى زعيمهم خريزوشير رسولا يحمل اليه الهدايا ، فما كان من الزعيم البوليصى الا أن رد الرسول قائلا له : « اذا كان الامبراطور يريد السلام فدعه يتنازل عن أطماعه فى الشرق ويفـرغ لسلطانه فى الغرب » . وقد أراد الزعيم بذلك أن يسخر من أطماع بازيل المقدونى التى تسول له الاستيلاء على ايطاليا(٤) .

لكن بازيل لم ييأس ، ففى عام ٨٧٠ م تحرك بجيشه الى تفريق وحطم كثيرا من القرى البوليصية منها « أفارا و سباتى وكوبتس» .. وفى عام ٨٧٢ م اســـتطاعت جيوش الدولة بأسرها أن تهزم البوليصيين وتقتل زعيمهم خريزوشير وتبعث برأسه الى القسطنطينية وبذلك انتهى خطر البوليصيين الذين دوخوا أباطرة الدولة البيزنطية سنين طويلة . أما خطر المسلمين فقد ظل يتهدد البيزنطيين بعـد موت البطلين المجاهدين عمر بن عبد الله الأقطع الذى أدار شـئون

---

(١) Bury : Op. cit., PP. 282-3.

(٢) Bury : Op. cit., P. 285.

(٣) بازل المقدونى مؤسس الأسرة المقدونية ومغتصب العرش من ميخائيـــل الثالث آخر أباطرة الاسرة العمورية . حكم من عام ٨٦٧ الى عام ٨٨٦ م . وتعد فترة حكم الأسرة المقدونية (٨٦٧ ـ ١٠٥٧) وعلى رأسها بازل الفترة اللامعة فى تاريخ الدولة البيزنطية .

(٤) Runciman : Op. cit., p. 42.

ثغور الجزيرة قرابة ثمان وعشرين عاما ، وعلى بن يحيى الأرمنى الذى قام على شئون ثغور الشام أحد عشر عاما(١) ..

على أن الظروف التى مرت بها الدولة الاسلامية منذ أن تولى بازل الأول الحكم ٨٦٧ م كانت من شأنها أن تساعد الأباطرة البيزنطيين على أن يضعوا أيديهم مرة أخرى على مناطق الثغور . ولم تكن الحروب التى قام بها سيف الدولة الا محاولات مؤقتة لضمان سيادة الاسلام فى تلك المناطق . ولما شغل سيف الدولة بشئون الداخلية تمكن القائد البيزنطى «جون كاركوس» (٩٤٢ ـ ٩٤٣) من الاستيلاء على ميافارقين ودارا ونصيبين . وفى عام ٩٤٤ استولى هذا القائد على أديسا التى كانت تحتفظ بأثر ثمين من التراث المسيحى ، وهو صورة لوجه المسيح منطبعة فى شفته(٢) ، فاستولى على هذا الأثر وأرسله الى القسطنطينية ..

ولم يستطع سيف الدولة أن يقاوم خطر البيزنطيين بعد ذلك مدة طويلة اذ توفى عام ٩٦٧م . وبعد ذلك ساد الشغب منطقة الثغور مما ساعد البيزنطيين على أن يختموا الفصل المسرحى الأول للحروب الاسلامية المسيحية فى تلك المنطقة ، وذلك باستيلاء نقفور فوكاس على أنطاكية عام ٩٦٩ م وعلى حلب عام ٩٧٠ م(٣) .

---

(١) Runciman: Op. cit., p. 43.
وانظر كذلك Cambridge Med. Hist., IV, 302.

(٢) Cambridge Med. Hist. 143.

(٣) قال الطبرى فى حوادث سنة ٢٤٢ هـ : « وفيها خرجت الروم من ناحية شمشاط بعد خروج على بن يحيى الأرمنى وانتهبوا عدة قرى وأسروا نحوا من عشرة آلاف انسان ، وكان دخولهم من ناحية تفريق قرية قربياس ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم فخرج قربياس وعمر بن عبد الله الاقطع (فى موضع آخر عمرو بن عبيد الله ـ أنظر الطبرى ط ابريل ج ٣ ص ١٥٠٩) وقوم من المتطوعة فى اثرهم فلم يلحقوا منهم احدا فكتب الى على بن يحيى أن يسير الى بلادهم

وبذلك افتتحت هذه المنطقة عهدا جديدا انتهى ببداية الحروب الصليبيـــة ..

* * *

هذا هو الصراع التاريخى الذى وجد فيه مؤرخـــو الآداب البيزنطية الباعث الأول على تأليف الملحمة . انه الصراع على السيادة فى منطقة الفرات بين العرب والبيزنطيين ، ذلك الصراع الذى تراءى لمؤلف الملحمة متبلورا فى الحوادث التاريخية التى صورناها ، والذى يتمثل فى انشقاق بعض الفئات على الدولة البيزنطية وانضـــمام المنشقين جهـــرا الى منافس الدولة الأكبـــر ، وأعنى به الدولة الاسلامية .

والآن نعرض لاراء الباحثين التى تحاول أن تربط ما صورناه من حوادث تاريخية بالحوادث التى تتألف منها قصة الملحمة . وسنبدا بعرض آراء ساتاس وليجران ، فهما أول من عنى بملحمتنا .

وقد عرض الباحثان منذ البداية لنسب ديجنيس الذى أوضحه والده الأمير العربى موصور فى بداية القصة . لقد قرر موصـــور أن أباه ، خريزوفيرجس وأمه سباتيا وأن جده لأمه هو أمبرون كما أن عمه هو كرويس — أو قرباص كما تذكره المراجع الغربية — ..

ولما تزوج موصور بابنه القائد أندرونيك دوكاس أصبح ديجنيس

شاتيا » — (الطبرى ج ٣ ص ١٤٣٤) . ثم يذكر الطبرى (ج ٣ ص ١٥٠٩) حادثة وفاة عمر بن عبيد الله ويحيى الارمنى فى حوادث سنة ٢٤٩ هـ فيقول : « فما كان من ذلك غزو جعفر بن دينار الصائفة ، فافتتح حصنا ومطامير ، واستأذنه عمر بن عبيد الله الأقطع فى السير الى ناحية من بلاد الروم فأذن له فسار ومعه خلق كثير من أهل ملطية ، فلقيه الملك فى جمع من الروم عظيم بموضع يقال له أرز من مرج الأسقف فحاربه بمن معه محاربة شديدة قتل فيها خلق كثير من الفريقين . ثم أحاطت به الروم وهم خمسون ألفا فقتل عمر وألف رجل من المسلمين » ، ويذكر بعد ذلك أن يحيى قتل فى نفس السنة .

ينتسب الى أندرونيك دوكاس من جهة أمه . والى خريزو فيرجس من جهة أبيه ..

وهنا يقف الباحثان وقفة طويلة فى بحث نسب ديجنيس من جهة أمه ومن جهة أبيه . أما نسبه من جهة أبيه فقد أعلن الباحثان أن خريزوفيرجس ليس الا خريزوشير القائد البوليصى الذى حاربه بازل الأول وقتله . أما قرباص عمه فهو القائد البوليصى الآخر الذى كان خريزوشير صهرا له ووارثا لزعامته . أما امبرون فهو الاسم الذى أطلقته المراجع البيزنطية على عمر بن عبيد الله الملطى الذى كان قربياص يعمل معه ضد الامبراطورية البيزنطية . ولم يكن غريبا أن يرتبط اسما القائدين البوليصيين باسم القائد العربى ، فالصلة التاريخية بين عمر الملطى والبوليصيين وعلى رأسهم قرباص ثابتة الى حد أن اتهم الأخير بدخوله فى الاسلام كما ذكرنا . ولكن الغريب أن يرتبط نسب ديجنيس من جهة أبيه بالبوليصيين ثم من جهة أمه بأندورنيك دوكاس . مع أن الثابت تاريخيا أن أندرونيك هذا قد حارب البوليصيين ..

وهنا يفسر الكاتبان هذا التناقض بما حدث فى التاريخ كذلك، فقد حدث أن كان فى قصر ليون السادس عربى هارب من طرسوس يسمى ساموناس ، وكان الامبراطور قد أولاه ثقته . ولكنه طرح تلك الثقة جانبا وهرب الى سوريا . وخشى الامبراطور من كثرة الشائعات حول ذلك فأرسل القائد أندرونيكوس دوكاس خلف ساموناس لكى يحثه على العودة . وقد عاد ساموناس ، ولكن الشائعات ضد الامبراطور قد كثرت رغم ذلك . وحاول الامبراطور أن يبرىء نفسه فأوعز الى أندرونيكوس أن يعلن فى البلاط أن ساموناس لم يهرب ، وأنه انما كان قد رحل ليوفى بنذر فى أحد أديرة سوريا . لكن أندرونيكوس أعلن فى البلاط الحقيقة . وهى أن ساموناس كان قد هرب الى سوريا . وبعد ذلك تلقى القائد هيميريوس أمرا امبراطوريا بأن يستعد بأسطوله لقتال العرب،

وأن يصطحب معه أندرونيك ، لكن ساموناس أوعز الى أحـد معارفه أن يكتب خطابا لأندرونيك ينصحه فيه بعدم الرحيل لأن الامبراطور يدبر ضده مؤامرة . وصدق أندرونيك الخبر وامتنع عن الرحيل مع هيميريوس لقتال العرب . ولما رحل الأخير مظفرا ندم أندرونيك وخشى فى الوقت نفسه حكم الامبراطور عليه نتيجة هاتين الحادثتين المتتاليتين فرحل الى قلعة كبالا فى سوريا (١) .

ويمضى الباحثان قدما فى التحقيق التاريخى معتمدين عـلى المصادر اليونانية المؤرخة للدولة البيزنطية .فيشير الى أن هـذه المراجع تتحدث عن نهب العرب لبيت أندرونيك دوكاس فى أثنـاء مقابلته للخليفة فى بغداد . ويقول المؤرخان أنه من المحتمل أن تكون ابنة أندرونيك قد أخذت سبية فى أثناء ذلك النهب . وقد كان أخوها قسطنطين معها فى البيت فى تلك الأثناء . ولهذا فان اسم قسطنطين يذكر فى الملحمة بين أسماء الأخوة الآخرين(٢) ..

أما سباتيا أم موصور وزوجة خريزوفيرجس فاسمها يشير الى هذه الحوادث كذلك . فالثابت عند المؤرخين اليونان ــ كما يقـول الباحثان ــ أن القلاع التى كان العرب والبوليصيون يشـيدونها

---

(١) Sathas et Legrand: Op. cit., p. XCII. . ويذكر تاريخ كامبردج للعصور الوسطى حادثة هروب اندرونيك ولجوئه الى العرب ومقـابلته الخليفة فى بغداد ويحدد ذلك بعام ٩٠٧ م . (أنظر :
(Cambridge Med. Hist. IV. 275).

(٢) أنظـر الملحمة ، البيتين ١٣١ ــ ١٣٢ (مافروجورداتو) . ويزيد جريجوار الأمر وضوحا بأن يذكر ــ نقلا عن المراجع اليونانية ــ أن اندرونيك دوكاس لجأ الى خليفة بغداد وأعلن اسلامه ،وانه لم يرجع بعد ذلك الى بلاده رغم محاولات الامبراطور ليون السادس لارجاعه . أما ابنه قسطنطين فلم يتبعه فيما صنع وهرب الى القسطنطينية . وهناك استقبله الأمبراطور بالحفاوة والحذر كذلك . (أنظر : Gregoire: L'age héroïque de Byzance; Paris 1933, P. 391. وبذلك كسب قسطنطين اعجاب أفراد الشعب .فصوروا بطولته فى اناشيدهم ..

على نهر الفرات كانت تحمل أسماء بانيها . ومن ذلك قلعة بنـاها خريزوشير تسمى سباتيا . ثم يقول الباحثان بعد ذلك أنه من المؤكد أن خريزوشير قد سمى القلعة بهذا الاسم تكريما لزوجته(١) .

واذا كان الباحثان قد أرجعا كل حادثة فى الملحمة الى أصلها التاريخى فانهما لم يغفلا البحث عن الأصـل التاريخى للبطـل ديجنيس أكريتس . فمن ديجنيس أكريتس ؟.

يشير الباحثـان الى نص تاريخى لمؤرخ يونانى معـاصر يدعى «ميشيل باسيليوس» يشير فيه الى شجاعة أفراد أسرة دوكاس(٢)، تلك الأسرة التى كانت تتخذ قبادوقيا موطنا . ويخص هذا المؤرخ بالذكر أندرونيكوس دوكاس وابنه قسطنطين دوكاس ، ثم يهتم بصفة خاصة بشخصية أخرى هى شخصية «بانثريوس»(٣) . وعند ذكر هذا الاسم الأخير اعتقد الباحثان أنهما وجدا ضالتها . ان «بانثيوس هذا ليس الا الشـخصية التـاريخية لديجنيس . وقـد أكـد الباحثان رأيهما بأن هناك بعض الأغنيات التى تشيد ببطل اسـمه «بوأفيريوس» ، وأن هذا الاسم الأخـير ليس الا تحـريفا لاسم بانثريوس(٤) . ولكن من بانثريوس هذا وما دور البطولة الذى قام به حتى سجل الشعب ذكره فى أناشيده وملاحمه ؟

---

(١) Sathas et Legrand: Op. cit., P. LXXXIX.

(٢) يذكر تاريخ كامبردج للعصور الوسـطى أن عائلـة دوكاس كانت احدى العائلات الاقطاعية البيزنطية التى كانت تسكن اقليم قبادوقيا وتنشر سلطانها فيه، وكان لهذه العائلة شأن كبير فى تاريخ الدولة . (أنظر :
(Cambridge Med. Hist., IV 771.

(٣) Sathas et Legrand: Op. cit., pp. CXXV — CXXVI.

(٤) يقال أن الشاهنامة قد خلدت بانثريوس هذا تحت اسم فارقوريوس . (أنظر المرجع السابق ص ١٣٤) .

ان الحادثة التاريخية التى تحتفظ بها المراجع الاغريقية فحسب تذكر أن الامبراطور « رومان ليسابنى » قد عينه قائدا فى الشرق عام ٩٤٤ م بدلا من كوركياس الذى كان ندا لسيف الدولة فى حروبه فى الشرق . ولكن اسم بانثريوس هذا لم يلبث أن اختفى من تاريخ الدولة البيزنطية ولمع اسم برادس فوكاس الذى حل محل كوركاس فى قيادة الجيوش المحاربة للعرب .

وقد يعترض معترض بأن تلك الحلقة التاريخية من حياة بانثريوس لايمكن الاعتماد عليها فى اذاعة شهرة هذا البطل الذى قد تغنى الشعب ببطولته . ورغم أن الباحثين لم ينكرا ذلك فانهما يقطعان بأنه كان بطلا لايسعى وراء مطامعه الشخصية، وأنه لم يكن له هدف سوى صالح الوطن . والا أهمله المؤرخ باسيليوس الذى عرف بدراسته العميقة لتاريخ هذه الفترة - كما يقول الباحثان. واذا كان المؤرخون خلاف باسيليوس لم يحتفلوا بهذا البطل فذلك لأن الأباطرة قد تنكرت له كما تنكرت لآبائه من عائلة دوكاس من قبل .. أما الشعب فقد احتفظ بذكراه ومنحه لقب « ديجنيس أكريتس »(١) ، ونسبه الى عائلة أندرونيكوس .

وعند هذا الحد تنتهى محاولة الباحثين ارجاع كل حوادث الملحمة أو جلها الى أصول تاريخية ، وكذلك تحقيق شخصياتها تاريخيا . ولكننا نلاحظ أنهما تجنبا تفسير ظهور ذلك الأصل العربى فى نسب ديجنيس وان كانا قد فسرا ظهور العناصر الأخرى من نسبه . وهما كذلك لم يفسرا معنى الاسم « ديجنيس » واكتفيا بأن ذكرا أنه كان لقبا أطلقه الشعب عليه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أجتهد الباحثان فى الربط بين حوادث الملحمة وحوادث التاريخ ربطا محكما . ونحن لا ننكر أنهما قدما للعلم بذلك اشارات

---

(١) Sathas et Legrand: Op. cit., p. C.

قيمة اعتمد عليها الباحثون فيما بعد في دراستهم للملحمة ؛ من ذلك تفسيرهم للأسماء « خريزوفيرجس ـ وأندرونيكوس ـ وامبرون » وغيرها . ولكننا نلاحظ أنهما قد بالغا في ذلك بعض الشيء . فتفسير شخصية البطل ديجنيس بالقائد « بانثريوس » ليست كافية ، اذ لا بد من تفسير تلك العناصر المشتركة من البوليصية والمسيحية والاسلام التي يرتبط بها جميعا نسب ديجنيس . وحادثة هروب ، أندرونيكوس الى العرب ، وكذلك حادثة تعاون قربياص معهم لا تفسران ظهور العنصرين البوليصي والاسلامي في نسب ديجنيس اذا كان الشعب قد أراد تخليد ذكرى بطل بيزنطي صرف .

* * *

وقد تلا دراسة ساتس وليجران للملحمة دراسة أخرى قام بها « أدونز » . وقد اتفق هذا مع الباحثين السابقين في الخطوط الاساسية من حيث صلة الملحمة بالتاريخ . فحوادث البوليصيين وانضمامهم للعرب ، ثم محاربة القائد أندرونيكوس لهؤلاء وهؤلاء ، ثم اختلاف أندرونيكوس مع الامبراطور ليون السادس وهروبه الى العرب كذلك ـ كل هذه الحوادث ترسم الخطوط الأساسية لقصة الملحمة . ولكن « أدونز » بدلا من أن يتعمق البحث في أسرة دوكاس التي كان موطنها الأول مقاطعة قبادوقيا ، وذلك كما فعل ساتس وليجران تمهيدا لاعلان رأيهما في أن البطل ديجنيس كان شخصية بيزنطية تاريخية ، نجده يسير في اتجاه آخر . لقد أنكر أولا دعوى هذين الباحثين أو شخصية ديجنيس شخصية تاريخية بيزنطية فقال : « لقد زعم ساتس أن ديجنيس ـ بفضل شجاعته ـ أراد أن يعيد نظام الدولة المزعوم ، فهو الذي أخضع الخارجين على الدولة الذين كانوا يسيطرون في منطقة الفرات . ولكن شخصية ديجنيس أكريتس ـ حسب القصة الشعبية ـ لاترتكز على أساس تاريخي يوناني ـ كما يدعى ساتس ـ وانما ترتكز على أساس أرميني

بيزنطى (١) . لقد جعلت القصة من خريزوشير جدا لديجنيس ، ومن قرباص عما له . وهذا النسب البوليصى الأرمنى له مغـزاه فى الملحمة . واذا كان ديجنيس قد انتسب الى العرب المسـلمين من جهة أمه فذلك لأن البوليصيين كانوا متعاونين مع العرب ضـد البيزنطيين . وفضلا عن ذلك فان الملحمة ليست يونانية حسـب البيئة الجغرافية التى ولدت فيها أبطالها والتى وقعت فيها معاركهم فقد كان نشاطهم فى منطقة وادى الفرات حيث كان سلطان البوليصيين يمتد من خرشنة حتى سومسطة ، مشتملا على تفريق وملطيـة وميافارقين ثم اديسا . وقد كان يسكن هذه البلاد فى الأصـل الأرمينيون ، ثم أنها كانت منذ القرن التاسع الى القرن الحـادى عشر فى أيدى الاقطاعيين من الأرمن .. هذه هى حدود البيئـة المكانية التى نسجت فيها خيوط قصة ديجنيس أكريتس الشعبية .. وقد حورت القصة بعد ذلك على يدى شاعر يونانى مجهـول ابتعد بها عن بيئتها الحقيقية » (١) .

وعلى هذا تنتسب ملحمة « ديجنيس أكريتس » أصلا الى الدولة المعادية للبيزنطيين ، أى دولة البوليصيين الأرمينيين . ولم يكن ديجنيس الا رمزا لتلك القوة المسيطرة على منطقة الفرات . أما ذلك الطابع البيزنطى الذى امتزج بالملحمة فلم يأت الا متأخرا .. حينما انتقلت الملحمة الى البيزنطيين . ثم أن ناقلها لم يتمكن كذلك من التخلص من طابعها الأصلى فاحتفظ به جنبا الى جنب مـع المسحة البيزنطية التى أضفاها عليها ..

* * *

(١) Adontz (N.) : Les Fonds Historiques de l'Epoppée Byzantine Digénis Akritas ; Byzantische Zeitschrift 1929 — 30, p. 213

ومنطقة أرمينيا هى التى تقع بين آسيا الصغرى ومنطقة الفرات الأعلى وبحر القوقاز. وفى هذه المنطقة كان البوليصيون يعيشون ..

(١) Adontz : op. cit., p. 215.

ثم جاء جريجوار فالقى بعض الاضواء على أسماء الأشخاص والأماكن التى تذكر بالملحمة . وقد فعل ذلك مستعينا بالمراجع العربية واليونانية القديمة .

لقد أعلن الأمير العربى « موصور » منذ البداية انه ابن امبرون، أى ابن عمر بن عبيد الله الأقطع . ولما كان ولد عمر بن عبيد الله الذى ورث بطولة ابيه يسمى أبا حفص فان هذا يعنى أن الأمير موصور هو أبو حفص أمير ملطية بعد ابيه . ويقول جريجوار ان ابا حفص ظل يحكم مكان ابيه فى ملطية الى أن اندحر المسلمون فى منطقة الفرات . وقد عقد الامبراطور « رومان ليسابن » الصلح معه عام ٩٢٨ م(١) .

هذا فيما يتعلق بالتفسير التاريخى لشخصية موصور . أما فيما يتعلق بديجنيس فان جريجوار يتفق مع ساتس وليجران فى أن شخصية البطل تصور شخصية بيزنطية صرفا ، ولكنه يختلف معه فى أن شخصية ديجنيس ليست سوى شخصية بانثريوس القائد الدوكاسى . ان ديجنيس فى رأى جريجوار يصور قائدا بيزنطيا آخر اشترك فى معركة ضد المسلمين سنة ٧٨٨م وقتل فيها .. هذا القائد هو « ديوجينس » . فقد قام المسلمون بغزوة فى آسيا الصغرى سنة ٧٨٨م واخترقوا جند أناتوليا حتى وصلوا الى قبادوقيا ، فجمع حاكم المنطقة جيشه وحاربهم ولكنه هزم وهلك كثير من رجاله من بينهم القائد « ديوجينس » . و « ديجنيس التاريخى ليس سوى ديوجينس الذى اشتهر فى أناتوليا سنة ٧٨٨ ميلادية فى احدى المعارك ضد العرب »(٢) ..

(١) Gregoire (H.) : Les recherches récents sur l'epopée byzantine Antique Classique 1932, P. 423.

(٢) Gregoire (H.) : Le Tombeau de Digénes Akritas: Byzantion 1931, p. 501.

ومما شجع جريجوار على القول بهذا الرأى والجزم بصحته ماعثر عليه الجغرافيون فى القرن التاسع عشر من آثار فى منطقة شرقى آسيا الصغرى . ومن بين هذه الآثار قبر القائد ديوجينس الذى عثر عليه بالقرب من طرسوس(١) . وتشير الملحمة الى أن ديجنيس قد دفن فى طرسوس(٢) . وعلى ذلك فقد تشابه اسما البطلين ، كما انهما دفنا فى مكان واحد تقريبا ، الأمر الذى جعل الباحث يجزم بأن ديجنيس هو الشخصية الملحمية للبطل التاريخى ديوجينس ..

ولكن كيف نفسر اختلاف أسماء الأمكنة التى اظهر فيها ابطال الملحمة بطولتهم عن تلك التى اشترك فيها القائد ديوجينس فى معارك لقى إفى احداها حتفه ؟ هنا يجيب جريجوار بأن الملحمة قد تألفت من القصص الشعبية السابقة عليها ــ كما سبق أن بينا ــ تلك القصص التى تغنت ببطولة ديوجينس . وقد ذاعت تلك القصص فى منطقة الفرات وفى غيرها من المناطق الأخرى المجاورة . واذا كانت ملحمتنا قد كتبت فى القرن العاشر الميلادى كما يؤكد جرايجوار حينما استقر الأمر بالبيزنطيين فى منطقة الفرات ، فهذا لايعنى سوى أن مؤلف الملحمة قد نقل البطل ديوجينس من عصر الى عصر آخر(٣) ..

ويبقى بعد ذلك أن نشير الى تفسير هذا الباحث لشخصية « فيليبابوس » رئيس العصابة المشاغبة عند نهر الفرات ، وهو الذى حاول أن يختطف زوجة ديجنيس مستعينا بالأمزون . وهو يعرف فيليبابوس هذا بأنه آخر ملك حكم من أسرة كوماجين ، التى ورثت

---

(١) Gregoire (H.) : Le Tombeau de Digénes Akritas : Byzantion 1932, VII 286.

(٢) أنظر الملحمة (مافروجورداتو ص ٢٤٧) البيت ٣٧٧٧ ..

(٣) Gregoire : Autour de Digénes Akrites; p. 288.

الاسكندر فى حكم منطقة الفرات . وقد توفى فى أوائل القرن الثانى الميلادى ومنه انتزع الرومان الحكم فى هذه المنطقة وفرضوا سيادتهم عليها(١) ..

* * *

واذا كان بعض الباحثين قد حاول أن يربط بين الملحمةوالتاريخ ربطا تاما فهناك كذلك من يتحرز فى ذلك مراعيا الأخلاط الكثيرة التى جعل منها الكاتب مادة لقصته . لقد اندمجت فى الملحمة فئات ثلاث : مسلمون ومسيحيون وهراطقة . وكان نتيجة هذا الاندماج ميلاد البطل ديجنيس أكريتس . وعلى ذلك تنتفى دعوى أن الملحمة كانت فى الأصل أرمينية ، لأنها تمجد أبطال البوليصيين ، اذ لوكان الأمر كذلك لاتضح لنا شىء من عقيدة البوليصيين فى ثنايا الملحمة، « اللهم الا اذا بلغ التفاؤل بالقارىء الى حد القول بأن كلمةديجنيس ترمز الى العقيدة الثنائية »(٢) . وكذلك من الصعب أن ندعى أن الملحمة نقلت من أصلها الأرمينى الى البيزنطيين ، وأن المؤلف الجديد لها قد حورها الى مافيه دعاية للدولة البيزنطية التى كانت تطمع فى أن تقضى على الخارجين عليها وعلى أعدائها المهددين لممتلكاتها ، وأن تعيد امبراطوريتها التى سلبت منها فى منطقة الفرات ، اذ لو كان الأمر كذلك لظهر نوع من العداء للبوليصيين فى الملحمة . وقد رأينا أن الأمر كان على العكس من ذلك ، اذ أن الملحمة تمجد أبطال البوليصيين وتجعل منهم أجدادا لبطلها . « ولم يبق بعد ذلك سوى أن نقر بالحقيقة ، وهى أن مؤلف الملحمة ــ كما هى عليه فى صورتها الحالية ــ يدهشنا بانصافه البوليصيين

(١) Gregoire : (H.) : L'Age Héroique de Byzance; Mélanges offerts a M. Nicolas Iorga; Paris 1933, p. 385.

(٢) ويقال أن البوليصيين كانوا متاثرين بقصيدة مانى الثنائية . أنظر : Runciman : The Medieval Manichée, p. 49.

والمسيحيين الأرثوذكس بمقـــدار مايدهشنا بانصـــافه المسلمين والمسيحيين . هذا اذا لم يكن موقفه ذاك يرجع الى الجهل أكثـــر منه الى الانصاف » (١) .

ان مؤلف الملحمة لم يكن يهدف الى الدعاية لأى جانب ، وانما أراد أن يصور بخياله بعض المعارك التى سبقت عصره . ولو كانت هناك أفكار سياسية أخرى تسيطر على المؤلف أكثر من أنه كان يفضـــل السلم لاستطاع أن ينوه بأن البوليصيين قد اســتخدمتهم الامبراطورية لاخضـــاع العرب أو تحويلهم الى صفهم . مثل هـــذه الأفكار كان لابد أن يعبر عنها المؤلف بوضوح لو أنه كان يمتلكها (٢) .

وهكذا عارض مافروجورداتو كلا من الباحثين جريجوار وأدونز من حيث أن الأول يرى أن الملحمة تحمل فى ثناياها الدعاية للدولة البيزنطية وأن الثانى يرى أنها كانت ملحمة أرمينية فى الأصل ثم نقلت الى البيزنطيين ..

ومع ايمانه العميق بقيمة التحقيق التاريخي الذى بذله من سبقه فى بحث الملحمة ، عارض الالحاح والاغراق فى هذا التحقيق . ومن ذلك مافعله عندما حاول تفسير الربط بين شخصية القائد التاريخى « ديوجينس » وبين شخصيته بطل الملحمة ديجنيس . فالصـــفة « ديجنيس » بمعنى المولد كانت مألوفة فى القصـــص اليـــونانية وآدابها كما يقول الكاتب . هذا فضلا عن أن الملحمة لم تؤلف حول قائد بعينه وانما ألفت حول شخصية بطل قصصى تبلورت فيـــه عواطف عصره الاجتماعية والسياسية معا(٣) .

أن البحث العميق فى تفصيلات الملحمة بقصد ارجاعها الى مصادرها من الحوادث التاريخية لاجدوى منه ، بل انه ربما عرض

(١) Mavrogardato : op. cit. p. LXV.

(٢) Ibid., p. LXVI.

(٣) Mavrogardato : op. cit., p. LXXII.

الباحث للتناقض والتورط في بعض الأخطاء . مثال ذلك ماتعرض له جريجوار حينما حاول أن يشخص ابطال الملحمة تاريخيا ؛ فقد عرف « ملينتزس » أحد الذين حاربوا مع فليبابوس ضد ديجنيس بانه القائد الأرمني « ميلاس » الذي حارب مع القائد البيزنطي كوركاس في منطقة الفرات سنة ٩٢٨ م[١] . هذا في حين يعرف فليبابوس بأنه أحد ملوك الكومجين الذي توفى في أوائل القرن الثاني الميلادي ..

ان البحث التاريخي يتحتم حينما نحتاج اليه لتحديد زمن كتابة الملحمة مثلا . ولذلك تساءل الباحث عن اللقب « بازل » الذي خلعه الامبراطور على ديجنيس حينما زاره في قصره على نهر الفرات .. هل تشير الملحمة بذلك الى الامبراطور بازل الأول أم الثاني وهنا يجيب مافروجورداتو بأن المقصود هو بازل الثاني الذي توفى عام ١٠٢٥ م ، ففي عهده استرد البيزنطيون سلطتهم التي كانت قد سلبت منهم سنين طويلة في منطقة الفرات[٢] .

وبعد ذلك لاتسرد علينا ملحمة ديجنيس حوادث تاريخية ،وانما تعرض أمامنا صورا من التاريخ قد نسقها مؤلف الملحمة بخياله حتى يصور لنا الصراع الذي كان على الحدود الشرقية[٣] .

❋ ❋ ❋

بقى الآن أن نشير الى البحث الذي كتبه الأستاذ كرياكيدس للمؤتمر البيزنطي الذي عقد في سبتمبر سنة ١٩٥٨ بشأن ملحمة ديجنيس آكريتس . فقد استهل بحثه هذا بعبارة تفصح عن رأيه

(١) Ibid., p. LXXIII.

(٢) Ibid., p. L XXIV.

(٣) Ibid., p. L XXIII.

إلى مشكلة صلة الملحمة بالتاريخ من حيث قبوله للمبدأ الذى يدعو الى البحث فى الأصل التاريخى للملحمة . يقول : « اننى قبل أن أتعرض لتفصيلات الموضوع أتقدم برأيى مبينا أن الملحمة فى ملامحها العامة لاتثير مشكلات كثيرة . هذا فضلا على أنها تتضمن أسماء أشخاص سبق أن دون التاريخ أعمالهم » ثم أخذ يتحدث عن ديجنيس فاقرفى ترددرأى جريجوار الذى يربط فيه بين ديجنيس وديوجينس البطل البيزنطى الذى قتل سنة ٧٨٨ م فى الحوادث الشرقية كما ذكرنا . هذا وان كان الأستاذ كرياكيدس لم يستطع أن يقطع بأن الصفة ديجنيس يمكن أن تشتق لغويا من ديوجينس (١) . .

وعلى كل فقد رأى الكاتب أنه من الأفضل أن يبدأ بالبحث عن أجداد البطل ، اذ كان البدء بتحقيق شخصية ديجنيس تاريخيا من الصعوبة بمكان . وهذا يشير الى ما أشار اليه من سبقه من الباحثين من أن خريزوشير الزعيم البوليصى انما هو خريزوفيرجس جد ديجنيس لأبيه ، وأن عمر الملطى هو أمبرون جده لأمه . هذه الشخصيات التاريخية تجعله يجزم بأن الملحمة قد كتبت فيما بين سنة ٨٦٣ م ، وهى السنة التى قتل فيها عمر الملطى وبين سنة ٩٣٤م ، وهى السنة التى استولى فيها نقفور فوكاس على ملطية وسومسطة ، وبدأت فيها قبيلة بنى حبيب المسيحية تتدفق فى الأراضى البيزنطية . ودليل الكاتب على هذا أن الملحمة تشير الى ارتداد أم موصور عن الاسلام وهجرتها بلاد الاسلام الى الأراضى البيزنطية (٢) . أما ما أشار اليه جريجوار من أن الملحمة قد كتبت بعد سنة ٩٤٤م فهذا مايعارضه الأستاذ كرياكيدس . وحجة الأستاذ جريجوار فى ذلك هى أن اديسا كانت قد سقطت فى تلك السنة

(١) Kyriakidis (St.) : Forschungsbericht zum Akritas-Epos ; Berichte zum XI internationalen Byzantinisten Kongress, Munchen 1958, S. 12.

(٢) Kyriakidis : op. cit., S. 20.

وتسلم البيزنطيون الأثر المسيحى المقدس الذى يتمثل فى صورة المسيح وقد طبعت فى منشفته . وهو يرد على ذلك بأن أم موصور تتحدث بأن ذلك الأثر المسيحى كان مايزال بأيدى المسلمين (١) .

وخلاصة رأى كرياكيدس « أن الشاعر « مؤلف الملحمة » كان يهدف الى كتابة تاريخ حياة أبطال عاشوا فى التاريخ والواقع ،ولكنه شاء أن يستخدم فى ذلك أسلوب قصة قديمة معروفة لديه : (٢) أما السبب الذى دعاه لأن يكتب تاريخ حياة هؤلاء الأبطال فى تلك الصورة القصصية المنسقة فهذا مالم يذكر الأستاذ كرياكيدس ..

وبهذا نكون قد فرغنا من عرض الآراء المختلفة فى علاقة الملحمة بالتاريخ . ويمكننا الآن أن نلاحظ أن هذه الآراء تسير فى اتجاهين .. بعضها يحاول أن يجعل من كاتب الملحمة مؤرخا أكثر منه قاصا. ولهذا بحث أصحاب هذا الرأى ــ ونشير بخاصة الى ساتاس وليجران وجريجوار ــ عن كل اشارة بالملحمة يمكن أن يهتدوا بها للوصول الى ملامح تاريخية من شأنها أن تلقى بعض الضوء على الأسماء والأحداث .. والبعض الآخر ــ ويمثله مافروجورداتو ــ يقف عند الطرف المقابل فيذهب الى أن مؤلف الملحمة كان قاصا رومنتيكيا ، وأنه لم يكن متقيدا على الاطلاق بحوادث تاريخية أو بفكرة سياسية ، وانما كان يعيش فى غمار عصره ويشهد الأحداث، وانه استطاع أن يمزج ما وعاه ذهنه من الأحداث المعاصرة له وغير المعاصرة ، هادفا من وراء ذلك الى الوصول الى غايته وهى اشاعة السلام فى منطقة طالما نشبت فيها الحروب .

ونحن نرى أن كلا الاتجاهين متطرف . فالاسراف فى تفسير كل اشارة فى الملحمة بما يوازيها أو يشبهها من قريب أو بعيد

---

(١) Ibid., S. 21.

(٢) Ibid., S. 27.

بحوادث التاريخ أمر مجهد للغاية ، فضلا عن أنه قد يؤدى الى نتائج غير مجدية كما رأينا . وكذلك القول بأن مؤلف الملحمة لم يضع نصب عينيه أحداثا وشخصيات بعينها قول فيه بعض الاسراف ، فلايمكن ان نتصور أن مؤلف الملحمة قد ربط بين الحوادث والشخصيات التى ذكرناها فى ذلك النسق اعتباطا .

أما الهدف الذى ترمى اليه الملحمة فقد شرحه البعض بأنه اشاعة السلام ، وشرحه البعض الآخر بأنه تعبير عن الزهوباستقرار الأمر للامبراطورية البيزنطية مرة أخرى فى منطقة الفرات . فهل أراد مؤلف القصة حقا أن يشيع فكرة السلام فى منطقة طالما سالت فيها الدماء ، وانه لذلك قد جعل الأجناس المتنازعة فى تلك المنطقة .. أعنى العرب والبيزنطيين والأرمينيين ــ تتحد فى شخصية بطل واحد هو ديجنيس الذى استقر كالأسد الرابض على شاطىء الفرات ليحفظ السلام والهدوء فى المنطقة ؟ اذا كان المؤلف قد أراد ذلك حقا فاننا نتساءل عن القوة التى استطاعت أن تشيع الهدوء فى المنطقة ، أكانت قوة عربية أم بيزنطية أم كانت القوة الخارجة على الدولة البيزنطية ؟.

لا يمكن أن يكون المؤلف قد تخيل أن تلك القوى المختلفة المتصارعة قد تداخل بعضها فى البعض الآخر تماما وأنه لم تعد هناك وجوه خلاف بينها وأن الجميع صاروا تسودهم قوة واحدة يصعب تمييزها ، اذ هى مزيج من العربية والبوليصية والبيزنطية على حد سواء ..

أما أن يكون المؤلف قد أراد الزهو بانتصار البيزنطيين على أعدائهم فلم يكن هناك مايدفعه لأن يجعل ذلك النصر يتم على يد بطل يكاد يكون غريبا عن الدولة البيزنطية والشعب البيزنطى ..

ان تفسير هدف الملحمة يرتبط ولا شك بتفسير اندماج الأجناس

الثلاثة فى نسب ديجنيس . وهذا لم يأت اعتباطا كما ذكرنا ـ بل لقد فكر فيه مؤلف الملحمة عن عمد قبل أن يشرع فى كتابة ملحمته. ولكننا سنرجىء رأينا فى هذا الصدد حتى نفرغ من مناقشة ما فى تفسير الروح الاسلامى العربى الذى يبرز فى الملحمة .

***

ج ـ الروح الاسلامى العربى فى الملحمة

رأينا أن ساتاس وليجران قد تجنبا الحديث عن الجانب العربى الاسلامى فى الملحمة الا مايشير الى أن أمبرون هو عمر بن عبيد الله الأقطع أمير ملطية ، فلقد ركز جهدهما فى محاولة اثبات أن الملحمة بيزنطية الأصل ولا أساس لمؤتمرات خارجية فيها . وقد دعاهما ذلك الى اطالة الحديث عن البطولة البيزنطية التى صورها مؤلف الملحمة فى أسرة دوكاس التى اشتهرت ببطولة أفرادها ونزاهتهم وسعيهم وراء مصلحة الوطن ..

وكذلك شغل أدونز بالبحث عن الأصل الأرمينى للملحمة ـ شغل به عن التفكير فى العنصر العربى الاسلامى ، ولم يشر الا الى أن الأسماء العربية قد ذكرت بالملحمة لما كان لأصحابها من صلة بحوادث البوليصيين . أما الملحمة فقد نشأت أصلا فى بيئة أرمينية ثم انتقلت الى البيئة البيزنطية بعد أن تمكن مؤلفها الجديد من تحويرها بما يتفق والسياسة البيزنطية (١) .

ولكن اذا كان ساتاس وليجران قد نظرا الى الملحمة من زاوية بيزنطية صرف ، واذا كان أدونز قد نظرا اليها من زاوية أرمينية ، فان جريجوار قد نظر الى الملحمة من زاوية عربية بيزنطية . فالجزء الأول من الملحمة الذى يتحدث عن الأمير العربى موصور : عن بطولته وزواجه من ابنة القائد البيزنطى ثم ارتداده عن الاسلام ، هذا الجزء

(١) Adontz : op. cit., p. 215.

الأول من الملحمة الذى انتهى بميلاد البطل ديجنيس انما يشير — فى رأى جريجوار — الى تأثير ملحمة عربية فى الملحمة البيزنطية(٢) .. ولكن ماحقيقة هذه الملحمة العربية وما نواحى تأثيرها فى الملحمة البيزنطية ؟ أما هذه الملحمة العربية — التى لاوجود لها اليوم — فهى تلك التى دارت على ألسنة الشعب العربى المجاهد فى منطقة الثغور تمجيداً لبطلهم الأول عمر بن عبيد الله الملطى ..

هذه الحقيقة يجزم بها جريجوار بعد أن رأى أن هذه الملحمة الملطية قدتركت أثرها واضحا فى القصص الشعبى العربى والبيزنطى على السواء . فسيرة ذات الهمة تحتفظ باسم البطل الملطى وان أنكرت بطولته ، وكذلك تصنع قصة عمر النعمان (١) . على أنه اذا كان القصص العربى لم يبرز بطولة بطل الثغور عمر الملطى فان الملحمة البيزنطية قد أبرزت ذلك فظهر اسم عمر مشرقا فى الجزء الأول من الملحمة(٢) ..

وهنا ينبغى أن نتساءل : ما الدافع الذى دعا الشاعر البيزنطى الى تخليد ذكرى عدو بلاده الأكبر ؟ ويجيب على ذلك جريجوار بأن ملحمة عمر الملطى التى افترض أنها عاشت بين سكان منطقة الثغور قد انتقلت الى البيزنطيين ، وأن مؤلف الملحمة البيزنطية شاء أن يحتفظ ببعض حوادثها جنبا الى جنب مع قصة البطولة البيزنطية التى تتمثل فى ديجنيس(٣) ..

---

(١) Gregoire (H.) et Goossens (Roger) : Byzantinisches Epos und arabischer Ritterroman ; Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft — Leipzig 1934, S. 220.

(٢) يرجح جريجوار أن حكاية عمر النعمان تجنبت ذكر الأسماء التاريخية . وليس ببعيد أن يكون عمر النعمان هو عمر بن عبيد الله .
Ibid., S. 222.

(٣) Gregoire : les recherches recents sur l'epopée Byzantine, S. 428.

وعلى هذا تتألف الملحمة البيزنطية من جزئين : جزء مصدره عربى بحت والجزء الآخر بيزنطى . اما الجزء العربى فهـــو الذى يمجد بطولة عمر بن عبيد الله وولده ، وأما الجزء البيزنطى فهـو الذى يمجد بطولة « ديوجينس » الذى سقط فى معارك سنة ٧٣٣م فى اقليم قبادوقيا . وقد ظلت قصتا الأبطال الثلاثة تعيشان بين سكان الثغور العربية والبيزنطية حتى جاء العصر الذى انتقم فيه البيزنطيون من العرب حينما استردوا منهم منطقة الفرات . وحين الف الشاعر ملحمته حول هذا النصر استفاد من القصتين . ومن اجل ذلك ظهر الروح العربى واضحا فى الجزء الأول من الملحمة ، كما ظهر الروح البيزنطى جليا فى جزئها الثانى . وقد اســتطاع الشاعر أن يربط بين الجزئين بأن جعل الأمير العربى يعلن ارتداده عن الدين الاسلامى بعد زواجه من ابنة القائد البيزنطى . وقد كان ثمرة هذا الزواج البطل « ديجنيس آكريتس » ..

لقد خصص الأستاذ جريجوار ومن تبعه من تلاميذه ــ ونخص منهم بالذكر « جوسون » ــ الجانب الأكبر من ابحاثه لدراســـة بعض عوامل التأثير العــــربية فى الأدب البيزنطى . وقـــد كانوا يستعينون فى ذلك بأبحـاث المستشرق ماريوس كنـار فى الآداب الشعبية العربية . وسنشير فى الجزء الخاص بالمقارنة من هـــذا البحث الى الآراء المختلفة فى هذا التأثير .

ونحن اذ نشـكر للأسـتاذ جريجوار التفاته للمظهر الاسلامى فى الملحمة نعلن أن الملحمة فى صورتها الحالية ليست ــ ولم تكن ــ جزأين وانما هى كل مكتمل . واذا كان مؤلف الملحمة من ســكان القطاع الشرقى كما تدل على ذلك التحديدات الجغرافية فى الملحمة ذاتها ــ فانه لابد أنه كان يستمع الى الأغانى والقصص العديدة التى تمجد الأبطال فى تلك المنطقة ، ولابد أنه قد تأثر بذلك ، ولكنــه حينما كتب ملحمته كان مشبعا بفكرة خاصة به فعبر عنها من خلال

ذلك الاطار التاريخى الذى كان يعيه ، والـذى يربط فى نفسـه الأحداث فى نسق خاص .

ان المنطقة التى وقعت فيها حوادث الملحمة واضحة ومحددة. انها منطقة انتزعت من أيدى البيزنطيين وظلت فى أيدى العـرب زمنا طويلا . وفى هذه المنطقة كان يسكن الأرمن الذين لم يكونوا موالين للبيزنطيين موالاة تامة . وكان يسكن بها كذلك الخـارجون على الدولة البيزنطية كالبوليصيين . فاذا أضفنا الى هذين العنصرين العنصر العربى تبين لنا كيف أن المنطقة التى اتخذت منهـا الملحمة موطنا كانت تحمل عداوات مختلفة للدولة البيزنطية . هـذه العداوات المختلفة ظهرت واضحة فى الملحمة ، بل ان ديجنيس البطل هو ثمرة هذه العداوات . كان خريزوفيرجس عدوا للدولة ، وكان أمبرون ــ أى عمر الأقطع ــ كان مناوئا عنيدا لها ، ثم كان أندرونيك دوكاس خارجا على الامبراطور ، وقد لجأ الى العرب وأعلن اسلامة وقضى بقية حياته بينهم . وكل هؤلاء انتسب اليهم ديجنيس . فلم يبق بعد ذلك الا أن نعلن أن ديجنيس كان حفيدا لأعداء الدولة ، أى أنه كان عدوا لها كذلك .

هذا الفرض الذى نفترضه تؤيده بعض الشواهد . وهى شواهد نقع على بعضها فى الملحمة ذاتها وتتمثل بعضها فى البيئة الأدبيـة البيزنطية التى كانت تتغنى بكفاح البيزنطيين مع العرب . .

أما شواهد الملحمة فبالاضافة الى ماذكرناه نشـير الى قول ديجنيس عندما استدعاه الامبراطور زغبة فى مقابلته . لقد رد عليه ديجنيس قائلا : « اننى لا أعجز عن فعل شىء اذا أراده الله ، ولكنك اذا أردت أن تلقى خادمك الأمين فان الطريق لن يستغرق منـك أياما حتى تكون بجانب الفرات . فان شئت رؤيتى فستجدنى بجانب

شاطئه . (١) . فمثل هذه اللهجة لايمكن أن يتحدث بها سوى خارج على الامبراطور ..

وهناك دليل آخر نستند اليه من نص الملحمة . فحينما توفى ديجنيس شهد جنازته ممثلو القطاعات الشرقية . وقد كان من بين الذين شهدوا الجنازة كبار رجال بغداد (٢) ونبلاء بابليون وآمد ..

ونحن نتساءل : لماذا لم يشهد الجناز وفود أخرى من القسطنطينية كذلك ، وهى عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، اذا كان ديجنيس بطلا بيزنطيا خالصا ؟ ثم لماذا شهد الجنازة كبار رجال بغداد اذا كان ديجنيس رمزا للبطولة البيزنطية التى حاربت العرب سنين طويلة ؟

وهناك شاهد آخر نجده فى قصة شعرية بيزنطية قصيرة . وهى احدى القصص القصيرة التى تتغنى بحوادث الثغور . وبطل هذه القصة هو ديجنيس . وتحكى القصة ان ديجنيس حاول الزواج من فتاة بيزنطية . فرفضت أمها وأعلنت أنها لايمكنها أن تزوجه ابنتها لأن امه مسلمة وأباه يهودى . « وربما كان لفظ يهودى هنا اشارة الى هرطقة خريزوفيرجس » وهذا يدلنا على أن الشعب البيزنطى لم يكن يتغنى بديجنيس بوصفه بطلا بيزنطيا ..

لقد كان مؤلف الملحمة الأول مواطنا من القطاع الشرقى ولاشك كان شرقيا بعاداته وكان شرقيا حين عبر عن ظروف المنطقة التى عاش فيها فترة من فترات تاريخها الحاسمة . ولم يكن المؤلف شرقيا فحسب ؛ بل كان شرقيا متعصبا حينما نسب بطله الى مشاهير

(١) انظر الأبيات من ٢٠٧١ الى ٢٠٧٤ .

(٢) انظر الأبيات من ٣٧٤٣ الى ٣٧٤٤ .

رجال الشرق . وقد شاء المؤلف بذلك أن يحفظ لرجال الشرق سلطانهم الكامل فى منطقتهم . ولقد تحقق ذلك على يد ديجنيس الذى كان ينتسب الى عمر الأقطع ، البطل العربى الذى وقف كالجبل الأشم فى وجه البيزنطيين فترة طويلة، والى خريزوفيرجس الأرمينى الخارج على الدولة البيزنطية والذى سخر من بازل الأول حينما طلب منه الصلح فأجابه بقوله : « اذا كان الامبراطور يريد السلام فدعه يتنازل عن أطماعه فى الشرق ويتفرغ لأطماعه فى الغرب » ، والذى كان ينتسب الى أندرونيك دوكاس البيزنطى الأصل ، الذى ضاق بسياسة بلاده فهرب الى الشرق وأعلن اسلامه ومكث هناك الى أن توفى ..

ثم مرت الملحمة بمرحلة انتقال بعد ذلك حينما تناولها مؤلف شرقى كذلك كان يميل الى السياسة البيزنطية فأضفى على القصة شيئا من ميوله البيزنطية والمسيحية ولكنه لم يستطع أن يتخلص من طابع القصة الأصلى ومن يدرى ، فربما كانت قصة موصور فى الأصل شيئا آخر ، وانه حينما سبى ابنة الامبراطور أندرونيك وتزوج منها لم يهجر بلاده الى الأراضى البيزنطية حيث ارتد عن دينه الاسلامى ، وانما بقى فى بلاده وعلى دينه وتزوج من ابنة أندرونيك التى أنجبت ديجنيس . اذ لا يعنى أن يهجر موصور بلاده الى الأراضى البيزنطية متنكرا لدينه وأهله ، ثم يعود ابنه ديجنيس فيهجر بلاد البيزنطيين ليستقر فى القطاع الشرقى حيث كان أبوه .

وعلى كل ، فرغم التحوير الذى تعرضت له الملحمة ، ظل طابع القصة الأصلى يضفى على الملحمة مسحة عربية اسلامية لاتخفى على باحث .

الفصل الثالث

بعض الأغنيات الشعبية البيزنطية

٢ ـ أنشودة عمورية

واذا كانت ملحمة ديجنيس قد خصت جند قبادوقيا بالذكر دون الأجناد الأخرى لما وقع فيه من حوادث ألهبت خيال الشاعر فان هنـــاك بعض الأغانى التى تخص بالذكر أجنادا أخرى اشتركت فى أحداث تاريخية خالدة . وهذه الأغانى تقتصر على عرض مشـــهد واحد من حيـــاة أحد الأبطال ، تماما كما رأينـــا فى تلك القصص القصيرة التى كان الشعب يتغنى بها والتى افترض البعض أنهـــا أصل ملحمة ديجنيس . غير أن هذه الأغانى تختلف عن تلك فى أنها تستقل عن ملحمة ديجنيس بحوادثها وأبطالها ..

ونعرض الآن لأنشودة عمورية . وتتغنى هــذه الأنشـــودة بحـــوادث عمورية التى فتحها الخليفـــة المعتصم وخربها ســـنة ٨٣٨ حين علم انها « عين المسيحية وأساسها »(١) . وقد فعل ذلك انتقاما من تخريب تيوفيل لزبطرة سنة ٨٣٧ م .

وتتلخص قصة هذه الأنشـــودة فى أن أرموريوس الذى وقـــع

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ١٢٤ .

ولده واخوته فى أسر العرب ، عـزم على أن ينتقم من العـــرب ويخلص اهله من الأسر . ووقف أرموريوس على شاطىء الفرات يسرح النظر فى أمواجه المتضاربة وأوحاله المتراكمة ، واذا به يجد فرســان العرب يقفون مدججين بالسلاح على الشاطىء الآخــر من النهر وكلهم عيون يقظة خوفا من هجوم أعدائهم على أراضيهم . لـكن أرموربوس لم يطل التأمل والتفـكير ، وانما هتف بقوله : « شكرا لك يا الهى بل ألف شكر . انك منحتنى القوة وانك على سلبها لقادر»(١) . فما كاد ينتهى من هتافه حتى ســـمع صوتا ملائكيا يقول له : « ثبت سيفك فى جذع النخلة ، وعلق ملابسك على مقبض السيف ثم خز حصانك واعبر النهر ، وسوف تعبره فى لحظة الى الشاطىء الآخر »(٢) . وفى لحظة كان البطل قرب الشاطىء فهتف بقوله للعرب الذين وقفوا له بالمرصاد : « سلحوا انفسكم أيها الأعراب .. درعوا انفسكم ولا تجعلوا الشك يتطرق اليكم فى أننى ســأعبر الفرات اليكم فان أرموروبولوجى بطـــل شـــجاع»(٣) .

وتزاحمت الأعراب على الشاطىء بقدر عدد النجوم وأوراق الشجر وردوا عليــه قائلين : « هـــدىء من روعك يا أرموريوس وانتظر برهة .. الا تسمع صوت الأبواق .. الأبواق الـكبيرة ؟ ان أسراك مقيدون فى مـــكان ما فى بابليون فامض اليهـــم ان استطعت»(٤) .

---

(١) Gregoire : Autour de Digénes Akritas; Byzantion 1932. p. 291.

(٢) Gregoire : Loc. cit.

(٣) Ibid., p. 293.

(٤) Loc. cit.

ثم انطلقت أصوات الأبواق ودقت الطبول . وانتاب البطل الرعب ، وأيقن أن لا سبيل الى بلوغ مكان أسراه ، لكنه استجمع قواه وهتف : « ان استطعتم ايها الأعراب أن تحولوا دون أرموريوس والعمل فهيا تقدموا . خذوه من حوض الماء حيث يستحم . خذوه وقودوه لولده ليراه أسيرا »(١) . وفى لحظة حمل الأعراب السيوف وانتزعوا البطل من الماء وحملوه الى الأمير العربى . وقد كان استقبال الأمير للبطل البيزنطى على عكس ما كان يتوقعه الأخير اذ دعاه الأمير لتناول الطعام معه ثم قال له : « ارجع يا أموريوس الى مكان أهلك وأطلق سراح ولدك . لقد اخترته زوجا لاحدى بناتنا . ولن تكون هذه ابنة عمى او ابنة اختى ولكنها ابنتى . فاذا ولد له ولد فسأجعله يتعلم كيف يحب العرب ويقتسم مايغنمه بينه وبينهم وكيف يعيش فى سلام معهم »(٢) .

وقد رأى جريجوار أن الأسماء التى أطلقت على هذا البطل ، وهى مرة أرموريوس ومرة أموريس ، وثالثة أرموريولوجى – انما هى تحريف لاسم عمورية . وقد خلع الشاعر هذا الاسم على البطل تمجيدا للأسرة العمورية التى انتهى حكمها بوفاة ميخائيل الثالث(٣) . ولكننا نرى أنه رغم التصريح فى هذه الأنشودة بالعداء بين العرب والبيزنطيين ورغم ذلك التحفز والتحرش بين الفريقين الرابضين على شاطىء الفرات كان الشاعر مشبعا بفكرة السلام كما هو الحال فى ملحمة ديجنيس . وهو لم يشأ أن يجعل السلام يسود على يد شخص بيزنطى صرف أو عربى خالص ،

---

(١) Gregoire : op. cit., p. 293.

(٢) Loc. cit.

(٣) Gregoire : Nouvelles Chansons Epiques des IXe et Xe siecles : Byzantion 1939, XIV 242.

لـكنه شاء أن يكون ذلك على يد بطـــل آخر مولد يحب العرب وينشر معهم لواء السلام .

ان هذه الأنشودة نفحة أخرى من نفحات شاعر شعبى عاش بين العرب وأحبهم وأراد أن يندمج فيهم حتى يشيع السلام فى المنطقة المشتعلة بالدماء .

***

٣ ـ أنشـــودة خرزانيس

والى جانب ملحمة ديجنيس وأنشودة عمورية نجد أنشـودة خرزانيس ، وخرزانيس اشارة الى اسم جند خرزيانون كما يرى البعض(١) • واذا كانت هذه الأنشودة لم تتغن بحوادث القتـال بين العرب والبيزنطيين فانها لم تخل من نفحة من نفحات الشرق . على أننا لا نذكر هذه الانشودة للنفحة الشرقية التى تشيع فيهـا فحسب ، ولكن لأنها تتفق مع قصتنا العربية الشعبية « عمـــر النعمان » فى أكثر من وجه • وسنشير الى ذلك فى موضعه من البحث •

وتحكى قصة هذه الأنشودة ان خرزانيس احب فتاة وان لم يتحدث اليها على الاطلاق . لذلك راح ينفق المـال والذهب عنـد بابها ولـكنها لم تمنحه كلمة حب . وذات يوم بينما كانت خارجة للاستحمام التقى بها فى الطريق وبثها حبه . وعاد الى أمه مسرورا وطلب منها أن تعينه على الزواج من فتاته • ولم تعارض الأم رغبته بل طلبت منه أن يتزوج منها زواجا دينيا . واستعدت القساوسة لاتمام مراسيم الزواج ثم حملت الخمور وقطع الذهب الى الفتاة . ودخلت الفتاة لمقابلة الرسل الموفدين من قبل خرزانيس ، والذين

(١) Gregoire : Echanges Epiques Arabo — Grecs; Byzantion 1932, VII 378 وملخص القصة مستمد من الترجمة الفرنسية لجريجوار ••

قدموا لها الخمر والذهب . فما كان منها الا أن سكبت الخمر وبعثرت النقود وقالت لهم : « اننى لا أريده زوجا لى بل لا أريد ان اراه جارا لى » . وخرج الجميع يتعثرون من الخزى . ولكنهم قبل أن يهبطوا فى درجات السلم قالت لهم : « ان لى مطالب ثلاثة فهل يستطيع القيام بها ؟ اننى أطلب منه أن يهشم الصخر وأن يقلم النخل وأن يحتضن الريح وأن يحزم البيض فى حزمة واحدة وأن يبذر القمح والشعير فى البحر فيكبر . فان هو استطاع ذلك كان الله قد بعث الى بأفقر عبد لكى أتزوج منه»(١)

ثم نزل الجميع وكان خرزانيس ينتظرهم أمام الباب ، فحكوا له ما حدث فحزن واكتأب ونزل توا ليعد حصانه للرحيل ، فاذا بحصانه يحدثه ويسدى اليه النصيحة . لقد دعاه الى ان يتنكر فى زى فتاة بعد أن يحلق شاربه ، ثم يذهب الى الفتاة ويتحدث معها ويخبرها أن صلة نسب تربط بينهما . فاذا مافتحت له الفتاة بابها تودد اليها وشرح لها ما يعانيه من فقر ، وعندئذ سترق له الفتاة وتدعوه للمبيت لديها ، وبذلك يستطيع أن يفض بكارتها ، وحينئذ تقبل الزواج منه .

وصنع خرزانيس ما أشار عليه به حصانه ، ودخل الى الفتاة وأعطاها مخدرا وقضى ليلته معها . وفى الصباح استيقظت الفتاة مذعورة من رؤيا رأتها . رأت كأنها تقف وسط الحشائش تحمل ورودا حمراء واذا بسيف يسقط من السماء ويستقر بجانبها . وأخذ خرزانيس يؤول لها الرؤيا ويشرح لها أن الورود ترمز لبكارتها وأن السيف يرمز لخرزانيس الذى أحبها ..

وتتبين الفتاة ما حدث لها وتغضب وتذهب تشكو الى ملك بابليون أحد جنوده قد فض بكارتها . ويذعر الملك ويطلب منها أن

(١) Gregoire : op. cit., p. 372.

تصف له ذلك الجنـــدى فتخبره الفتاة أنه طويل كالسرو ونحيف كالشمعة •ويعرف الملك من ذلك الوصف أنه خرزانيس فيـــأمر باستدعائه • ويقابل خرزانيس الملك فى هدوء وكبرياء كأن شيئا لم يحدث • ويطلب منه الملك أن يتزوج الفتـــاة والا تزوجها الملك نفسه ، فيرد عليه خرزانيس قائلا : « اننى أعيش حرا ، أنام على الأشجار وآكل ما تشتهى نفسى من الفاكهة • لقد كنت حرا عندما قبلت الفتـــاة وأنا الآن حر فى أن أتزوجها • اننى أقرر أننى لن أتزوج الفتاة بل سأتركها لك • » (١) ••

وحينئذ رحل الملك والفتاة وحاشيته حتى وصلوا بابليون • وهناك تزوج الملك من الفتاة ••

هذه هى أشهر الاشعار الشعبية التى تغنت بالشرق والمتنازع عليه من العرب المسلمين والبيزنطيين المسيحيين دهورا طويلة • وأننـــا بعد أن عرضنا للانتاج القصص الشعبى لدى هؤلاء وهؤلاء ، ذلك الانتـــاج الذى ارتبط بصفة خاصـــة بذلك النزاع ، نمضى لعقد المقارنات فى هذا النتاج المحلى لدى الشعبيين لنرى الى أى حد كان التأثر والتأثير متبادلا بينهما والى أى حد كانت الدوافع النفســية لانتاج هذا التراث الشعبى متفقة أو مختلفة بين الشعبين ••

---

(١) Ibid., p.

الباب الثالث

المقارنات

الفصل الأول

العلاقة بين العرب والروم وأثرها في الدراسات المقارنة

وبعد أن قدمنا أشهر نماذج الأدب الشعبى العربى والبيزنطى التى نتجت عن الصراع الطويل بين العـــرب والروم ، نفرغ الى عقـد المقارنات بين الأدبين ، تلك التى نراها تتمثل فى اكثر من وجه .

واذا كانت المقارنات من شـأنها أن توضح لنا العلاقة القوية بين الأدب الشـعبى العـربى والبيزنطى ، فاننا نود أولا أن نلقى الضوء على العلاقة الواقعية بين شعبى العرب والروم بعيـدا عن جو القتال الذى أفاض المؤرخون فى وصفه ، واقتصروا عليه فى تصوير العلاقة بين شعبين متجاورين تطاحنا قرونا طويلة . ومن المحتم أن هناك علاقة من نوع آخر نشـأت بينهما . وقـد أشار اليها فازلييف المؤرخ المتخصص فى تأريخ الحروب العربية الرومية ،اذ يقول : « فاذا قارنا مؤرخى السرب والروم ووصفهم المعارك على وتيرة جافة ، وعدد القتلى وعدد الأسرى ، وذكرهم ذكرا كثيرا سكانا هلكوا ومحصولات بادت ومعاملات سيئة للأسرى فاننا قد لا نرى فى هذا لأول نظرة الا الجانب القاتم من كل ذلك والا الناحية السلبية من العلاقات الرومية والعربية . والواقع

انه يوجد شيء غير ذلك ، فان اتصال هذه المعارك بما يستتبع من علاقات ممتدة غير مقصودة بين شعبين كبيرين لا يخلوا من أثر على التطور الداخلي لدى كل من الامبراطوريتين . واذا كانت التجارة قد تأتي في المكان الأول من حيث هي عامل على التطور الثقافي للشعوب ، فان الحوادث السياسية أيضا قد خدمت الثقافة في كثير من الأحيان . اذ يتطاحن شعبان غريبان بدافع من طبيعة الأشياء فيتبادل المنتصرون والمنهزمون الأفكار الجديدة والعادات والأخلاق واللغات والأدب ، ولذلك كان يجب أن ينتج من ذلك حياة داخلية نشيطة »[1] .

هذه الاشارات الدقيقة التي تختص بالعلاقة الرومية والتي أوجزها فازيلييف في مقدمة كتابه ، نود أن نستوضحها في حياة الشعبين العادية ، قبل أن نستوضحها في أدبهما .

سبق أن اشرنا الى الحملة التي قام بها ليوالايسوري ضد عباد الصور في الدولة البيزنطية ، والتي قيل انه كان متأثرا بها بالحملة التي قام بها يزيد بن عبد الملك على عباد الصور في مصر عام ١٠٢ هـ ٧٢٠ م ، حينما كتب الى حنظلة بن صفوان والي مصر أن يكسر الأصنام والتماثيل ، فكسرت كلها ومحيت من ديار مصر . وقد وصف مؤرخ بيزنطي ليو ــ بناء على هذه الحادثة ــ بأنه ذو شخصية عربية ، كما ذكر انه كان يجيد العربية ويعرف أمور الخلافة الاسلامية نتيجة اقامته في موطنه مرعش احدى مراكز الثغور . [2]

---

(١) فازيلييف : العرب والروم . ص ١٨

(٢) : الامبراطورية البيزانطية : ترجمة الدكتور حسين مؤنس (لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٥٠) ص ٣٧٦

ومثل هذا الحدث يشـير الى علاقة تجاوزت الموقف العدائى الى التبادل الفكرى الذى انعكس بدوره على التطورات الداخلية .

وهنـاك حادثة أخرى ذكرها النويرى فى نهـاية الأرب ، لا نستطيع أن نقول انها تصور العلاقة الودية بين الشعبين ، وانما تصور لنا مدى تداخل الشعبين أحدهما فى الآخر ، وتقديرهما لبعض الأمور بعيدا عن جو الشحناء والبغضاء . ونود أن نسوق الحادثة كاملة كما رواها النويرى يقـول : « أن رجلا من قريش أسر فحمل الى صاحب القسطنطينية فكلمه ملك الروم ، فجـاوبه القرشى بجواب لم يوافقـه ، فقام اليه رجل من البطارقة صـاحب القسطنطينية فوكزه ، فقال القرشى : وامعاوياه ! لقد أغفلت أمورنا وأضعتنا . فوصل الخبر الى معاوية فطوى عليه واحتال فى فـداء الرجل . فلما وصل اليه سأله عن امره مـع صاحب القسطنطينية وعن اسم البطريق الذى وكزه فلما عرفه ارسل الى رجل من قواد صور ، الذين كانوا قواد البحر ممن عرف بالنجدة وغزو الروم ، وقال له : انشىء مركبا يـكون له مجاديف فى جوفه . واسـتعجل السفر الى بلاد الروم ، واظهر انك انما تسـافر لبلادهم على وجه السر والاستتار منا ، وتوصل الى صاحب القسطنطينيـة ومكنه من المال واحمل اليه الهدايا والى جميع اصـحابه ، ولا تعرض لفلان (يعنى الذى لطم الرجل القرشى) واعمـل كأنك لا تعـرف ، فاذا كلمك وقال لك لاى معنى تهادى أصحابى وتتركنى ، فاعتـذر اليه وقل له : أنا أدخـل الى هـذه المواضع مستترا ولا أعـرف الا من عرفت به ، فلوعـرفت انك من وزراء الملك لهاديتـك كمـا هاديت أصحابك ، ولكنى اذا انصرفت اليكم مرة اخرى سـأعرف حقك . ففعل القائد ذلك . ولما انصرف اليهم ثانية هاداه والطفه واربى فى هديته على أصـحابه ، ولم يزل حتى اطمان اليه العلج . فلما كان فى احدى سفراته قال له البطريق كنت أحب أن تجلب الى من بلاد

المسلمين وطاء ديباج يكون على ألوان الزهر، قال : نعم. فلما انصرف اخبر معاوية بما طلبه البطريق ، فامر له ببساط على ما وصف ، وقال : اذا دخلت وادى القسطنطينية فاخرجه وابسطه على ظهر المركب وتربص فى وادى حتى يصل الخبر الى ذلك العلج ، وابعث له فى السر وتحين خروجه الى ضيعته التى له على ضفة وادى القسطنطينية ، فاذا وصلت الى حد ضيعته فابتدىء لها ، ولعل يحمله الشره على الدخول اليك ، فاذا حصل عندك فى المركب ، كربه راجعا الى الشام ، ففعل ما أمره به معاوية . وصادف ذلك وصول ذلك القائد وجود البطريق فى ضيعته فبسط ذلك على ظهر المركب ووصل الى عرض ضيعة العلج ، فلما عاين البساط حمله الشره والحرص الى داخل المركب فلما صار فى المركب أشار القائد الى رجاله فرجعوا بالمركب بعد أن أوثق البطريق ومن معه وسار حتى قدم على معاوية . فأحضر معاوية البطريق وأوقفه بين يديه ، وأحضر القرشى وقال : هذا صاحبك ؟ قال : نعم ، قال قم فاصنع به ما صنع بك ولا تزد ، فقام القرشى فوكزه كما كان فعل به العلج . ثم قال معاوية للبطريق : ارجع الى ملكك وقل له : تركت ملك الاسلام يقتص من أصحاب بساطك ، وقال للذى ساقه: انصرف به الى أول أرض الروم وأخرجه واترك له البساط وكل ما سألك أن تحمله اليه من هدايا . فانصرف به الى فم وادى القسطنطينية ، فوجد ملك الروم قد صنع سلسلة على فم الوادى ووكل بها الرجال ، فلا يدخل أحد الى الوادى الا باذنه ، فاخرج العلج ومعه من معه . فلما وصل الى ملكه ووصف له ما صنع به معاوية قال : هذا ملك كبير الحيلة . فعظم معاوية فى أعينهم وفى نفوسهم فوق ما كان » .

والى هنا تنتهى الحادثه . ثم يعلق البويرى عليها قائلا : « وهذه الواقعة محاسنها تستر مساوىء ما تقدمها . » (١)

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٦ ص١٨٦ ، ١٨٧ (ط وزارة الثقافة والارشاد القومى ـ ١٩٦٦)

وربما عنى البويرى بذلك التعليق أن ظاهر الحادثة غير باطنها ، وبتعبير آخر ان نهايتها تثير فى القارىء احساسا مخالفا لذلك الذى تثيره بدايتها . فعلى الرغم من العداء المستحكم بين الطرفين نلاحظ أن تقديرهما للقيم الانسانية تخالف ما نعيشه الآن حينما تسيطر العداوة والبغضاء على شعبين متخاصمين . ولعل عبارة معاوية « اصنع به ما صنع بك ولاتزد » انما تدل على ذلك دلالة واضحة . كما ان تقدير ملك الروم لشخصية معاوية تقديرا موضوعيا ، انما يعنى أن الحرب المحتدمة بين الطرفين لا تلغى تقدير الأفراد بعضهم لبعض بعيدا عن اى احساس عدوانى .

ونستطرد فى تقديم الأمثلة التى توضح العلاقة بين الطرفين المعنيين فى عصور تلت عصر معاوية ، حينما بلغت الحرب ذروتها قبل الحروب الصليبية . ونحن نعتمد فى ذلك كل الاعتماد على أخبار أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » الذى يعده المؤرخون ترجمة ذاتية لحياة أسامة بن منقذ . وقد كان أسامة بطلا فارسا عاش الحروب العربية البيزنطية وخاض معاركها وهو الذى يقول فى كتابه : « فكم لقيت الأهوال وتقحمت المخاوف والاخطار ، ولاقيت الفرسان وقتلت الأسود ، وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرماح وبالسهام . » (١)

يقول أسامة أن روجار صاحب « انطاكية كتب الى عمى يقول : قد نفذت فارسا من فرسانى فى شغل مهم الى القدس ، أسال أن تنفذ خيلك وتأخذه من أفامية ، ويوصلونه الى رفنية . فركب وارسل اليه من أخبره فلما لقيه قال : « قد نفذنى صاحبى فى شغل وسر له لكنى رأيتك عاقلا فأنا أحدثك به » . فقال له عمى « من أين عرفت

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار . ص (س) ـ نشر فيليب حتى . برنستون ١٩٣٠

انى عاقل وما رايتنى قبل الساعة ؟ » قال : « لانى رايت البلاد التى مشيت فيها خربة وبلدك عامر • فعرفت أنك ما عمرته الا بعقلك وسياستك • « وحدثه بما جاء فيه • »(١) •

ويحكى كذلك أسـامة عن علاقته بالروم فيقول : « كل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين • فمن جفاء أخلاقهم ـ قبحهم الله ـ أننى كنت اذا زرت البيت المقدس ، دخلت الى المسجد الأقصى ؛ وفى جانبه مسـجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة . فكنت اذا دخلت المسـجد الأقصى وفيـه الداوية(٢) ـ وهم أصدقائى ـ يخلون لى المسجد الصغير أصلى فيه . فدخلته يوما فكبرت ووقفت فى الصلاة . فهجم على واحد من الأفرنج ، مسكنى ورد وجهى الى الشرق وقال : « كذا صل » فتبادر اليه قوم من الداوية أخذوه وأخرجوه عنى وعـدت أنا الى الصلاة فاغتفلهم وعاد هجم على ذلك بعينـه ورد وجهى الى الشرق وقال « كذا صل » • فعاد الداوية دخلوا اليه وأخرجوه واعتذروا الى وقالوا :هذا غريب وصل الى بلاد الافرنج فى هذه الأيام ؛ وما رأى من يصلى الى غير الشرق »(٣) •

ويسـتطرد أسامة فى حكاياته فيقـول : « ان نجم الدين بن ايلغارى بن ارتق رحمه الله كسر الافرنج وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأول سنة ثلاثة عشرة وخمسمائة وأفناهم وقتل صـاحب أنطاكية روجار وجميع فرسـانه . فسـار اليه عمى عز الدين أبو

---

(١) المرجع السابق ص ٨٧

(٢) هم جماعة الفرسان المسمون Templers • وقد نشات تلك الجماعة عام ١١١٩م وأيدها البابا عام ١١٢٨م ، وكان هدفها حماية بيت المقدس • وقد سموا بذلك نسبة الى معبد النبى داود فى أورشليم (مادة Templers فى Der Neue Brockhaus)

(٣) الاعتبار ص ١٨٤ •

العساكر سلطان رحمه الله وتخلف والدى رحمه الله فى حصن شيزر وقد وصاه أن يسيرني الى أفامية بمن معى بشيزر ويستنفر الناس والعرب لنهب زرع أفامية . وكان قد خف من العرب الينا خلق كثير .. وسرت فى نفر قليل ، ما يلحق عشرين فارسا ، ونحن على يقين أن افامية ما فيهـــا خيالة ومعى خلق عظيم من النهـــابة والبادية فلما صرنا على الوادى أبو الميمون ، والنهاسة والبـادية فلما صرنا على الوادى أبو الميون ، والنهابة والعرب متفرقون فى الزرع ، خرج علينا من الافرنج جمع كثير ، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارسا وستون رجلا فكشفونا عن الوادى فاندفعنـا بين أيديهم الى أن وصلنا النـــــاس الذين فى المزارع ينتهبـــون فضجوا ضجة عظيمة . فهان على الموت لهلاك ذلك العالم معى . فرجعت الى فارس فى أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف . فطعنته فى صدره ، فطار عن سرجه ميتا . ثم استقبلت خليهم المتتابعـة فولوا وأنا غر من القتال ما حضرت قتالا قبل ذلك اليوم ، وتحتى فرسى مثل الطير الحق أعقابهم لاطعن فيهم ثم أجتن عنهم . وفى آخرهم فارس على حصان ادهم مثل الجمل بالدرع ولامة الحرب وانا خائف منه إلا يكون جاذبا لى ليعــود على ، حتى رأيته ضرب حصانه بمهمازه فلوح بذنبه . فعلمت أنه قد أعيا . فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحوا من ذراع . وخرجت من السرج لخفة جسمى وقوة الطعنة وسرعة الفرس ثم تراجعت وجذبت رمحى وانا اظن انى قتلته . فجمعت أصحابى وهم ســالمون . ووصــل عمى رحمه الله من عنــد نجم الدين ايلغازى ، فأتانى رســـوله يستدعينى فى وقت ما جرت عادته فيه . فجئته فاذا عنده رجل من الافرنج فقال : هذا الفارس قد جاء من أفامية يريد يبصر الفـارس الذى طعن فيليب الفارس . فان الافرنج تعجبوا من تلك الطعنـة وأنها خرقت الزردية من طاقتين وسلم الفارس »(١) .

(١) الاعتبار : ص ٤٠ ، ٤١

ومما يحكيه أسامة عن مقدار تقدير الافرنج للفارس والفروسية قوله : « والافرنج ، خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الا للفرسان ، ولا عندهم ناس الا الفرسان — فهم اصحاب الراى وهم أصحاب القضاء والحكم . وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس (واسمه رينيه Renier) وبيننا وبينهم صلح وانا اذ ذاك بدمشق فقلت للملك فلك بن فلك (١) : « هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا ، وهو وقت ولادة الغنم فولدت وماتت أولادها ، وردها علينا بعد أن اتلفها » فقال الملك لستة نفر من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكما » . فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا الى مجلس الملك . فقالوا : « قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم » . فامره الملك بالغرامة . فتوسل الى وثقل على حتى أخذت منه ارابع مائة دينار . وهذا الحكم بعد ان تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمى الافرنج أن يغيره ولا ينقصه . فالفارس امر عظيم عندهم . وقد قال لى الملك « يا فلان ، وحق دينى لقد فرحت البارحة فرحا عظيما » قلت : « الله يفرح الملك . بماذا فرحت ؟ قال : قالوا لى انك فارس عظيم وما كنت أعتقد انك فارس . قلت يامولاى : انا فارس من جنسى وقومى . واذا كان الفارس دقيقا طويلا كان أعجب لهم »(٢) .

وأخيرا يحكى أسامة عن تقدير الافرنج للفروسية وعلاقتهم الودية بالعرب فى بعض الأحيان فيقول : « وكان نزل علينا

---

(١) هو الملك فلك Fulk الذى توج ملكا على أورشليم عام ١١٣١م

(٢) الاعتبار ص ٦٤ ، ٦٥

دنكرى(١) وهو أول أصحاب انطاكية بعد ميمون(١) فقاتلنـــا ثم اصطلحنا . فنفذ يطلب حصانا لغلام عمى عز الدين رحمه الله . وكان فرسا جوادا . فنفذه له عمى تحت رجل من اصحابنا كردى يقال له حسنون . وكان من الفرســان الشجعان ، وهو فارس مقبول الصورة دقيق ، ليســابق بالحصــان بين يدى دنكرى . فسابق الخيل المجراه كلها . وحضر بين يدى دنكرى فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشــبابه وقـد عرفوا انه فارس شجاع . فخلع عليه دنكرى . فقال له حسنون « يا مولاى أريدك تعطينى أمانك أنك اذا ظفــرت بى فى القتــال تصــطنعنى وتطلقنى » . فأعطاه أمانة . (٢)

وهذا ما يحكيه أسامة بن منقذ ، وهو شاهد عيان للحــرب الدائرة رحاها بين العرب والنصارى فى منطقة الحدود العربية الرومية . وفضلا عن ذلك ، فقد عاشر أسامة الافرنج وحكى عن طبائعهم وعاداتهم وعلاقتهم به وبالعرب . ونحن نفترض أن هذه العلاقة لم تكن بين أسامة والبطل وحده وبين الافرنج وانما كانت كذلك بين الشعب العربى المستقر فى منطقة الحدود وبين الشــعب الرومى ومن بعده الافرنج .

ولا نود أن نخلص من ذلك الى أن العـــلاقة كانت ودية بين الطـــرفين ، كما يتضح من المراســلات الودية التى تمت بين الطـــرفين ، وانما نود أن نؤكـد أن العـــلاقة بينهما كانت أبعد من كونها معارك حربية فحسب يصطرع فيها الطرفان ، كل من أجل دينه ومن أجل أمته . ونحن نتوقع أن مثل هذه العلاقة ــ السلمية والحربية حقا قد مهدت لتلاقى الأفكار ولانتشــار الآداب

---

(١) Tancred

(٢) Bohemond I

(٣) الاعتبار ص ٦٥ ، ٦٦

الشعبية بين الطرفين ، بخاصة اذا افترضنا أن كثيرا من فرسان العرب وفرسان النصارى ــ نتيجة معاشرتهم الطويلة ، كانوا يعرفون الى حد ما ، ان لم يكن الى حد كبير لغة بعضهما الآخر .

واذا كانت كتب التاريخ قد ارخت للمعارك الحربية ، كما صورت لنا بعض الأخبار شيئا عن العلاقات غير الحربية بين العرب والروم ، فاننا ننتقل الآن الى مقارنة الآثار الأدبية لدى الشعبين حتى نتمثل العلاقة كاملة بينهما .

بعد أن رأى جريجوار وجوسون أن الملحمة البيزنطية تشيد بذكر عمرو بن عبيد الله أمير الثغور وهو الذى عرف لدىالبيزنطيين باسم أمبرون ، فجعلت منه جدا لديجنيس ، وبعد أن رأى أن سيرة الأميرة ذات الهمة لا تغفل عن ذكر عمرو بن عبيد الله ، بل انها كثيرا ما ذكرته بوصفه أميرا للثغور ، فقد افترض جريجوار ــ بناء على ذلك ــ وجود ملحمة عربية عاشت فى منطقة الثغور مخلدة اسم البطل العربى عمرو بن عبيد الله . ولسبب ما ماتت هذه الملحمة تاركة أثرها فى سيرة الأميرة ذات الهمة وفى ملحمة ديجينيس(١) .

وقد شارك العالم كنار كلا من العالمين جوسون وجريجوار هذا الرأى . كما أضاف أنه من المحتمل كل الاحتمال أن تكون سيرة الأميرة ذات الهمة التى تمجد أسرة بنى كلاب ، ليست سوى صدى للملحمة الشعبية التى افترضوا وجودها ذات يوم ، حيث ان هذه الملحمة الأخيرة مجدت بطبيعة الحال أسرة بنى سليم التى ينتسب اليها البطل عمرو بن عبيد الله . وربما ساعد انتشار أسرة بنى كلاب فى منطقة الثغور على نسيان الملحمة السليمية . كما أضاف

---

(١) Grégoire, R. Gossens : Byzantinisches Epos und arabischer Bitterroman. ZDMG (Band 13, 1934). S. 222.

كنار أن شخصية عمر بن النعمان فى حكاية عمر النعمان ، ربما كانت أثرا من آثار هذه الملحمة العربية المفقودة ٠

كما افترض كنار أن ديجنيس يمثل شخصية أبى حفص ابن عمرو بن عبيد الله وكان بطلا محاربا مثل أبيه ٠ حيث أن ديجنيس فى ملحمته ينتسب الى عمرو بن عبيد الله(١) ٠

أما فازيليف فيفسر شخصية ديجنيس من الوجهة التاريخية تفسيرا آخر . فيقول نقلا عن المؤرخ فايل : « وكان ابن نصر يسمى منصورا ٠ ويظهر أن الملحمة الرومية قد حفظت ذكرى ثورة نصر هذه لأن منطقتها كانت منطقة البطل الرومى (اقليم سميساط). وكان نصر يرأس القيسية ونحن نعلم أن مخطوط الأسكوريال يذكر أن أم الأمير ذكرت له ما يساورها من الخوف من القيسية . وفى الملحمة أيضا ذكر منصور وتصويره على أنه صعلوك خطير . ولنذكر فوق ذلك صعلوكا آخر من أعداء ديجينيس هو عنقولاس ، ويظهر أنه اسم لقبيلة عقولايا المذكورة عند ميشيل أكثر من مرة ، ولعلها قبيلة بنى عقيل ، قبيلة نصر ٠ »(٢) ٠

هذا من حيث محاولة ربط الشخصيات الملحمية بالشخوص التاريخية ٠ وهى محاولة استعان بها الدارسون بالمؤرخين البيزنطيين بصفة خاصة ، الذين لهم الفضل فى توضيح أصول الأسماء التى وردت فى الأدب الشعبى البيزنطى .

وربما رأيناه كيف أن الربط بين الشخصيات التاريخية والشخصيات

---

(١) Canard (M.) : Un Personage de Roman Arabo-Byzantine (Société Historique Algerienne. 1932).
Canard (M.) : Delhemma, Sayyid el Battal et Omar al-Noman. (Extrait du Byzantion, Tome XII, 1937) p. 12

(٢) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٨٧ بالهامش ٠

الملحمية في كل من الأدب الشعبي العربي والبيزنطي يتفاوت في وضوحه ودرجة يقينه . فاما أن تكون العلاقة واضحة مما لا مجال فيها للشك كما هو الحال في سيرة الأميرة ذات الهمة ، واما نجدها يكتنفها بعض الابهام ، الأمر الذي يتطلب دعم الآراء بكثير من الفروض كما هو الحال في حكاية عمر النعمان وملحمة ديجنيس . والمسألة تعتمد أولا وأخيرا على شكل العمل الأدبي . فاذا كان الشكل القصصي ، ملحمة كان أم سيرة أم حكاية شعبية ، أقرب ما يكون الى التاريخ ، فهنا نجد الشخوص التاريخية تقدم كما هي بأسمائها التاريخية ، وطبيعي أن تتشكل شخوصها بخيال القاص، فتبتعد بذلك عن التاريخ وان نبعت منه . أما اذا كان العمل الأدبي ينحو منحى رمزيا ، كما هو الحال في ملحمة ديجنيس وحكاية عمر النعمان ، كما نشير الى ذلك وشيكا ـ فهنا نجد الشخوص التاريخية لا تذكر بأسمائها ، وانما يحمل الاسم دلالة ومغزى أكثر من كونه اسما تاريخيا . ذلك أن الغرض من هذه الأعمال ليس هو حكاية التاريخ بقدر ما هو الاشارة اليه من بعيد .

على ان الباحثين لم يكتفوا بمحاولة الربط بين الشخوص الملحمية بشخوص تاريخية ، وانما تعرضوا لعقد المقارنات بين النماذج الأدبية العربية والبيزنطية . على أن مقارناتهم لم تتخذ طابعا منظما وانما هي اشارات عابرة لمحاولة الربط بين النتاج الشعبي العربي والنتاج الشعبي البيزنطي .

وهاهي ذي بعض لفتاتهم ، وهي تتركز حول المقارنة بين حكاية عمر النعمان بصفة خاصة وبعض نماذج الأدب الشعبي البيزنطي .

لقد رأى جريجوار وجوسون أن التشابه قوي بين شخصيتي رومزان في حكاية عمر النعمان وديجنيس ، فكلاهما مخلط بمعنى

انهما ينتميان الى أصل عربى بيزنطى على حد السواء . وكما أن رومزان فى نهاية حكاية عمر النعمان ، عقد محاكمة ليقضى على قطاع الطرق والمفسدين فى الدولة ، فان ديجنيس كان يسعى أولا الى القضاء على العناصر التى تهدد أمن الدولة دائما أبدا(١).

فحكاية عمر النعمان تحكى أنه بينما كان رومزان وكان مكان جالسين خارج بغداد بعد أن اجتمع شملهما ، « اذ ظهر لهما غبار قد علا وطار حتى سد الأقطار ، وقد أتى لهم من التجار صارخ يستغيث وهو يصيح ويقول ، يا ملوك الزمان ، كيف أسلم فى بلاد الكفر وانهب فى بلادكم وهم بلاد العدل والأمان . فأقبل عليه الملك رومزان وسأله عن حاله . فحكى له التاجر كيف أنه كان يسير ببضاعته ، فطلع عليه جماعة من العربان ، وأخذوا كل ما كان معه . فما كان غير ساعة حتى أسر الجميع وكانوا ثلاث مائة فارس مجتمعين من أوباش العرب . فلما أسروهم أخذوا ما معهم من مال التاجر وشدوا وثاقهم ، وطلعوا بهم الى مدينة بغداد . فعند ذلك جلس الملك رومزان ، هو وابن أخيه الملك كان مكان على تخت واحد ، ثم عرض الجميع بين أيديهما ، وسألوهم عن حالهم وعن كبارهم ، فقالوا : ما لنا كبار غير ثلاثة أشخاص وهم الذين جمعونا من سائر النواحى والأقطار . فقالا لهم ميزوهم لنا بأعيانهم . فميزوهم لهما فأمرا بالقبض عليهم ، واطلاق بقية أصحابهم بعد أن أخذ جميع ما معهم من الأموال وقام بتسليمه للتاجر » .

وقد اتضح أن أحد هؤلاء الثلاثة الأشرار هو البدوى الذى كان قد اختطف نزهة الزمان فى أثناء مغامراتها القاسية بعد أن

---

(١) Grégoire et Gossens : Les recherches récents sur l'epopée byzantine — (L'Antiquité classique, December 1932), p. 427-8.

أدت فريضة الحج ، وباعها لتاجر سلمها بدوره الى أهلها • ولما سمعت نزهة الزمان ذلك من البدوى ، وكان يجهلها ــ همت بقتل البدوى . ولكن رومزان منعها حتى يستمعوا الى بقية مغامرات هذا الرجل الشرير • فقال لهم : « اعلموا أنى من مدة يسيرة أرقت ليلة أرقا شديدا ، وما صدقت أن الصباح طلع . فلما أصبح الصباح ، قمت من وقتى وساعتى وتقلدت بسيفى وركبت جوادى ، واعتقلت رمحى وخرجت أريد الصيد والقنص . فواجهتنى جماعة فى الطريق فسألونى عن مقصدى فأخبرتهم به فقالوا : نحن رفقاؤك . فنزلنا كلنا مع بعضنا . فبينما نحن سائرين ، واذا بنعامة ظهرت لنا فقصدناها ، ففرت من أيدينا وهى فاتحة أجنحتها .. ولم تزل شاردة ونحن خلفها الى الظهر حتى قربنا من برية لا نبات فيها ولا ماء ولا يسمع فيها غير صفير الحيات وزعيق الجان وصريخ الأفيال . فلما وصلنا الى ذلك المكان غابت عنا فلم ندر أفى السماء طارت أم فى الأرض غارت . فرددنا رءوس الخيل وأردنا الرواح . ثم رأيت أن الرجوع فى هذا الوقت الشديد الحر لا خير فيه ولا صلاح وقد اشتد علينا الحر وعطشنا عطشا شديدا ووقفت خيولنا وأيقنا من الموت . فبينما نحن كذلك اذ نظرنا من بعيد مرجا أفيح فيه غزلان تمرح وهناك خيمة مضروبة ، وفى جانب الخيمة حصان مربوط وسنان يلمع على رمح مركوز . فانتعشت نفوسنا بعد اليأس ورددنا رءوس خيلنا نحو تلك الخيمة نطلب ذلك المرج والماء • وتوجه اليه جميع أصحابى وأنا فى أولهم • ولم نزل سائرين حتى وصلنا الى ذلك المرج . فوقفنا على يمين وشربنا وسقينا خيلنا . فأخذتنى حمية الجاهلية وقصدت باب الخباء ، فرأيت فيها شابا لا نبات بعارضه وهو كأنه الهلال . وعن يمينه جارية هيفاء كأنها قضيب بان . فلما نظرت اليها وقعت محبتها فى قلبى . فسلمت على ذلك الشاب فرد على السلام . فقلت يا أخا العرب أخبرنى من أنت ، وما تكون لك تلك الجارية التى

عندك . فأطرق الشاب رأسه الى الأرض ساعة ثم رفع رأسه وقال : أخبرنى من أنت وما الخيل التى معك . فقلت أنا حماد بن الفزاوى ، الفارس الموصوف الذى أعد بين العرب بخمسمائة فارس . ونحن خرجنا من محلنا نريد الصيد والقنص فأدركنا العطش . فقصدت أنا باب الخيمة لعلى أجد عندكم شربة ماء . فلما سمع منى ذلك الكلام التفت الى جارية مليحة ، وقال ائتنى الى هذا الرجل بالماء وما حصل من الطعام . فقامت الجارية تسحب أذيالها والحجال والذهب تشخشخ فى رجليها وهى تتعثر فى شعرها ، وغابت قليلا ثم أقبلت وفى يدها اليمنى اناء من فضه مملوء ماء باردا ، وفى يدها اليسرى قدح ملآن تمرا أو لبنا وما حضر من لحم الوحوش . فما استطعت أن آخذ من الجارية طعاما أو شرابا من شدة محبتى لها(١) . ثم طلب حماد من الأخ أن يزوجه أخته والا قتله بسيفه . ولكن الأخ طلب منه أن يدخل فى مبارزة معه ، تحسم الموقف فيما بينهما . وغلب الأخ الرجل البدوى . ولكنه بدلا من أن يقتله أو يطرده من المكان ، صفح عنه وأدخله الخباء وقدم له طعاما ، ومع ذلك فقد ساورت البدوى نفسه أن يقتل الأخ فى غفلة منه . ثم أراد أن يتزوج الأخت قهرا ، ولكنها أسرعت وقتلت نفسها .

هذه الحكاية التى حكاها البدوى لرومزان تشبه من وجهة نظر الباحثين ما حدث لديجنيس ، بينما كان يعيش مع زوجته فترة من الهدوء والسلام عند منطقة الفرات . فقد فاجأه فيليبابوس — زعيم قطاع الطرق — مع أنصاره مرة أخرى ، وأراد أن يخطف زوجة ديجنيس . ولكن ديجنيس طلب منه أن يكون أنبل من ذلك وأن يدخل معه فى مبارزة فردية ، فان غلبه فله ما يطلبه . ووافق

---

(١) الف ليلة وليلة : جـ٢ ص١٦ ، ١٧ .

فيليبابوس وغلبه ديجنيس وعاد فصفح عنه . ومع ذلك فقد دبر فيليبابوس مكيدة أخرى بمساعدة البطلة مكسيمو وهاجما ديجنيس وزوجته مرة أخرى . ولكن ديجنيس تمكن من هزيمتهم جميعا : فولوا هاربين .

فاذا أضيف الى ذلك أن رومزان كان سببا فى اقرار السلام فى المنطقة ، فان ملامح شخصية رومزان فى الحكاية العربية تتفق تماما مع ملامح شخصية ديجنيس فى الملحمة البيزنطية .

ومرة أخرى يحاول جريجوار أن يعقد مقارنة بين شخصية من شخصيات حكاية عمر النعمان وهى شخصية شراكان ، وبين شخصية بيزنطية فى اغنية خرزانيس التى سبق ان عرضناها وهى شخصية خرزانيس نفسه . وفيما يلى الأسباب التى دعته لأن يقرن بين الشخصيتين .

اذا أمعنا النظر فى شخصية شراكان فى حكاية عمر النعمان ، فاننا نلاحظ أنها غريبة عن سائر شخصيات الحكاية . فقد كره شراكان منذ بداية الأمر أن يكون له أخ يشاركه الحكم بعد موت أبيه . فلما أنجب الملك عمر النعمان ولدا آخر هو ضوء المكان ، حرص على اخفاء هذا الأمر عن شراكان حيث كان الأخير على اهبة المسير لقتال الروم . ثم انكشف الأمر لشراكان بعد رجوعه من القتال ، وكان لذلك وقع سيىء فى نفسه . فلما قدم له أبوه احدى الخرزات السحرية ليحتفظ بها لنفسه ، رماها له . فلما وصلت ابريزة الى بغداد ليتم زواجها من شراكان ، طمع فيها الملك عمر النعمان ودخل بها غدرا . وكان هذا خاتمة العلاقة بين الأب وابنه . فرحل الابن ليحكم دمشق بعيدا عن أبيه وعن أخوته .

ثم حدثت بعد ذلك حادثة زادت من غرابة موقف شراكان بالنسبة لأسرته . ذلك أن التاجر الذى وقعت فى حوزته نزهة

الزمان بعد مغامراتها مع البدوى ، أوصلها بطريق الصدفة الى شراكان الذى لمس فيها أصلها الطيب وتزوجها . ومعنى هذا أن شراكان تزوج بأخته التى يجهلها ، لأنها لم تكن تعرفه ، كما لم يكن يعرفها بعد تلك الغيبة الطويلة . بل انه أنجب منها بنتا هى قضى فكان .

ولم يظهر شراكان بعد ذلك على مسرح حوادث الأسرة الا بعد أن استعان به أخوه ضوء المكان على محاربة الروم . وقد قتل شراكان فى نهاية الأمر بيد الداهية شواهى ذات الدواهى .

وهنا يتساءل جريجوار عن السبب فى كون شخصية شراكان غريبة الى هذا الحد عن سائر أفراد أسرة عمر النعمان ، على الرغم من أنه الابن الأكبر الذى يحق للأب أن يحتفل به وأن يهيئه للحكم من بعده . على أنه ما لبث أن وجد لذلك تفسيرا من خلال أغنية خرزانيس البيزنطية .

وتحكى هذه الأغنية أن البطل خرزانيس قد أحب فتاة يبدو أنها عربية الأصل وبعد أن وعدته الفتاة بالزواج به ، رجعت وتنكرت له فى وقت حرج ، حينما استعد الجميع ووفدت القسوس لعقد قران خرزانيس على الفتاة . عندئذ تنكر الفتى فى زى امرأة ظلت تتردد على الفتاة حتى اطمأنت له وسمحت له بالمبيت عندها . وتمكن الفتى أن يسقيها البنج ويدخل بها . فلما أفاقت الفتاة وعرفت ما حدث لها عن طريق رؤيا رأتها ، ذهبت لترفع أمرها الى ملك بابليون . فاستدعى الملك خرزانيس لتوه وطلب منه أن يتزوج الفتاة زواجا شرعيا . عندئذ سخر خرزانيس من الملك وطالب منه أن يتزوجها هو ان شاء . أما هو فلن يتزوج بها لأنه لم يتعود قيد الحياة الزوجية . فلما لمس ملك بابليون منه هذا الاصرار تزوج بالفتاة انقاذا لمصيرها .

ويرى جريجوار أن أنشودة خرزانيس انتشرت لدى العرب ، وقد بدا فيها احتقار الروم للعـرب من ناحيتين : اهمـال الفتى البيزنطى للفتاة العربية بعد أن دخل بها غدرا ثم امتهان شخصية ملك بابليون ـ وهو ليس سوى بديل ، من وجهة نظر جريجوار ، للملك العربى ـ حينما اضطر للزواج من الفتاة العربية انقـاذا لمصيرها . وقد شاء العرب ـ من وجهة نظر جريجوار كذلك ـ أن ينتقموا لذلك فى أدبهم الشعبى . فأخذوا شخصية الفتى البيزنطى وادخلوها فى حكايتهم « عمر النعمان » ، وكان هو شراكان الذى يتشـابه اسمه مع اسم البطل خرزانيس . وهذا يفسر لنا عـلاقة شراكان الغريبة بأسرته . كما أن امتهان عمر النعمان لابريزة يعد مرة أخرى انتقاما من العرب لمـا حدث للفتـاة العربية مع الفتى البيزنطى ، فقد انعكس الوضع فى الحكاية العربية فأصبحت الفتاة بيزنطية ، والغادر بها عربى . (١)

هذه هى خلاصة رأى جريجوار فى العلاقة بين الحكاية العربية والأغنية البيزنطية . وهى محاولة طريفة على أى حال تدلنا على المجهـود الذى بذل فى بيان وجوه التبـادل والتأثير بين الأدبين الشعبيين العـربى والبيزنطى . وان كنا نرى أن تبـادل الأفكار الانتقامية التى تمتلىء بها الآداب الرومية والعربية ، ليس سوى صدى طبيعى للموقف العدائى بين الأمتين دون أن يكون الانتـاج المحدد صدى مباشرا لانتاج آخـر بعينه . وسوف نفيض فى شرح ذلك حينما نتعرض لبحث وجوه المقارنة بحثا تفصيليا .

هذه هى خلاصة الأبحاث التى تمت بصدد المقارنة بين الآداب العربية والبيزنطية ونود الآن أن نفرغ الى عقد مقارنات تفصيلية منظمة بين الأدبين .

---

(١) Grégoire : Echanges Epiques Arabo — Greco (Byzantion 1932, VII) p. 372.

الفصل الثانى

موضوعات المقارنة

الأفكار السياسية :

لا يعكس الأدب الشعبى البيزنطي والعربى المعارك الحربية التى نشبت بين الطـرفين فحسب ، وانمـا تعكس الظـروف التى عاشتها كل من الدولتين بصفة عامة . وقد سبق أن وضحنا كيف كانت كل من الدولتين العربية والرومية تعانى تفككا فى الداخل ، نتيجة للثورات الداخلية ، ونتيجة للصراع الدائب على الحكم . وقد تشابهت ظروف الدولتين الداخلية والخارجية ، الى درجة أنه يمكننا أن نقول أن شـعبى العربى والروم قد عانـا من مشكلات متشابهة تماما . ويكفى أن نذكر القارىء بثورة قربياص ومانويل ولجوئهما الى العـرب ، وبثورة نصر بن شبث وبابك الخـرمى وتعاونهما مع الروم . لما نميله على قراءة أخبار الحروب الدائبة بين العرب والروم قرونـا طويلة ، لكى يدرك كيف أن أحـوال الدولتين الخارجية كانت غير مستقرة تماما .

أما من الناحية الداخلية فى البلاد العربية ، فيكفى ان نقرأ شعر الشعراء الذى يعبر عن ضيق الناس بأحوال بلادهم . فابن حبيات الشاعر الكوفى يقول بعد أن قتل المنصور وزيره أبا ايوب سليمان.

قد وجدنا الملوك تحســـــد	من أعطته طوعا أزمة التـــدبير
فاذا ما رأوا لـــه النهى والأمر	أتوه من بأســـهم بنـــكير
شرب الكأس بعد حفص سليما	ن ودارت عليه كف المديـــر
ونجا خالد بن برمك منهـــا	اذ دعوه من بعدهـــا بالأمير
أسوأ العـــالمين حـــالا لديهم	من تسمى بكـــاتب أو وزير

أو نقرأ قول سليم بن يزيد العدوى يهجو آل العباس بالتصريح لا بالتلميح ٠

حتى متى لانرى عدلا نســربه	ولا نرى لولاة الحق أعوانـــا
مستمســكين بحق قـــائمين به	اذا تلون أهل الجـــور ألوانـــا
يـــاللرجـــال لداء لادواء لـــه	وقائد ذى عمى يقتاد عميـــانـــا

حتى ندرك يأس الناس من صلاح أحوالهم ٠

ولم تكن الدولة البيزنطية أسعد حالا فى أحوالها الداخلية من الدولة العربية ٠ فنحن نقرأ أن قسطنطين السادس قد سملت عيناه بأمر من أمه حينما رفض أن يخضع لأوامرها ٠ كما نقرأ أن نقفور (٩٦٩ ــ ٦٧) م رغم ما بذله من جهد فى سبيل اقرار أحوال دولته ، قتل بيد اكبر قواده وهو جون تسيمسكس ٠

وفضلا عن ذلك فقد كانت الخلافات الدينية فى الدولة البيزنطية من أقوى الأسباب التى دعت الى ظهور الخارجين عليها والمناوئين لحاكمها ٠ وقد كانت ثورة البولصيين الذين دوخوا أباطرة الدولة البيزنطية زمنا طويلا ثمرة لذلك الصراع الدينى كما ســـبق أن أشرنا ٠

وعلى ذلك يمكننا أن نتصور مبلغ ما عاناه كل من الشعبين العربى والبيزنطى نتيجة هذا الجو المضطرب على الدوام ٠ وليس غريبا بعد

ذلك أن يعبر كل شعب عن رغباته وآماله ، بل ويحققها فى أدبه اذا كان قد يئس من تحقيقها في عالم الواقع •

والنتيجة التى نخلص منهامن كل هذه النماذج الأدبية التى سبق عرضها ، هى أن الشعبين قد حققا السلام والهدوء ، بعد أن أخمدا الحـروب المستعرة فى منطقة الحدود ، وقضيا على المتمردين وقطاع الطرق ، وعلى القوى المنافقة التى تدعمها كل عناصر الضعف والفساد •

غير أن هناك ظاهرة تسترعى النظر ، وهى الحرص على أن يكون البطل الذى يحقق النصر فى النهاية يجمع بين الجنسـين العربى والرومى • حقا ان هذا لم يتحقق بوضـوح فى سيرة الأميرة ذات الهمة ، وذلك لأنها كما قلنا أكثر التصاقا بالتاريخ ــ ولكنها مع ذلك لا تخلو من هذه الاشارة • فبحـرون ولد البطال ومذبوحـون ولد عبد الوهاب ، قد ولد كل منهما من أم رومية قدر لها أن ترجع الى بلادها اما أسيرة أو برغبتها • وهناك تلد ابنها الذى يشب ويترعرع فى حصن أقربائه من الروم • ولكنه يرجع بعد ذلك الى بلاد المسلمين حيث ينضم الى صفوفهم بعد أن يعلن اسلامه •

أما فى حكاية عمر النعمان ، فاننا نلاحظ أن رومزان الذى تم على يده نصرة الاسلام ، كان مخلطا ، وبالمثل كان ديجنيس • بل ان الرغبة المتعمدة فى ملحمة ديجنيس فى أن يكون البطل مخلطا تبدو منذ البداية حينما اتخذمن الاسم «ديجنيس أكريتاس» ويعنى المدلد حامى الحدود عنوانها لها • فاذا أصفنا الى ذلك أننا لا نحس عداوة الروم لرومزان بعد التئامه مع العرب ، اذ لم يشهر السلاح ضدهم ، كما لم يشهروا هم السلاح ضده ، وبالمثل فان عداوة ديجنيس للعرب ليس لها أثر فى الملحمة ، وانما ركز ديجنيس جهاده حول محاربة القوى التى تعيث فى البلاد فسادا ــ أمكننا أن نتساءل عن السبب الذى دفع الشعبين لأن يجعلا البطل جامعا لعنصرين صورا فى التاريخ بأنهما أكبر عدوين •

وهنا نقول ـ أن الشعبين ـ بعد فترة الاضطراب والقلق التى عاشها كل منهما ، كان يتوقان حقا الى السلام والهدوء • وحيث أن السلام لا يتمثل فى انتصار شعب على آخر ، وانما يتمثل أكثر من ذلك فى محاربة الضغينة والحقد اللذين يملآن النفوس ويدفعانها دائما أبدا الى القتال ، فان السلام الدائم لن يتم الا اذا عاشت الشعوب حياة أمن وسلام مع بعضهما الآخر ، وكأنهما شعب واحد لا يسعى الى الانتصار الحربى بقدر ما يسعى الى محاربة كل ما من شأنه أن يفسد جو السلام •

لقد رأى رومزان قبل أن يتم لقاؤه الأكبر مع أقربائه من العرب ـ رؤيا لم يتمكن من تفسيرها ، فجمع الرهبان « ليفسروها له ولكنهم عجزوا عن ذلك وقيل له ان هذه الرؤيا لا يفسرها لك الا الوزير دندان ـ وزير كان مكان الذى كان قد أسر معه « فاستدعاه رومزان فى أسره وحكى له الرؤيا وقال : « رأيت أنى فى حفرة على صفة بئر أسود وكأن أقواما يعذبوننى فأردت القيام فلما نهضت وقفت على أقدامى وما قدرت على الخروج من تلك الحفرة ، ثم التفت فرأيت فيها منطقة من ذهب فمددت يدى لآخذها • فلما رفعتها من الأرض رأيتها منطقتين فشددت وسطى بهما فاذا هما قد صارتا منطقة واحدة • وهذا أيها الوزير منامى والذى رأيته فى لذيذ أحلامى فقال له الوزير دندان اعلم يا مولانا السلطان أن رؤياك تدل على أن لك أخا وابن أخ أو ابن عم أو أحد يكون من أهلك من لحمك ودمك • وعلى كل حال هو من العصب يجتمع شملك به • فلما سمع الملك هذا الكلام نظر الى كان مكان ونزهة الزمان وقضى فكان والوزير دندان ومن معهم من الأسارى وقال فى نفسه اذا رميت رقاب هؤلاء انقطعت قلوب عسكرهم بهلاك أصحابهم ورجعت الى بلادى عن قريب لئلا يخرج الملك من يدى • ولما صمم على ذلك استدعى السياف وأمره أن يضرب رقبة كان مكان من وقته وساعته ، واذا بداية الملك قد أقبلت فى تلك الساعة فقالت له : أيها

الملك السعيد على ماذا عولت فقال لها عولت على قتل هؤلاء الأسارى الذين فى قبضتي وبعد ذلك أرمي رؤوسهم الى أصحابهم ثم أحمل أنا وأصحابي عليهم حملة واحدة ونقتل الذى نقتله ونهزم الباقى وتكون هذه وقعة الانفصال وأرجع الى بلادى عن قريب قبل أن يحدث بعد الأمور أمور في مملكتي »(١) •

ولكن مطامع الملك رومزان الشريرة سرعان ما تبدلت بمطامع خيرة بعد أن تحققت الرؤيا فى عالم الحقيقة • واذا نحن تمعنا الرؤيا وحاولنا تفسيرها تفسيرا أدبيا فاننا نجد أشاراتها تتفق مع رغبة الشعوب العارمة ، وهى السعى الى العيش معا فى سلام بعيدا عن كل الضغائن والأحقاد ، فقد عجز الرهبان عن تفسير الرؤيا ولم يفسرها لرومزان سوى الوزير العربى دندان • ومعنى هذا أن الرهبان المتعصبين لدينهم لا يمكنهم أن يحلوا مشكلة رومزان وانما يحلها له عدوه أو بتعبير آخر ذلك الذى يتوهمه عدوا لدودا له • ثم ان رومزان رأى نفسه فى حفرة على صفة بئر أسود ، وهى حالة الضغينة والعداوة التى كان يعيشها ، ولم يستطع أن يتخلص من احساسة بتلك الحفرة الضيقة السوداء الا بعد لمح فى البئر الأسود ، أى فى وسط تلك الضغائن المنطقة الذهبية • وشتان بين شعوره بالضيق فى الحفرة السوداء ، وشعوره بالفرح عندما لمح المنطقة الذهبية • .

ان الحفرة التى على صفة البئر الأسود هى تلك الرغبة الشريرة التي أفصح عنها رومزان لمربيته ، انها الرغبة فى القتل الذى يظن أنها الوسيلة الوحيدة لتوطيد ملكه ومملكته • ولكن المنطقة الذهبية تغلبت على نوازع الشر حينما شد رومزان بها وسطه • فاذا رومزان لا يفكر فى الحرب والقتل ، وانما يفكر فى القضاء على النفوس الشريرة التى تفسد السلام والحياة • فقتل البدوى الذى دوخ نزهة الزمان وباعها فى الأسواق بأغلى الأثمان • وظل يبحث عن العبد

---

(١) الف ليلة وليلة جـ ٢ • •

غضبان الذى ارتكب السوء مع أمه ابريزة وتركها وقد فارقت الحياة. ثم عثر عليه وقتله . وبالمثل فان شواهى ذات الدواهى ـ تلك الداهية التى دوخت المسلمين فقتلت عمر النعمان وشراكان ـ لم تفلت من يده ، فاحتال عليها حتى صلبها على باب بغداد .

وبالمثل فان ديجنيس لم يشغل نفسه بحرب مع العرب أو مع الروم ، بقدر ما شغلها بتحقيق السلام . كما أنه لم يستقر فى مملكته يحكم ويأمر ويدير شئون المعارك الحربية ، وانما ترك العاصمة وقصورها ونزح الى منطقة الحدود ليرعاها ويستشعر جو السلام بجوار نهر السلام .. وحينما استدعاه الامبراطور بازل ليتوجه ، رفض أن يرحل اليه ، لأنه لا يسعى لعمل يتوج من أجله وانما يسعى الى عمل يتوج الشعوب جمعاء بالحب والخير . ورفض أن يرحل الى الامبراطور وطلب منه أن يحضر هو اليه ان شاء . وهذه اشارة الى أن ديجنيس لم يكد يسعى الى مظاهر الملوكية وبهائها ، وانما يحق للملوك أن يتركوا المظاهر الخادعة الى حيث يعيش ديجنيس حتى يروا بأنفسهم كيف يمكن أن تتغير الحياة الى أفضل وأجمل لو أنهم فعلوا ما يفعله ديجنيس .

لقد خرج كان مكان مطرودا من دياره ، بعد أن استولى عليها قوم غرباء . فأخذ يسير حتى وصل الى نهر الفرات . وهناك توضأ وصلى ودعا الله ثم عبر عن آماله وأحزانه فقال :

خرجت وفى أملى عـــودة	ولـــكننى لست أدرى متى
وحيرنى أننى لم أجــــد	ســـبيلا لدفع ما قــد أتى

ولكن الشر لا يدوم فى حياة تدفعها القوى الخيرة الى أمام . فسرعان ما انشق الجيش والشعب العربى على الحاكم الأجنبى المغتصب ، وخرجوا من ديارهم يتبعون كان مكان . عندئذ اشتد ساعد القوة الخيرة فحاربت القوة الشريرة وانتصرت عليها .

وبالمثل فقد زهد ديجنيس فى حياة المؤامرات والصخب داخل بلاده ، وخرج ليستقر عند نهر الفرات ليحمى مياهه من أن تتلوث بدم القتلى ·

أما فى سيرة الأميرة ذات الهمة فقد كان عقبة يشكل خطرا على المسلمين أشد من خطر الروم · وربما كانت فرحة الشعب العربى بصلب عقبة على باب الذهب أشد من فرحتهم بفتح القسطنطينية · ففى الوقت الذى قتل فيه عقبة هتف المسلمين : « قل جاء وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » ·

على أن هذا النصر لم يتم للمسلمين الا بفضل نزوح أسرة بنى كلاب المحاربة الى منطقة الحدود ، والقيام بعبء حمايتها وتطهيرها من فساد المشاغبين والأشرار · وهكذا يمكننا أن نلخص الأفكار السياسية التى عبر عنها الأدب الشعبى العربى والبيزنطى الذى نشأ فى منطقة الحدود فيما يلى :

أولا : السعى الى اقرار السلام بفضل القوة الشعبية · واذا كان أبطال حكاية عمر النعمان ينتسبون الى ملك كبير ، الا أن الحكاية تشير بطريقة رمزية الى التغيير النفسى الذى حدث لضوء المكان ، وهو الحاكم التالى لأبيه ، بعد أن مرض فى أثناء رجوعه من الحج ، ولم يتمكن من الرجوع الى بلاده ، واضطر هو وأخته نزهة الزمان الى أن يخوضا مغامرات دفعتهم لأن يعيشا حياة الشعب البائس ، وأن يتعرفوا فى أثناء ذلك على النفوس الخيرة والنفوس الشريرة · ويكفى هذا لأن يكون أبطال حكاية عمر النعمان شعبيين، كما هو الحال مع أبطال سيرة الأميرة الهمة والبطل ديجنيس ·

ثانيا : حيث أن اقرار السلام لا يتم حقا وبصورة دائمة الا بعد أن يسود السلام بين الشعوب جميعا ، أى بعد أن يتخلص كل شعب من الضغينة والحقد والرغبة فى الانتقام ، فان البطل المخلط

الجنس ، يجسد التئام الشعوب واتحادها • وقد يقال أن الصراع الطويل بين العرب والروم ، نشأ عنه بالضرورة جنس مختلط ، وأن هذا بدوره ترك أثره فى الأدب الشعبى • على أننا لا نرى هناك ضرورة لأن يجمع البطل بين العنصرين الا اذا كان هناك هدف وراء ذلك • والبطل العربى الذى ينصر الدولة الاسلامية والدين الاسلامى أولى أن يكون عربيا صرفا ، وبالمثل فان البطل البيزنطى الذى قضى عمره حاميا لحدود بلاده ، أولى أن يكون بيزنطيا صرفا •

ثالثا : ان العناصر الفاسدة التى تعيث فسادا فى الدولة أشد خطورة من تهديد العدو الخارجى • فهى كالسرطان الذى يتسرب فى جسم الانسان بصورة خفية حتى يقضى عليه • ولولا وجود هذه القوى الفاسدة لما قوى العدو الخارجى ، ولما استطاع أن يكشر عن أنيابه • فهى تمثل اذن أصل كل الشرور ولن يقضى عليها سوى الشعب نفسه •

ولا يعنى هذا أنه من المحتم أن يجتث الشر من جذوره فلا يكون له أثر على الاطلاق ، فالشر عنصر لازم للحياة وهو يعيش فى كل زمان ومكان ، ولكن يقظة الشعب فى وسعها أن تقضى عليه كلما نشطت قواه • ولعل هذا ما أشارت اليه النماذج الأدبية السابقة حينما كانت تظهر القوى الشريرة للبطل بين الحين والآخر ، ولولا يقظته لاستفحلت وانتشرت •

٢ ـ صورة البطل

وطبيعى أن تتشابه صورة البطل فى كل من الأدبين العربى والبيزنطى بعد أن تلاقيا فى الأفكار السياسية والأفكار الانسانية •

فشخصية الأميرة ذات الهمة شديدة الشبه بشخصية ديجنيس• فكلاهما يصور الشخصية المستقلة التى تصبو الى الكمال حتى تبلغه •

فقد انتزعت ذات الهمة نفسها من حصن الوالدين ورعايتهما ، وشاءت أن ترسم مستقبلها بنفسها فرفضت الحياة الزوجية التى تسعى اليها كل امرأة ، لأن الزواج يشتت مطامحها ، ويدفعها الى أن تلبى مطامع الرجل لا مطامع نفسها ، اللهم الا اذا التقت المطامع ، وهو ما لم يحدث فى السيرة • ثم حاربت ابن عمها ظالم الذى يمثل الارادة غير الكاملة ، بل الارادة التى تسعى الى الشر بكل قواها حتى استطاعت أن تتخلص منه كلية • ولما كانت تأبى على ابنها أن يتربى فى هذه البيئة المتطاحنة التى لا يسعى أفرادها الى تحقيق الكل الكامل ، فقد انتزعت ابنها من تلك البيئة لكى يتربى فى حضن الجهاد وعالم الفروسية •:

وهكذا اســـــتقرت ذات الهمة مع شعبها فى منطقة الحدود لترعاها ، وتسهر على تحقيق آمال الشــــعب العربى • ووزعت جهودها بين القضاء على الفســاد الداخلى والقوة المتربصة بالدولة فى الخارج • وكانت مثال القائد الفارس الذى لا يسعى الى خلق الضغينة والبغضاء ، بقدر ما يسعى الى ازالتها • فاذا سعى بعض أفراد جيشها الى الثورة ضد الخليفة ، حالت بينهم وبين ذلك ، لأن مهمتهم يجب أن تتركزحول محاربة القوىالفاسدة الفعلية • والشعب اليقظ المتبصر بأمره لا يحكمه حاكم غير صالح • وهو ان حكم فترة ، فلن تطول مدة حكمه •

ومع ذلك لم ينجح حاكم فى اخضاعها لارادته ، اللهم الا اذا رأت فى تلك المصلحة العامة وردها على رسول المأمون : « ودعنا فى وجوه الكفرة ، لا لك ولا علينا ، فيخرج الآمر من يديك ويدينا»، يدل على مبلغ قوة شخصيتها واستقلالها •

وهى بطلة لا تعرف اليأس لأن قوة أملها فى تحقيق هدفها ، وشدة يقينها من ذلك ، كانا أقوى من كل يأس • فطالمـا حاربت وأسرت وجرحت ، دون أن يثبط ذلك من عزمها •

وبالمثل تخلص دينجيس من سيطرة والديه ومن رعايتهما له ، فلم يعدلهما أثر في حياته بعد أن ترك بلاده برغبته وارادته واستقر في منطقة الحدود . ولم تلعب زوجته دورا في القتال الذى شغل ديجنيس به نفسه وانما كانت مكملة لعالم الجمال والحب الذى يسعى الى أن يعيش فيه ، بل أن يعيش كل فرد فيه .

ولم يكن ديجنيس يسعى لسلطة أو نفوذ ، وانما تركهما وراءه لأصحابهما لكى يكشف لهم عن عيوب الحياة التى ينبغى عليهم أن يشغلوا أنفسهم بها ، وأن يسعوا لمحاربتها ، ان شاءوا أن يعملوا على راحة الشعب كله ، لا على تحقيق أطماعهم الفردية فحسب . وذاع صيت ديجنيس حتى بلغ مسمع الامبراطور بازل ، فشـــاء الأخير أن يبارك جهاده . ولكنه رد على رسول الامبراطور ردا فيه من اللياقة والاعتداد بشخصيته المستقلة الحرة الشيء الكثير لقد قال له : « سيدى اننى لست سوى أدنى عبد لك ، اذا ما قورنت قوتى بقوتك . ولست أدرى ما الذى يعجبك من صفاتى يا سيدى، فأنا لست سوى رجل شعبى لا يجرؤ على الحياة في جوك الملوكى . ومع ذلك ففى وسعى أن أحقق كل شيء بارادة الله . واذا شاء سيدى أن يرانى ، فها أنذا عند نهر الفرات ، على مسافة تستغرق منك بضعة أيام . هنا ترانى اذا رغبت في ذلك . ولا تظن ياسيدى أننى ارفض المجيء اليك ، وانما أخشى أن أقابل رجالك الذين يتعاونون معك ، وجها لوجه ، وان اسمع منهم ما يحملنى على القضاء عليهم . فهذا ما أفعله حينما تصل الى مسمعى كلمة يأباها . »(١)

فلما وصلت الرسالة الى الامبراطور ، رضخ لمطلب ديجنيس ورحل اليه بنفســه ليحييه . فلما أبصره قال له : « أن مظهـرك الخارجي ينطق بأفعالك ، وجمالك الخارجي ينطق بجمالك الداخلى .

---

(١) الملحمة من البيت ٢٠٦٧ ـ ٢٠٧٩ .

وكم أتمنى أن يكون فى بلادنا أربعة من أمثالك . هاك يابنى سلطانى، خذ منه ما تشاء . » (١)

فرد عليه ديجنيس قائلا : « سيدى ان الصواب ألا نأخذ ، وانما الأفضل أن نعطى . واذا كان لى أطلب منك شيئا ، فهو أن تشفق على الفقراء ، وأن توزع عدلك بين الناس ، وأن تعفو ولكن لاالى حد اللين . وان تكون مؤمنا بالله ايمانا صادقا . هذه ياسيدى هى الوسائل التى توصلك الى الحق ، وهى سلاحك ضد اعدائك . فالحكم ياسيدى لا يغتصب بالقوة ، ولا يمكنك أن تحتفظ به بالقوة . » (٢)

والبطل ، وان كان محاربا بطلا ، الا أن هذا لا يصرفه عن الاحساس بالجمال . فقد أشرف كان مكان «على أرض معشبة الفلوات، مليحة النبات ، وهذه الأرض قد شربت من كؤوس الغمام على أصوات القمرى والحمام ، فاخضرت رباها وطاب فلاها . (٣)

فجلس كان مكان فى هذا المكان ، وهو بجواره النهر يستمع الى خريره ، وأخذ يفكر بعد أن طرد من بلاده ــ فيما كان وما سيكون .

وبالمثل كان ديجنيس يستمتع بالجمال كلما تمكن من ذلك: « لقد قالت لى حبيبتى : سيدى هلا لبيت لى رغبة ! اننى أود أن تأخذ نايك وتعزف عليه ، فتبعث الحياة الى نفسى ، وتزيل مخاوفها من الوحوش والمشاغبين ــ وما كدت افعل هذا حتى انطلقت تغنى . فشعرت الجمال فى كل مكان حولى . لقد أخذت موسيقى الناى وغناء حبيبتى يرددان صداهما فى التلال التي حولنا ، حتى بلغا مسمع من كانوا على بعد منا (٤) .

---

(١) الملحمة من البيت ٢١١٢ الى ٢١١٨ .
(٢) الملحمة ٢١٠٠ الى ٢١٠٣ .
(٣) ألف ليلة وليلة جـ ١ ص ٣١٦ « جـ ١ مكتبة الجمهورية » .
(٤) الملحمة من البيت ٢٥٦١ الى ٢٥٧٣ .

واذا كان الحب رفيق الجمال ، فغالبا ما نجد البطل محبا عاشقا. وهكذا كان كان مكان ، وهكذا كان الصحصـــاح وعبد الوهاب والبطال . وهكذا كان ديجنيس . ولكن الحب ، وان كان قد استقر فى قلوبهم ، الا انه لم يكن يلهيهم عن أداء واجبهم .

والبطل مسامح كريم ، لا يستغل قوته فى القضاء على الشرير دفعة واحدة ، وانما يترك له فرصة ليصلح امره . فقد استمع كان مكان ــ بينما كان يجلس وحيدا ــ الى صوت طارق ليل يتغنى بشعره . فسعد بذلك وظنه رفيقـا له فى وحدته . فنادى عليه كان مكان . فاذا بالرجل يرد عليه قائلا : « أيها المنادى السامع لانشادى . من تكون من الفرسان ، وهل أنت من الانس أم من الجان . فعجل على بكلامك ، قبل دنو حمامك فقال كان مكان : لا تفعل يا أهل العرب لان أهلى لايشترونى بفضة ولاذهب . وانا رجل فقير ولا معى قليل ولا كثير . فدع عنك هذه الاخلاق واتخذنى من الرفاق ، واخرج بنا من أرض العراق ــ فلما سمع صباح ذلك غضب وقـــال له : ويلك تراودنى فى الجواب يا أخس الكلاب ، أدر كتافك والا أنزلت عليك العذاب . فتبسم كان مكان وقال : كيف أدير الكتاف ، أما عندك انصاف ، أما تخشى معايرة العربان حيث تأسر غلاما بالذل والهوان وما اختبرته فى حومة الميدان ، وعلمت أهو فارس ام جبان. فضحك صـــباح وقال : يا للعجب انك فى سن الغلام ولـــكنك كبير الكلام ، لأن هذا القول لا يصدر الا عن البطل المصطدام . فقال له كان مكان : الانصاف أنك اذا شئت أخذى أسيرا خادما لك ، فعليك ان ترمى سلاحك وتخفف لباسك وتصارعنى ، وكل من صرع صاحبه بلغ منه مرامه وجعله غلامه . فضحك صباح وقال : ما اظن كثرة كلامك الالدنو حمامك . ثم رمى سلاحه وشمر اذياله ودنا من كان مكان وتجاذبا فوجده البدوى يرجح عليه ، كما يرجح القنطار على الدينار ، ونظر الى ثبات رجليـه فى الأرض فوجدهما كالمئـذنتين المؤسستين أو الجبلين الراسخين . فعرف من نفسه قدر باعه ، وندم

على الدنو من صراعه ، وقال في نفسه ليتنى قاتلته بسلاحي . ثم ان كان مكان قبضه وتمكن منه وهزه ، فاحس صباح أن أمعاءه تقطعت فى بطنه . فصاح أمسك يدك ياغلام . فلم يلتفت كان مكان الى ما أبداه من الكلام بل حمله من الأرض وقصد به النهر . فناداه صباح قائلا : ما تريد أن تفعل بى ؟ فقال : اريد ان ارميك فى هذا النهر ... فصاح صباح ونادى : يافارس البطاح لا تفعل فعل القباح . اطلقنى ... فحطه كان مكان على الأرض فلما راى نفسه خالصا ، ذهب الى ترسه وسيفه واخذهما وصار يشاور نفسه على الهجوم عليه .

فعرف كان مكان ما يشاور عليه نفسه . فقال له قد عرفت ما فى قلبك ، حيث أخذت سيفك وترسك ، فانه قد خطر ببالى أنه ليس لك يدفى الصراع تطول ، ولو كنت على فرس تجول لكنت بسيفك على تصول ، وها أنا أبلغك ما تختار ، حتى لا يبقى فى قلبك انكار . » (١)

ثم هزمه كان مكان للمرة الثانية وأوثقه كتافا وتركه . ولكن صباح رجع وتوسل اليه أن يطلق سراحه . ففعل هذا كان مكان .

بالمثل فقد صارع ديجنيس فيليبابوس ورجاله حينما هجموا عليه ، وردهم عنه دون أن يصيبهم بأذى بالغ . فاذا بهم يتراجعون وينظرون اليه « كما ينظر قطيع من الخراف الى اسد من بعيد . ولكنهم لموا شملهم وهجموا عليه كالكلاب . وهنا احتد ديجنيس فى ضربهم حتى ألقى أحد رؤسائهم على الأرض طريحا ، ثم هتف به قائلا : كينناموس ، مالك ترتعد هكذا ! لاتخشى منى ، فأنا لن أضربك وأنت طريحا على الأرض ؛ فليس من عادتى أن أضرب الطرحاء ولكن اذا شئت أن تواجهنى مواجهة الشجعان ، فقم واحمل سلاحك . » عندئذ هتف به فيليبابوس قائلا : « أستحلفك بالله

---

١ ـ الف ليلة وليلة ص ٣١٧

الذى خلق السماوات والأرض ، والذى منحك كل هذه الفضائل ، أن تترك الحرب جانبا وان تتصالح معنا وسنكون خداما لك » .
عندئذ أجابه ديجنيس بلهجة ساخرة : « هل أفقت لنفسك يا فيليبابوس ، حتى أنك تحكى لنا عن أحلامك ؟ ولكن حيث أنك قد ختمت حياتك بهذه التوبة ، وهذا التذلل ، فقم واصطحب أصدقائك وارحل الى حيث تريد ، فانك لن تغيب عن عينى حيثما كنت »(١) .

على أن حكايات قطاع الطرق ليست من وحى خيال القصاص ، وانما هى حقيقة واقعة كثيرا ما حكى لنا عنها أسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار . مثال ذلك ما يحكىعنه ويقول : «نزل علينا صاحب أنطاكية لعنه الله بفرسه ورجاله وخيامه فى بعض السنين . فركبنا ولقيناهم ظنا منا أنهم يقاتلونا . فجاءوا ونزلوا منزلا كانوا ينزلونه واستقروا فى خيامهم . فرجعنا نحن آخر النهار ثم ركبنا ونحن نظن أنهم يقاتلونا ، فما برحوا خيامهم . وكان لابنعمى ليثالدولةيحيى غلة قد نجزت ،وهى بالقرب من الافرنج . فجمع الدواب يريد أن يمضى الى الغله يحملها . فسرنا معه فى عشرين فارسا معدين ، ووقفنا بينه وبين الافرنج الى أن حمل الغلة ومضى . فعدلت أنا ورجل من مولدينا يقال له حسام الدولة مسافر رحمه الله ، الى كرم رأينا فيه شخوصا وهم على شط النهر . فلما وصلنا الشخوص التى رأيناها، والشمس فى مغيبها ، اذا بشيخ عليه معرقة امرأة ومعه آخر . فقال له حسام الدولة ، وكان رحمه الله رجلا جيدا كثير المزاح : ياشيخ أى شيء تعمل هاهنا ؟ قال : أنتظر الظلام وأسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار . قال : ياشيخ .. بأسنانكتقطعحبالخيلهم؟ قال لا بهذه السكين . وجذب سكينا من وسطه . مشدودة بخيط مثل شعلة النار ، وهو بغير سراويل.فتركناه وانصرفنا . وأصبحت

---

(١) الملحمة : من البيت ٢٧٤٤ الى ٢٧٥٠ .

من بكرة انتظر ما يكون من الافرنج واذا بالشيخ جالس فى طريقى على حجر والدم ينزف من ساقه ، وقدمه قد جمد . قلت تهنئك السلامة ، أى شىء فعلت ؟ قال : أخذت منهم حصانا وترسا ورمحا ، ولحقنى راجل وأنا خارج من عسكرهم طعننى أنفذ القنطارية فى فخذى . وسبق بالحصان والترس والرمح وهو مستقل بالطعنة التى فيه كأنها فى سواه . وهذا الرجل يقال له الزمر وكان من شياطين اللصوص »(١) .

ومن خصائص البطل كذلك مقدرته على قتل الأسود . ففى سيرة الأميرة ذات الهمة هجم عبد العزيز العلوى على الأسد وقد تحير مما شاهد . وزعق عليه الأسد زعقة عظيمة وضرب الأرض بيديه وأنشب فيها مخلبيه . ثم وثب على عبد العزيز ، ووثب عبد العزيز عليه وضربه . فمع حدة السيف وقوة ساعد عبدالعزيز وحدة وثبة الأسد ، وقع السيف بين عينيه ، فخرج من بين فخذيه فوقع الأسد نصفين . فكبر المعتصم وكبر المسلمون » (٢) .

وبالمثل كانت لديجنيس مغامرات مع الأسود . فقد كان قادرا منذ صغره على الفتك بها فى سرعة مذهلة » (٣) .

وليس تصوير مصارعة البطل للأسود من قبيل التصورات الفولكلورية . اذ كثيرا ماتحكى الحكايات الخرافية عن قتل البطل للحيوان القوى وأكله من لحمه أو شربه من دمه حتى يكتسب قوته الجسدية . ولكن البطل هنا يكتفى بقتل الأسد . وهو صدى آخر لما كان يحدث فى الواقع . فالمنطقة التى صور فيها صراع الأبطال ، كانت ، كما يحكى أسامة بن منقذ مليئة بالوحوش ، وبالأسود بصفة خاصة . ومن بين الحكايات الطريفة التى يحكيها بهذا الصدد ، انه خرج مع قومه . فاذا بسبع يعترض طريقهم .

---

١ ـ الاعتبار : ص ٤٣

٢ ـ الملحمة من :٢١٣ الى ٢١٥٠

٣ ـ السيرة : جـ ٥١ ص ٤٤

« فحمل عليه رجل من الجند كردى يقال له زهر الدولة بختيار القربصى ، وقد سمى بذلك للطف خلقته . وكان رحمه الله من فرسان المسلمين . فاستقبله السبع فخاص به الحصان فرماه ، وجاءه السبع وهو ملقى . فرفع رجله فتلقمها السبع . وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم . فقلنا له : يا زهر الدولة لم رفعت رجلك الى فم السبع ؟ قال جسمى كما ترونه ضعيف نحيل ، وعلى ثوب غلالة ، وما فى اكسى من رجلى ، فيها الرانات والخف والساق . فقلت أشغله بها عن أضلعى أو يدى او راسى الى ان يفرج الله تعالى » .

ويعلق اسامة على هذا الحدث فيقول : « فهذا حضره العقل فى موضع تزول فيه العقول »(١) . ولعلنا ندرك من ذلك كيف أن نماذج البطولة فى الحكايات الشعبية ، لم تكن خيالا صرفا ، وانما ارتكزت الى حد كبير على الواقع .

والبطل فوق كل ذلك كان يمتلك صفات انسانية ، تتمثل فى يقظة الضمير ، والوفاء والمشاركة الوجدانية .

« فقد اتفق أن خرج «كان مكان» الى الصيد والقنص ، وخرج معه صباح ، وهو قاطع الطريق الذى سبق أن أشرنا اليه ، واستطاع كان مكان أن يحيله الى انسان صالح بحيث أصبح لا يفارقه ليلا أو نهارا . فاصطادا عشر غزالات فيهن غزالة كحلاء العيون ، صارت تتلفت يمينا وشمالا . فأطلقها . فقال له صباح : لأى شىء أطلقت هذه الغزالة ؟ فضحك «كان مكان» وأطلق الباقى وقال : ان من المرءوة اطلاق الغزلان التى لها أولاد . وما تتلفت هذه الغزالة الا لأن لها أولادا ، فأطلقتها وأطلقت الباقى فى كرامتها » (٢) .

(١) الاعتبار ص ٨٦ .

(٢) ألف ليلة وليلة ج٢ ص ٧ .

وقد سبق أن أشرنا أن الصحصاح — فى أثناء القيام بمغامراته من أجل الحصول على مهر لابنة عمه ليلى ، تقابل مع غزالة انقلبت فى صورة انسية خلصته من فتك الأسد به فلما سألها الصحصاح ما اذا كانت انسية أم جنية ، وما اذا كانت ذات خدر أم ذات بعل ، أجابته الغزالة المسحورة وقالت له : « أنت طماع يا صحصاح .. وسبب طمعك أنك لما ان طاردت الغزالة واصطدتها ، ورأيت الوحيدية وهويتها ونسيت بنت عمك ليلى . وفى هذه النوبة قد طردت خلف الغزالة الأخرى وسلمت من الأسد سلامة . ولولا أن من الله عليك بى لكانت حلت بك الندامة وما كان لك كلام الى يوم القيامة . وبعد هذا تسألنى أنا ذات بعل أو ذات خدر ، وتريد ان تطمع روحك فى زواجى ، فليت شعرى أى شىء تدل به حتى تخطب البنات والنساء) (٢) .

وقد سبق أن فسرنا ظهور الغزالة للصحصاح فى قلب الفيافى من الناحية الفولكلورية ، فقلنا انه من قبيل الرؤى التى تظهر للرجال والنساء اثر كبت جنسى نتيجة اضطرارهم للعمل مدة طويلة فى مكان يقتصر العمل فيه على الرجال وحدهم أو على النساء وحدهن . على اننا نعود هنا ونضيف الى ذلك ان الغزالة المرأة من الممكن أن تكون تجسيدا لمحبوبته التى يساوره خيالها كلما راودته نفسه على خيانتها . أى أنها بتعبير آخر اشارة الى ضمير الصحصاح اليقظ .

وقد حدثت لديجنيس حادثتان تمثلت فيهما يقظة ضميره . الأولى وقد أشرنا اليها ، وهى حادثة لقائه مع المرأة التى غدر بها الرجل وتركها وحيدة فى قلب الأحراش . وقد ارتكب ديجنيس معها اثما ، ولكنه عاد فكفر عن هذا الاثم بأن أرجع اليها الرجل وأرغمه على الزواج الشرعى منها ، ثم رجع بعد ذلك الى زوجته ثانيا .

٢ — سيرة الاميرة ذات الهمة

والحادثة الأخرى عندما التقى بمكسيمو البطـلة التى جاءت لمحاربته بايعاز من فيليبابوس • وبعد أن هزمها ديجنيس ، خلعت عنها رداء التنكر لتوقعه فى حبالها . فاذا بها امراة رائعة الجمال . وكاد ديجنيس أن يقع فى حبالها ، لولا أنه امتطى صهوة جواده وولى مسرعا .

هذه هى الملامح الرئيسية لشخصية البطـل الفـارس فى الحكايات الشعبية العربية والبيزنطية . وهى مجتمعة ؛ تصور لنا شخصية تقترب كثيرا من الواقع وفقا لمذكرات أسامة بن منقذ . ولا غرو فقد كان فارس العصور الوسطى أقرب ما يكون الى الكمال وليس أدل على ذلك من أن يجعل الحاكم الافرنجى منهم هيئـة المحكمة التى حكمت فى شكوى أسامة بن منقذ ضد الافرنج . وقد رأينا كيف أن ميلهم الى الحق دفعهم لأن ينطقوا بحكم فى صالح العرب ، لا فى صالح الافرنج . ولم يستطع الملك الافرنجى أن يرد حكمهم أو يعترض عليه ، لأن الفارس شخصية تقدرها الدولة ــ كما يقول أسامة بن منقذ ــ كل التقدير .

الموضوعات العامة

اذا كان الأدب الشعبى العربى والبيزنطى الذى أسلفنا ذكره اقد نشأ فى ظل العـلاقة الحـربية بين الدولتين ، فنحن نتوقع تشابههما فى بعض الموضـوعات غير تلك التى ذكرناها ، وهى الموضوعات التى تتصل اتصالا مباشرا بموضوع القتال .

وتتفق ملحمة ديجنيس مع حكاية عمر النعمان فى طريقة تناول موضوع القتال • فبينما نسمع فى سـيرة الأميرة ذات الهمة بين الحـين والآخر صوت المعارك الحربية التى كانت تدور بين العـرب والروم ، اذ بنا لا نكاد نسمع لها صوتا فى كل من ملحمة ديجنيس

وحكاية عمر النعمان . ذلك أن كليهما تشيران الى موضوع القتال من بعيد ، ولا تعيشان فى قلب المعارك الحربية . وما يشير حقا الى جو القتال فى كل منهما ، وتشاركهما فى ذلك سيرة الأميرة ذات الهمة ، هو المبارزات الفردية . وهنا يتجسد العداء بين البطل والقوة المناوئة له ، فاذا بالسيف يهوى وينفذ ويصيب ، واذا بالخيل تتعثر وتسقط طريحة على الأرض .

وتستخدم المبارزات الفردية بوصفها وسيلة لحسم الموقف بين الطرفين المتعاديين ، دون أن يصاب الجمع كله بضرر . ولذلك فان الجو سرعان ما ينجلى بعد المبارزة فى كل من ملحمة ديجنيس وحكاية عمر النعمان ، فى حين أن المبارزة الفردية سرعان ما تنقلب الى معركة كبيرة فى سيرة الأميرة ذات الهمة ، فنتيجة المبارزة لا ترضى جماعة البطل المنهزم ، بل أنهما على العكس تضرم نار العداوة فى قلوبهم ، فاذا بهم يحملون جميعا على الطرف الآخر ، وبذلك تبدأ المعركة من جديد .

ومن أبرز مظاهر العداء بين الطرفين فى انتاجهما الشعبى ، تعصب كل طائفة لدينها . ولا يقتصر هذا التعصب على حد ابراز كل طرف لدينه بوصفه الدين الأسمى فحسب ، وانما يتعدى ذلك الى شكل الجدل الدينى الذى يحاول فيه كل طرف اظهار محاسن دينه ومساوىء الدين الآخر .

فقد أخذ البطال يجادل أحد الرهبان فى موضوع الدين فقال له : « لو كان أيضا صح ما تقول النصارى ان الله أبوه (أى أبو المسيح) فلم ترك الأعداء يصلبوه ، وقد أضعتم قدر المسيح بقولكم أن اليهود صلبوه » ثم جعل ينشد ويقول :

اسمع مقالى يا من فيه معرفة
فالحر من قد وعى لفظى ومن سمعه

يا راهب الـــدير انصـــفنى وكن فطنـــــا
ودع كـــلام النصـــارى فهى مبتـدعة

فرد عليه الراهب وقال : « يا مسلم هذا الذى قلته بعضه كذب وبعضه صدق صحيح ، وكان الواجب أن ينزه المسيح عن الصليب ولا يقال انه رب . ولكن هذا شىء قد وجدنا عليه آباءنا والأجداد . ونريد أن نرجع الى أدياننا ونفصل بين الأديان . ولكن يا مسلم أنا أخبرك : هل لكم أنتم مثل هذه الكنائس وهذه الصلبان والرهبان والقسوس والشمامسة والمطران ، وتلاوة الانجيـــل والألحان ، وهذه الصور اللواتى فى الحيطان ، والمذبح والقربان والمترهبات من النسوان ؟ . فلما سمع البطال هذا المقال تبسم وقال : يا راهب نحن لنا القبلة والقرآن والنور والايمان والعفو والغفران ، وسورة الواقعة والرحمن والبقرة وآل عمران والرعد وسبحان ، والتوحيد للملك الديان . ونحن فى النهار أبطال الميدان وفى الليل رهبان ، ولكن ما فينا قس ولا مطران ولا زور ولا بهتان ، ولا نسجد لصورة فى الحيطان ، ولا ننسب نبينا (ونقول) انه ولد الرحمن » . (١)

ولعل هذا يذكرنا بعتـــاب والدة موصور لابنها حينمـا أعلن نصرانيته من أجل الفتاة التى اختطفها وأحبها ، ورحل من أجلها الى بلاد الروم لكى يتزوج بها . لقد أخذت تذكره بمزايا الدين الاسلامى وقالت له : « أسمعت يا ولدى فى رومانيا بمثل المعجزات التى حدثت عند قبر الرسول ؟ أتذكر حينما ذهبت معى للصلاة ذات مرة عند قبر النبى ، فاذا بالضياء يشع من عل وسط الظلام ؟ أرأيت هناك ما سمعنا عنه من أن مختلف الحيوان من أسود وذئاب وخراف ترعى بعضها بجانب بعض حول الرسول حينما كان يؤدى

١ ـ السيرة جـ ٥٧ ص ٣٨ ، ٣٩

صلاته دون أن يحاول أحدها ايذاء الآخر ، حتى اذا انتهى النبى من صلاته انحنت له خشوعا ؟ ارأيت معجزات أكبر من ذلك لدى الروم ؟ »(١) .

ثم تذكر الأم ابنها موصورا بإيمان أبيه وتمسكه بدينه ، وغيرته عليه فتقول له : « كيف نسيت يا بنى العزيز أمك ، وتنكرت لأهلك ودينك وبلدك حتى أصبحت سيرتك تلوكها الألسن في سوريا ؟ أنسيت ما فعله أبوك ، كم قتل من جنـــود الرومان ، وكم حاز عنده من عبيد ، وكم سبى من أميرات حسـناوات ، وملأ السجون من الأبطال ؟ ولكنه لم يصنع كما صنعت ، وحينما أحاط به جيش الرومان أقسم له القواد بأغلظ الايمان أن الامبراطور سيجعل منه بطريقا وفارسا عظيما اذا هو ألقى سلاحه . ولكنه أبى وصمم أن يكون النبى رائده ، واحتقر كل مجد ولم يأبه بالثروة . عندئذ قطعوه اربا اربا ثم أخذوا سيفه »(٢) .

فرد موصور على أمه وقد احتدت عصبيته للدين المسيحى وقال : « لقد كنت يا أمى أصدق هذه الحكايات قبل أن أهتدى الى الدين الحق ، أما الآن فهى ليست سوى خرافات تعرض كل من يؤمن بها للعقـاب الأبدى . أما من يؤمن بالله الأب الذى خلق السماوات والأرض ، وبالسيد المسيح ابن الله وكلمته ، الذى هبط الى الأرض من أجل الانسان ، وصلب من أجل خلاصنا ، ثم دفن فى قبر تقدسينه أنت أيضا ، فانه ينال الجزاء الأسمى . وأما من ينكر ذلك فمصيره جهنم يعذب فيها »(٣) .

ومازال موصور يغرى أمه بتلك الأقاويل ، حتى قررت أن ترحل معه الى بلاد الروم وتعلن ولاءها للدين المسيحى .

(١) ـ الأبيات من ٧٢٠ الى ٧٣٢
(٢) ـ الابيات من ٣٩٧ الى ٤٠٩
(٣) ـ الملحمة ٧٣٢ الى ٧٣٤

اما موقف والد موصور الباسل ، فتمثله ابنة حجاف فى سيرة الأميرة ذات الهمة . فقد أسرت ابنة حجاف لدى الروم ، وظلوا يعذبونها بشتى صنوف العذاب حتى تترك دينها ، ولكنها أبت فى اصرار وها هى ذى تشتكى ما كانت تقاسيه من عذاب وتقول :

أين السرور وأين عيشى الصافى	أو من يخلص ابنـة الحجاف
فى الجانب الأقصى تقاد بشعرها	عـريانة تمشى كمشى الحـاف
ماط الخمار وقد تجمع حولها	من كل ذى كفـر بقلب جافى
قد أوعدونى أنهم فى عيدهم	يسعون فى قتلى وفى اتلافى
وينصرونى أو أقطـع عامدا	بسيوفهم قطعا بغير خلاف (١)

وها هو ذات عبد الوهاب يعاتب ابنه بحرون الذى رفض بادىء الأمر أن يترك أمه الرومية التى ارتدت عن الاسلام ويقول له : « ولكن الله تعالى لطف بى ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أبرانى وأخبـرنى بتنصر أمك ، وأنها صـارت بملك الروم مفتونة . فأين نخوتك العربية وغيرتك السلطانية القوية . وأنا أرجو من الله تعـالى يا بنى ألا تلقاه وأنت كافر ، فتكون فى الآخـرة خاسر »(٢) .

هذا الجدل الشعبى حول أمور الدين الاسـلامى والمسيحى يذكرنا بجدل من نوع آخر نبع من طبقة المثقفين فى العصـور المتأخرة ، حينما بلغ الاحتكاك الحربى بين العرب والروم أقصاه ، ومن ذلك ما كتبه الجاحظ تحت عنوان « الرد على النصارى »(٣) .

---

(١) السيرة جـ ٤٤ ص ٢٧ .

(٢) السيرة : جـ ٥٧ ص ٣٤ .

(٣) الجاحظ : رسائله : ص ١٤٠ (نشرها يوشع فنكل القاهرة ١٣٤٤) .

وقد حاول الجاحظ فى هذه الرسالة أن يرد عليهم كل مزاعمهم بخاصة تلك التى يستندون فيها على آيات من القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : « اذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين من دون الله » . وقد رد رهبان الروم على تلك الآية بقولهم : « انهم لم يدينوا قط بأن مريم اله فى سرهم ، ولا ادعوا ذلك قط فى علانيتهم » . وهنا ينبرى لهم الجاحظ ويقول : « ولو ذهبت بكل جهدك وجمعت بكل عقلك ان تفهم قولهم فى المسيح لقال أحدهم قولا . ثم أن خلوت بأخيه وامه وابيه وهو نسطورى مثله فسألته عن قولهم فى المسيح ، لأتاك بخلاف قول أخيه وضده وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية . ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرانية كما نعرف جميع الأديان » . (١)

وقد أورد تاج الدين السبكى فى كتابه « طبقات الشافعية » قصيدة لنقفور فوكاس امبراطور الروم قيل انه أرسلها الى المسلمين فى القرن الرابع الهجرى فيها من السخرية بدينهم وبحروبهم الشىء الكثير . ثم أورد بعدها رد القفال الشاشى على هذه القصيدة ، ثم ردا لابن حزم الظاهرى (٢) . وربما استبعدنا أن يكتب نقفور ملك الروم قصيدة باللغة العربية ، ولكنه ربما فعل هذا عن طريق أحد رجال الروم الذين يتقنون العربية . وليس من اختصاصنا الآن أن نحلل هذه القصائد لأن هذا يبعدنا عن موضوعنا الأصلى .

والحق أن موضوع الجدل الدينى يحق أن يفرد له بحث خاص يجمع بين أشتاب ما قيل فى هذا الموضوع فهو يطلعنا ولا شك على أثر من آثار التبادل الفكرى بين العرب والروم .

وينتمى الى الموضوع الدينى ، ذلك النقد الذى كان يوجهه أبطال العرب لسكان الأديرة ، كما سبق أن أشرنا الى هذا

---

١ – المرجع السابق . نفس الصحة .

٢ – طبقات الشافعية جـ ٢ ، ص ١٧٦

الموضوع . فيحكى فى سيرة الأميرة ذات الهمة « أن الكنيسة الصغرى فيها رهبان وراهبات من كل فقير وفقيرة ، وهم صعاليك لا يقدرون على شيء ولا يزورهم الا الصعاليك والفقراء . أما الكنيسة الكبرى فرهبانها يرفلون فى النعيم والأكل والشرب ، ويحمل اليهم سائر الأشياء من الملك وغيره من أرباب النعيم ، وعندهم راهبات بوجوه كأنها الأقمار ومن بنات الملوك والبطارقة الكبار »(١) .

ولا يحق أن ندعى أن موقف المسلمين من الأديرة على هذا النحو ، كان من قبيل التعصب الدينى . ففى كتاب « بيزانطيوم » للكاتبين الكبيرين « بينز » و « موس » فصل كامل عن نظام الرهبنة فى الأديرة وفيه يتعرض كاتب المقال لأهم عيوب هذا النظام . ومن هذه العيوب أن « الأديرة كانت ملجأ للذين اضطربت حياتهم ، ووقعوا فريسة لحوادث الدهر . كما أنها كانت ملجأ لبعض أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين دأبوا على أن يختموا حياتهم فى الدير » (٢) . ونحن نتوقع بناء على ذلك أن بعض الأديرة كانت فقيرة ، فى حين أن بعضها الآخر كان يرفل فى النعيم .

ومما يذكره كاتب المقال فى هذا المجال كذلك قوله : «أننا قد نكون مبالغين فى ثقتنا فى الطبيعة الانسانية اذا تصورنا أن الأديرة قد ناضلت عبر الزمن دون أن تتعرض لنواحى الضعف والانحلال . فلقد جذبت ساحة الأديرة الجهلة وقساة القلوب الذين كان الدافع الدينى عندهم أضعف بكثير من الدوافع المادية الأخرى»(٣) .

---

(١) السيرة جـ ٥٢ ص ٢٠

(٢) Baynes and Moss : Byzantium, p. 145, 155, (Oxford 1953).

(٣) ـ المرجع السابق نفس الصفحة .

ومما يدل على أن نقد نظام الرهبنة فى الأدب الشعبى العربى لم يكن من قبيل التعصب الدينى وحده ، أن البطل العربى كان ينفعل حقا برؤية الدير ورؤية المصليين به وقد قطعوا الليل عبادة وها هو ذا جحاف يناجى أهل دير أبصره من بعيد ويقول :

أيا راهبــــا فى الدير قــد زاد بلبـــالى
بمصـــباح ضـــوء لاح فى ديرك العـــالى
أيا راهبـــــا فى الـــدير زدت تفلقى
وفاضـــت دموع العـــين منى باهمـــالى
أيا را راهبـــا فى الدير أســـألك بالذى
تنحنـــح فى الأحشـــاء وانطق فى الحـــال
بحـــرقة حنـــا والمســـيح ابن مـــريم
ومن ســـاح ســـوحا بين كهف واجبـــالى
برهبـــان دير الانقطـــاع وقســـهم
اذا بات طـــول الليـــل لانجيلـــه تالى (١)

فاذا انتقلنا الى موضوع آخر من موضوعات المقارنة نجده متمثلا فى موضوع المرأة المحاربة ولا يتمثل وجه الشبه فى أن كلا من الأدبين يصور المرأة المحاربة فحسب ، وانما تمتد وجوه التشابه الى ملامح شخصية المرأة المحاربة . وفى هذا المجال نقارن بطبيعة الحال بين ذات الهمة ومكسيمو ثم بين ابريزة ومكسيمو .

فذات الهمة لم ترغب فى معاشرة الأزواج . ولم يكن يرجع ذلك الى عيب شكلى أو خلقى فيها ، وانما هى الرغبة فى التفرغ للقتال من أجل المبدأ . تقول السيرة : « وكانت الأميرة من الجمال بموضع عظيم ، وكلما زادت صلاتها ، زاد جمالها ، وهذا تصديق لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى بالليل حسن

١ ـ السيرة : جـ ٥٧ ص ٥٣

وجهه بالنهار • وكانت تامة الطول ، جافية الخلقة ، فما أن تلبس الثياب ، حتى تزداد محاسنها وجمالها »(١) •

وبالمثل كانت مكسيمو جافية الخلقة فى الظاهر ، ولكنها حينما خلعت عنها النقاب كانت رائعة الجمال . كما أنها لم ترغب فى الزواج من أى رجل ، لأنها كانت أقوى من اى رجل اختبرت قوته ، الا ديجنيس ، فقد بارزها وغلبها . ولذلك فقد وقعت أسيرة حبه . واعترفت له بأنها لم يسبق لها الزواج ، ولذلك فهى ترحب فى أن تكون زوجة له .

وفى هذا تقترب شخصية مكسيمو من شخصية أبريزة . فبينما نجد أن ذات الهمة لم تستجب لرجل قط ، وانما ظلت متمسكة بأسلوبها فى الحياة وبمبدئها الى أن أدت رسالتها وماتت ، نجد أن مكسيمو وابريزة استجابتا على التو للبطل الذى استطاع أن يهزمهما . وقد رضخ شراكان لجمال المرأة الفارسة ، وكاد ديجنيس أن يفعل هذا ، لولا أنه أسرع فى الهروب قبل أن يسيطر عليه اغراء المرأة كلية ، فيخون زوجته معها . أما شراكان فقد لبى بطبيعة الحال دعوة الاغراء لأنه لم يكن قد تزوج بعد .

ويجرنا موضوع المرأة المحاربة الى موضوع المرأة الضعيفة التى تغلب على أمرها فتسبى وتؤسر ، وهو موضوع طريف يتخذه كل من الجانبين ـ شأنه شأن الموضوع الدينى ـ مجالا للتعبير عن الموقف العدائى المتبادل بين الطرفين . وقد سبق أن قدمنا لذلك أمثلة كثيرة فى الحكايات الشعبية العربية . فقد سببت نورى ابنة ملك الروم وتنازع كل من عبد الوهاب والبطال ، بل والخليفة هارون الرشيد حبها . ثم تزوجها البطال فى النهاية . وبالمثل تزوج عبد الوهاب ميمونة الرومية التى كانت قد وقعت فى الأسر وبالمثل تشير حادثة أبريزة مع الملك عمر النعمان الى هذا الموضوع .

(١) ـ السيرة جـ ٤٥ ص ٤٤

فاذا حكى الأدب الشعبى العربى عن سبى الروم لنساء العرب، فانها لا تعرضهن لمثل هذا الخزى الذى يتعرض له نساء الروم . وانما تسهب فى وصف تجلدهن وايمانهن القوى حتى يتخاصن من الأسر . ومثال ذلك ابنة الحجاف وكذلك تلك المرأة التى سبيت ونادت « وامعتصماه » ، فأسرع اليها المعتصم وخلصها من الأسر .

وطبيعى أن تصور الحكايات والأغنيات الشعبية البيزنطية عكس ذلك . فعلى الرغم من أن موصور قد خطف ابنة الدوكاس ، الا أنه عاد وتزوجها زواجا كريما . بل انه ترك دينه ووطنه من أجلها . وأما الفتاة التى قابلها ديجنيس وهى تبكى وتنعى حظها ، فمن الواضح أنها فتاة عربية . فالملحمة تحكى أن أباها كان أميرا فى ميافارقين ، وهو اللقب الذى تستخدمه الملحمة حينما تشير الى عربى من أسرة نبيلة . وقد امتهنت كرامة الفتاة على يد ذلك الرومى ، بل وعلى يد ديجنيس وان كان الأخير قد أرجع اليها الرجل الرومى — على سبيل التكفير عن ذنبه — وأرغمه على الزواج منها .

وبالمثل تغنت أغنية خرزانيس بحب البطل للفتاة التى يبدو أنها عربية ثم عاد وخدعها وتنكر لها ثم تركها وشأنها .

أما الموضوعات الفولكلورية المشتركة بين الأدبين فتتمثل فى الاعتقاد بأن الحلم ينبىء بحادثة تتحقق مستقبلا ، ثم الاعتقاد فى السحر . وقد سبق أن تحدثنا عن هذين الموضوعين باسهاب فى سيرة الأميرة ذات الهمة .

أما فى الأدب الشعبى البيزنطى ، فالحلم يلعب بالمثل دورا كبيرا فى حوادثها . فقد أطلعت فتاة خرزانيس على ما حدث لها عندما أعطاها خرزانيس البنج ودخل بها . وتلعب الرموز بطبيعة الحال

دورا كبيرا فى مطابقة الحلم للواقع ، فقد رات الفتاة انها وسط الحشائش تحمل ورودا حمراء واذا بسيف يهوى من السماء ويستقر بجانبها . وفسرت لها الرؤيا بأن الزهور الحمراء ترمز لبكارتها ، كما يرمز السيف الى الرجل وهو خرزانيس ، وبناء على ذلك ادركت الفتاة الخدعة التى تمت بها .

وبالمثل فقد راى قسطنطين أصغر اخوة الفتاة التى اختطفها موصور رؤيا قبل حادث اختطاف أخته . فلما استيقظ حكى الرؤيا على أخوته وقال : « رأيت اننى جالس على سطح منزل أرقب النسور والبيادر . واذا بنسر مهول يهبط ويخطف عصفورا رقيقا . فلما حاولت أن أنقذ العصفور اجهدت نفسى واستيقظت » . (١)

وقد تتشابه الأحلام فى الأدبين الى حد كبير . فهذه الرؤيا الأخيرة رأتها ذات الهمة قبل حادثة محاولة عاصف ، قاطع الطريق ، قتل ابنها . « فانها رأت فى المنام أن عقابا قد انقض على ولدها ، وانقلب فصار أفعى سوداء وقد لسعت الأميرة وماتت » . (٢)

أما فيما يختص بالايمان والسحر ، فهو يتضح فى ملحمة ديجنيس وضوحه فى سيرة الأميرة ذات الهمة . ففى سيرة الأميرة ذات الهمة ، انقلبت الغزالة الى شكل انسى واخذت تحادث الصحصاح . وبالمثل فقد ظهر لامرأة ديجنيس ثعبان مهول سرعان ما انقلب شابا أخذ يراودها عن نفسها . وقد أخذ ديجنيس يحاور الثعبان الذى كان يبدو شابا تارة وثعبانا تارة أخرى ، حتى فتك به .

والبطل تتملكه قوة سحرية تجعله يفتك بالأبطال فى سرعة مذهلة . وقد أدرك هذا فيليبابوس وأنصاره حينما فتك بهم

---

١ ــ انظر ص من الكتاب

٢ ــ السيرة جـ ٦٠ ص ٨

ديجنيس وهو مترجل وخلو من السـلاح . ولذلك فقد قال فيليببابوس : « انه لشيء عجيب حقا ، أن يهزمنا رجل مترجل منزوع السلاح . نحن الذين نحمل صنوف الأسلحة وطالما استولينا على المدن وقطعنا الطرق على السائرين فيها . لقد ملأنا خوفا ؛ وجعلنا نشعر بالجبن والخزى . لابد أنه ساحر وربما كان شيطان هذا المكان »(١) .

وقد سبق أن أشرنا الى تعليق مافروجارداتو على هـذا الحادث بقوله : ان هذا التصور لم يكن سوى صدى للايمان الشعبى بقوة السحر ، وقد أيدنا هذا بالرواية الشعبية التى ذكرها بيورى والتى تحكى عن استعانة الامبراطور تيوفيل بالسحر للقضاء على المشاغبين الثلاثة »(٢) .

وأخيرا نود أن نشير بصدد مقارنة الموضوعات الفولكلورية الى ما ترسب فى عقول كل من الشعبين من روايات شعبية على نطاق واسع ، وتركت أثرها فى أدبهما الشعبى . ونعنى بذلك تلك الروايات الشعبية التى شاعت حول الاسكندر الأكبر .

وفى ملحمة ديجنيس اشارتان الى الاسكندر الأكبر . الأول ذكرت بمناسبة ظهور مكسيمو فى ميدان القتال لتصارع ديجنيس . فقد ذكرت الملحمة فى نصها الشعرى أنها من نساء الأمازون الذين أحضرهن الاسكندر الأكبر معه من الهند .

وأما الاشارة الثانية فهى تعليق ناشر الملحمة على النص الذى يشير الى أن ديجنيس مرض اثر استحمامه ذات مرة ثم مات بعد ذلك(٣) . فهو يقول ان حكاية الاسكندرية الأكبر الشعبية تحكى أنه مات بمثل هذه الطريقة .

---

(١) الملحمة : انظر الأبيات من ٢٧٧٥ الى ٢٧٨١ .

(٢) انظر ملخص الملحمة

(٣) الملحمة : ص ٢٣٣ بالهامش .

وفى سيرة الأمير ذات الهمة يقول البطال للخليفة : « يا مولاى رايت فى سيرة الاسكندر أنه نزل على بعض القلاع ، وكانت القلعة كثيرة الحرس ، ليس لأحد عليها طريق ، فأحضر الاسكندر بطارقته وقال لهم : شيروا على بما أصنع فى فتح هذه القلعة ، فقـال الحكيم بليناس : يا ملك الدنيا جهز الساعة كل ما تقدر عليه من الجوز حتى أبين لك . فنادى الاسكندر كل من كان عنده جوز قليل أو كثير يأتي به الى الملك . فلم تكن غير ساعة حتى أقبـل الجوز مخابى واعوال ، وبه يا امير المؤمنين قـدر على فتح تلك القلعة »(١) .

***

وبعد .. فهذه هى وجوه المقارنة بين الأدب الشعبى البيزنطى والعربى كما تمثلناها . واذا كان لنا أن نقارن من حيث الشكل بين ملحمة ديجنيس من ناحية وحكاية عمر النعمان وسير الأميرة ذات الهمة من ناحية أخرى ، فاننا نجد هذه النماذج تخضع جميعها لشكل الأدب البطولى بصفة عامة . فالأدب الشعبى البطولى سواء كان ملحمة أم سيرة أم حكاية شعبية بطولية ، يمهد لظهور البطل ، ثم يحكى عن ميلاده وبلوغه ووفاته . ويرى لورد راجلان أن الأدب البطولى على هذا النحو يعد امتدادا للطقوس التى كانت تحتفل بالبطل الاله ثم بالبطل المؤله ثم بالبطل الانسان . وحيث أن الطقوس كانت تحتفل بالميلاد وسن البلوغ والوفاة ، فان الحكاية الشعبية البطولية تلتزم هذا . وكما أن الطقوس تهمل فترة ما بين الميلاد والبلوغ ، لأنها فترة تخلو من الحوادث المهمة ، فكذلك تهمـل الحكاية الشعبية البطولية هذه الفترة ، وتقفز من الميـلاد الى البلوغ(٢) .

---

(١) السيرة جـ ٢٣ ص ٦٢ .

(٢) Lord Raglan : The Hero, p. 193. (London 1949).

أما من حيث تناول الموضوع بصفة عامة فهنا تظهر وجوه الاختلاف التى ينبغى أن تكون قائمة بين الأعمال المختلفة ، رغم تشابهها في الأفكار وفى صور البطل وفى الموضوعات العامة . وهذا يرجع الى مقدار ما يعترى الشكل الأدبى الشعبى من صقل قبل أن يصل الى مرحلة التدوين .

على أننا نرى أن حكاية عمر النعمان ، رغم ذلك تتشابه مع ملحمة ديجنيس الى حد كبير من حيث تناولهما للموضوع . فكلاهما يتخذ من نهر الفرات رمزا للسلام والهدوء والجمال . وكل من بطليهما يحس الجمال بجانب هذا النهر ، جمال الايمان وجمال الأمل وجمال الطبيعة وجمال الحب ، وكل منهما ينحو منحنى رمزيا ، فهما يرتكزان على التاريخ وحوادثه ، ولكنهما يتركانه بعد ذلك ، الى حيث يقف البطل مدافعا عن أمله الذى يراوده وعن الحق والجمال والسلام .

الخـــاتمة

ولعلنا بعد هــذه الجولة التى عشناها مع الأدب الشــعبى العربى ، والأدب الشعبى البيزنطى ، استطعنا أن نبين العــلاقة القوية بين الأدبين .

والحق أن هدفنا من البحث ليس الكشف عن العلاقة القوية بين الأدبين ، بقدر ما هو الكشف عن العلاقة بين الشعبين العربى والرومى ، والكشف عن صراعهما النفسى وآمالهما فى تلك الفترة المتوترة الطويلة التى عاشها الشعبان معا .

ان العلاقة بين شعبين وان اتخذت شكلا عدائيا ــ لايمكن أن تفهم من وجهة نظر التاريخ وحده . فالتاريخ لايهتم الا بالعلاقات الرسمية ــ سلمية كانت أم حربية ــ التى تتم بين الحاكمين . ولكن حيث أن المحاربين أنفسهم كانوا يمثلون طوائف شعبية ، جمع بين بعضهم البعض هــدف واحد وروح جمعى واحـــد ، فلا يمكن اذن أن نغفل احســاسات تلك الطائفـــة الشعبيـــة التى عاشت ظروف هذه الفترة فى أعماقها وكان احتكاكها بالشعب المعادى لها أقوى وأعمق بكثير من علاقة الحكام بعضهم ببعض .

ولهذا فنحن نرى أن دراسة التاريخ بعيدا عن الآثار الأدبية التى تصور فى عمق شتى جوانب الحيـــاة فى ظروف تاريخية محددة ، دراسة ناقصة ولا شك . فليســـت العبــرة أن نحفظ تواريخ وحوادث فحسب ، وانما يتحتم علينا أن تكون نظرتنا شاملة وعامة ، فنبدأ بالتاريخ، ثم نتعداه الى دراسة النماذج الأدبية بوصفها مصورة لأفكار سياسية واجتماعية وانسانيــة تفجرت عن حوادث معينة عاشها الشعب فى حقبة من تاريخه .

وبهذا تتكامل دراستنا التاريخية ، ونستطيع بذلك أن نقول ان العلوم الانسانية ليست بمعزل عن بعضها البعض ، وانما يكمل بعضها الآخر من أجل هدف واحد هو فهم الانسان فى فترة من فترات حياته .

واذا كان الحاضر يقدم لنا دائما الشيء الجديد والشيء اليومى ، فان الماضى قد قدم لنا تراثا خالد من النماذج والأفكار الانسانية الرائعة . ولا يتمثل هذا فى الأدب الذاتى وحده ، وانما يتمثل ، الى جانب ذلك ، فى ثروة التراث الشعبى الهائلة التى خلقتها لنا الشعوب . فالالياذة والأوديسا ، وملحمة النيبلنجن ليد وملحمة بيولف ، والملحمة الايسلندية ، تقف كلها جنبا الى جنب مع الفردوس المفقود والكوميديا الالهية . وبالمثل فان ألف ليلة وليلة والسير الشعبية العربية تقف مع أروع الأعمال الأدبية العربية القديمة جنبا الى جنب ، وان كان كل نوع له وظيفته المحددة فى الحياة الانسانية .

وليس الأدب الشعبى مجرد أقوال ينطلق بها الشعب ليسلى بها نفسه فى أوقات فراغه ، وانما يؤدى الأدب الشعبى وظيفة محددة فى حياة الشعب ، فهو جزء عضوى حى فى حياته لا يمكنه أن يعيش بدونه .

ويمكننا أن نتصور الشعب العربى الذى كان مقيما فى منطقة الحدود العربية ذات يوم ، أو ذلك الذى كان يكافح فى ظروف تاريخية أخرى مماثلة ، وهو يجتمع مع بعضه البعض كلما واتته الفرصة ، ليستمع الى حكايات البطولة التى تجسد له نماذج أبطاله بقيمهم الانسانية الرائعة ، وتجسد له فى الوقت نفسه نموذج الشر الذى يفسد عليه حياته ، ألا يجد فى ذلك زادا يستحيل فى جسمه الى دماء تغلى من أجل تحقيق الخير ؟ بل

ألا يزداد مقتا لقيم الحياة الفاسدة ، فيعلن الحـرب عليها حتى يزيلها من حياته ؟

ان الانســان الشــعبى متفائل بطبعــه ، ولذلك فهو متعلق بالحياة ، ويسعى الى تحقيق الأسمى اذا واتته الفرصة ، ووجد البطل الذى يلتف من حوله . وليس ذلك سوى اســتجابة للقوى الخيرة التى تسكن بداخله والتى سماها يونج بالنموذج الأصلى . هذه القوى الخيرة التى تكمن فى الانسان بصفة عامة وفى الفرد الشعبى بصفة خاصة ، هى التى تجعله يحب بطله ويود الاستماع الى حكاياته لأنها تلبى احتياجاته النفسية التى لا تتحقق له الا بهذه الوسيلة .

وقد استجاب الشعب للنموذج الأصلى حينما خلق من خلال فنه نموذجا للبطل الشعبى الذى تجســدت فيه آماله ، والقيم الانسانية الصالحة التى يسعى اليها .

وقد وجدنا أن كلا من الأدبين العربى والبيزنطى لم يهدف الى تصوير العداء المتبادل بين العرب والروم ، بقــدر ما حــرص على محاربة الشر الذى يتهدد الانسان ويتهدد مصيره . وقــد نجم عن ذلك نموذجا رائعــا للبطولة ، سهر بعين اليقظــة ليقضى على الفساد ويحقق الكل الكامل .

فمــا أروع الآداب القــديمة التى تدفع الأمل الى الشــعب . وما أجدرنا ان نذيعها بينه اليوم وكما كانت تذاع ذات يوم ، حتى يظل متعلقا بنماذج أبطاله ويحذو حذوهم اليوم .

المصادر والمراجع

المراجع العربية

١ ـ الف ليلة وليلة ـ مكتبة الجمهورية العربية .
٢ ـ ابن حوقل : صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨) .
٣ ـ ابن حوقل : المسالك والممالك (ليدن ١٩٣٨) .
٤ ـ ابن النديم : الفهرست (ط. الرحمانية بمصر ١٣٤٨) .
٥ ـ ابن الأثير : تاريخه ط ليدن .
٦ ـ أسامة بن منقذ : الاعتبار : برنستون ١٩٣٠ .
٧ ـ الأغانى للاصفهانى . ط القاهرة ١٢٨٥ هـ .
٨ ـ سيرة الأميرة ذات الهمة ط عبد الحميد حنفى .
٩ ـ د. حسين مؤنس : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة) لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠) .
١٠ ـ الجاحظ : رسائله (نشرها بوشع فنكل القاهرة ١٣٤٤ هـ)
١١ ـ القلقشندى : صبح الأعشى : المطبعة الأميرية ١٩١٣ .
١٢ ـ ڤازيلييف : العرب والروم (ترجمة فؤاد حسنين وعبد الهادى شعيره . دار الفكر العربى) .
١٣ ـ المسعودى : التنبيه والأشراف ط . دى جريه .
١٤ ـ المسعودى : مروج الذهب .
١٥ ـ النويرى : نهاية الأرب (ط وزارة الثقافة والارشاد القومى ١٩٦٦) .
١٦ ـ د . نبيلة ابراهيم : أشكال التعبير فى الأدب الشعبى . (مطبعة نهضة مصر ١٩٦٦) .
١٧ ـ هانزڤير : الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة . (فيزبادن ١٩٥٦) .
١٨ ـ د. سهير القلماوي : الف ليلة وليلة . ط. دار المعارف .

المصادر والمراجع

المراجع الأجنبية

1. Adonz : Les Fonds Historique de l'Epopée Byzantine « Digenis Akritas. (Byzantinische Zeitschrift 1929 - 30).
2. Baynes and Moss: Byzantium. (Oxford 1953).
3. Bowra (C.M.) : Heroic Poetry, (Macmillan London 1952).
4. Buchhardt (G.) : Gilgamesch ; (Insel Bücherei n. 203).
5. Bury : History of the Roman Empire. (London 1912)
6. Canard (M) : Un Personage de Roman Arabo-Byzantine (Société Historique Algérienne 1932).
7. Canard (M): Delhemma, Sayyid el Battâl et 'Omar an-Nôman, (Extrait du Byzantion 1937).
8. Chadwick (M.): The Heroic Poetry ; (Macmillan London 1921).
9. Cheira (M.A.) : La Lutte entre arabe et byzantine aux VII et VIII siècles (Société de Publication).
10. Ethé (H.) : Die Fahrten des Sayyid el Battâl. (Leipzig 1871).
11. Frazer (J.G.) The Golden Bough (London 1890).
12. Grimm (B.) : Kinder und Haus märchen (Marburg 1941).

13. Gregoire : Nouvelles chanson epignes des IX et X siècles, (Byzantion XIV).

14. Grégoire : L'âge héroique de Byzance : (Paris 1933)

15. Grégoire : Les recherches récents sur l'épopée byzantine (Antique Classique 1932).

16. Grégoire : Autour de Digenis Akritas (Byzantion 1932 VII).

17. Grégoire : Le Tombeau de Digenis Akritas (Byzantion 1931).

18. Grégoire : Echanges Epique Arabo-Byzantine 1932.

19. Grégoire et Gossens : Les Recherches récents sur l'épopée byzantine (L'antiquité classique 1932).

20. Grégoiré et Gossens : Byzantinsches Epos und arabischer Ritter roman (I.D.M.G. 1934).

21. Haslick (F.W.) : Christianity and Islam under the Sultans (Oxford 1929).

22. Jolles (A.) : Einfacke Formen (Tübingen 1958).

23. Krejce (F.) Das Charakteristische Merkmal der Volks poesie.

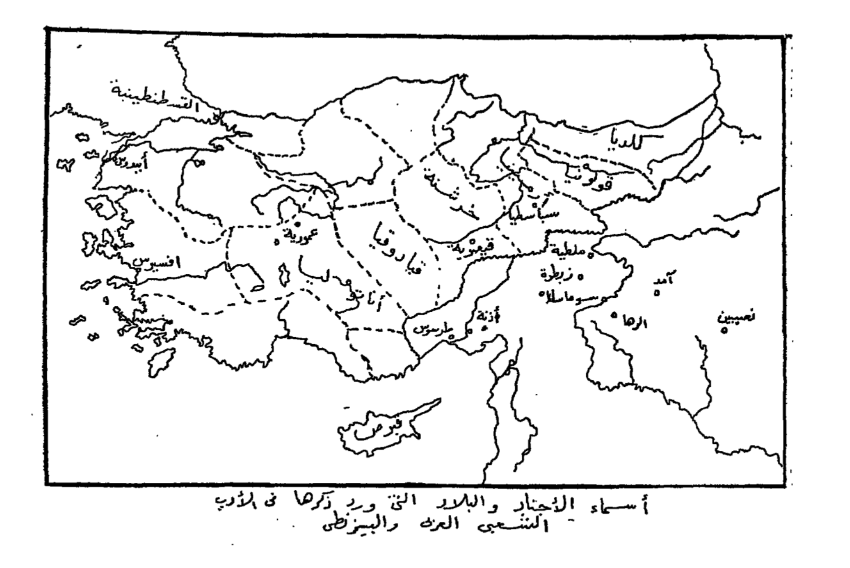
24. Kyriakidis (St.) Forschungsbrichgt sum Akritasepos Berichte sum XI internationalen Byzantin.

25. Krumbacher : Geschichte der byzantinischen Literatur. (München 1891).

26. Luthi (M.) Das Europäische Volks märchen (Franche - Bern 1947).

27. Littmann (E.): Arabische Beduinenerzählungen (Müller Verlag 1957).

28. Litmann (E.) : Arabische Märchen (Insel Verlaq 1927).
29. Litmann (E.) : Tausand und eine Nacht in der arabischen Literature (Tübingen 1923).
30. Mavrogardato (J.) : Digenis Akritas. (Clarendon Press Oxford 1956).
31. Paret (R.) Der Ritter Roman von Omar an-Nôman und seine Stellung zur Sammlung von Tausand und eine Nacht (Tübingen 1929).
32. Paret (R.) : Die Geschichte des Islams im Spiegel der arabischen Volksliteratur.
(Philosophie und Geschichte B. 13.1927).
33. Paret (R.) : Sirat Saif ibn Dhi Jazan.
(Orient Buchhandlung 1924).
34. Ràglan (L.) The Hero (London 1949).
35. Ranke Betrachtung zum Wesen und zur Funktion des Märchen. (Gottingen 1958).
36. Runciman (S.) : The medieval Manichee
(Cambridge 1955).
37. Singer : Arabische und Europaische Poesie im Mittelalter (Insel Verlaq 1918).
38. Sathas et Legrand : Les Exploits de Digenis Akritas. (Paris 1875).
39. Täschner (R.) : Des Futuwwa Rittertum des islamischen Mittelalters.
40. The Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend.
41. Von der Leyen (F.) : Das Märchen, quelle und Meyer, Heidelberg 1958.



أسماء الأجناد والبلاد التي ورد ذكرها في الأدب الشعبي العربي والبيزنطي

فهرست

مطـــابع
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
فرع الصحافة



دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
فرع الصحافة

